



من الشرق والغرب

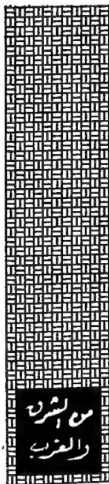


# بين الدين والحياة

بقلم  
عبد المنعم النمر



أ.د. محمود دياب  
جراح بالمستشفى الملك فيصل





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي  
الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »

وصل اللهم على رسولك الكريم  
وآله وصحابه والتابعين .



## تقديم

### بسم الرحمن الرحيم

أخى . . .

عندما أتجه الغرب — منذ قرون — للاستيلاء على الشرق ،  
ولاسيما قلبه النابض — العالم الإسلامى — اتخذ وسيلتين للهجوم :  
المهجوم الفكرى ، والمهجوم للسلاح . وكان يعلم — كما علمنا — أن  
المهجوم الفكرى أشد خطراً وفتكاً ، وأبعد أثراً من الهجوم للسلاح ،  
ولذا وجدناه يركز جهوه على معالم الإسلام ومبادئه ، وأتاحت له قوته  
للادية ، فى السيطرة ، وفى أدوات الشر والإذاعة ، أن يروج  
لباطله ، وبث الشكوك فى حقائق الإسلام ، وما جاء به من مبادئ  
قروعة ، توفر السعادة للمجتمع . . وكان لهذا أثره على عقول بعض  
المسلمين المتضيقين ، وأحياناً على قواد الفكر والثقافة ، فانساقوا  
فى تياره ، ورددوا اتهاماته ، وانصرفوا عن مبادئهم ، وحلأهم أن  
يمجدوا كل ما هو غربى ، وينتصروا كل ما هو شرقى ، مهما يكن  
وثيق الصلة بعقيدتهم .

وكان ذلك نجاحاً .. له خطره وقيمته فى أعين الغربيين ، لامن  
الوجهة الدينية فحسب ، بل من أجل خدمة أطماعهم فى السيطرة على  
الشرق كذلك ؛ لأن السلم حين ينهار ، ويتنازل عن بعض عقائده  
ومقدساته ، لا ينتظر منه أن يتأسك ، أو يحافظ بعد ذلك على أية

مثل كرمة أخرى ، يل يسارع إلى التفريط فيها ، لأنها ليست عنده أغلى من دينه الذى خرج عليه ، وأنكر مثله ومبادئه .

ومن هنا كان خطر الانهيار الدينى فى النفوس ، غير قاصر على الفرد وحده ، بل يمتد كذلك إلى المجتمع كله ، إلى كيان الدولة ، وتماشكها ونهوضها .

ومن الأفكار الخبيثة التى سلطها أعداء الإسلام عليه ، أنه دين لا يتفق والحياة ، ولا يتمشى مع تطورها ، وأنه شيء والحياة شيء آخر ، أو أنه شيء والدولة ونظامها شيء ، يقصدون بذلك عزل الدين عن التدخل بأبداء وجهة نظره فى الحياة ، وقد ساعدهم على ذلك بعض مفكرى الإسلام الجاهدين — من حيث لا يشعرون — وبعض الحكام للسلمين ، من الطغاة للترفين ، الذين يحاول لهم التدخل من مبادئ الإسلام وآدابه ، فى حياتهم وحكمهم . فسرت موجة التدخل فى النفوس ، وانقلت الناس من التأديب بآداب دينهم ، أو اتخاذهم إماماً لهم فى سلوكهم ، حتى أصبح مقياس الدين عندهم لا وزن له ، واتخذوا بدله من المقياس ، ما يتناسب ورغبتهم فى التدخل ، فأصبح الخروج عن مبادئ الدين تقدماً ، والظعن فى تعاليمه ومقدساته تنوراً ، وما يفعله الترييون — ولو تعارض مع مبادئ الدين — حضارة يحارونهم فيها . . وليس هناك ما هو أشد فتكا بالأمة ، وهدماً لكيانها ، مثل اضطراب المعايير أو انقلاب المقاييس فيها .

لهذا كان من واجب كل إنسان يغار على أمته ، أو يتولى فيها أى مركز قيادى ، أن يعمل لبث الروح الدينية فى النفوس ، وإحياء القيم الروحية فيها ، ليكون ذلك على الأقل تحصيناً لها ضد عوامل الهدم والانحلال ، وركيزة قوية تنبعث منها انطلاقة الأمة لكل نهضة ، وكل تقدم وخير .

ولا شك أن مما يساعدنا على بث الروح الدينية فى النفوس ، أن نعيد النظر فى بعض الأفكار الدخيلة على الإسلام ، والتى تعتبر أثاراً من آثار الانحلال ، أو الانحراف ، أو الجلود الفكرى . . فى الصور السابقة ، فنعمل على تنقية الإسلام من هذه الشوائب ، التى عكرت صفوه ، ونفرت منه بعض أهله ، وتقديم للمبادئ والتعاليم ، والأفكار الإسلامية ، صافية صفاء للنبي الذى نستمد منها ؛



كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، محاولين جهد المستطاع ، أن  
نربط بين هذه الأفكار الصافية ، وبين الحياة السليمة المستقيمة ، كما يريدنا  
الله لعباده .



من أجل هذا كله — صديق القارئ — عنت بكتابة هذه الأبحاث ، التي  
أقدمها إليك الآن ، راجيا أن تجد فيها ما قصدت إليه ، وأن تجد في ثقلك بينها  
غذاء فكريا متنوعا ، ونزهة نفسية ، تبعث عنك ما قد تحسه أحيانا من ملل ، حين  
تتابع موضوعاً واحداً من أول الكتاب إلى آخره . .

ولعله يسرك — كما سرني — أن تكون هذه الأبحاث قد أخذت طريقها إلى  
قراء اللغة الأوردية في الهند وباكستان حين حرصت « دار للصنفين »  
في « دلهي » على ترجمتها وتقديمها لآخوانك المسلمين هناك .  
والله حسبي وهو المستعان ؟

عبد المنعم النمر



## ١- الدين والدنيا



إن الله سبحانه وتعالى حين قال للملائكة « إني جاعل في الأرض خليفة » كان يعلم الدور العظيم الذى سيقوم به الإنسان في عمارة الكون ، واستخراج مكنوناته ، والتوجه إلى الله في تذكيره وتأملاته ، لذلك رد الله عليهم ، وقال لهم : « إني أعلم ما لا تعلمون » فمن القول إذن أن يكون دور الإنسان في هذه الحياة عمل عناية ورعاية هامتين من الله سبحانه . . . وعلى الإنسان أن يفهم هذا الدور ليؤديه كما أراده الله .

وقد صور كثير من الكتاب والوعاظ وجود الإنسان على الأرض على أنه مجرد وسيلة إلى بلوغه الآخرة ، بحيث تصبح دنياه تافهة ، لا تستحق منه أى اهتمام أو مجهود ، ولم يكن هذا التصور حقيقة ، بقدر ما أرادوا به الحد من غلواء الفاسدين في الحياة ، فكأنهم قابلوا التطرف بالتطرف ، لكن المسلمين تأثروا بما سمعوه كثيراً من تصور الدنيا هذه الصورة المنفرة ، حتى ظنوا أن كل سعى فيها ، إنما هو جرى وراء شهواتها ، فعملوا عن السعى ، واعتقدوا أن التدين يقتضى من الإنسان أن يقعد في حجرة ويفرقاه ، يرسل الله له من يلقي فيه ما يشبع به بطنه ، وسرت حكايات كثيرة من هذا القبيل بين المسلمين ، فغفرتهم عن العمل ، وتركوا ميدان الحياة لغيرهم ، ممن يحسن الفهم ، ويحسن العمل في الحياة .. فكان له عز الحياة ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

إن حياة الإنسان على هذه الأرض ، ومصارعته للأهواء ، وتعميره للسكون ، وتفكيره في خلقه ، كل ذلك من المقاصد الأولى من خلق الإنسان ، فقد أراد الله منه أن يجيد حياته على الأرض ، ويحسن استغلال ما في السكون ، لسلك ما فيه خير له ولبنى جلسه ، بما يهذى للروح والجسم معا . أراد الله من الإنسان أن يستغل الأرض ويمتشي في مناكبها ، ويعمل حياته عليها ، جنة له ولإخوانه ، فيها الراحة النفسية والطمأنينة والسلام .

وفي سبيل تهية هذه الجنة الأرضية لخليقة الله في الأرض ، أرسل الله رسوله ، وسن شرائعه ، وأخذ الأقوام الخارجين على هذه الشرائع بالعذاب الشديد في الدنيا قبل الآخرة ليؤدب من بدم ، ويلجئهم إلى الحياة المستقيمة ، والعيشة المظمنة ، ولم يرسل الله الرسل — رسولا بعد رسول — إلا بعد أن ينسى الناس شرعة السابق منهم ويتألبوا على تعاليمها ، وتصير حياتهم مصابة بشق الأمراض والعلل التي تحتاج إلى دواء ، فيأتي الرسول ليردم إلى الصواب ، في أساليب حياتهم وتفكيرهم ، ويضع أمامهم وسائل السعادة في هذه الحياة قبل الآخرة من جديد . . . صانعا لهم الوصول إلى هذه السعادة ، متى ساروا على الطريق للرسوم . وقد جعل الله الجنة والسعادة بها في الآخرة جائزة ومكافأة لكل من يترسم طريق السعادة في الدنيا . فالجنة أعظم جائزة مغرية لخليقة الله ، كي يسلك الطريق القويم في دنياه ، والنار أشد رادع وزاجر ، لكن من ينطلق وراء شهوانه ، يؤذى الناس .. ونفسه ، ويسوء استغلال مواهبه ، وما خلقه الله من أجل سعادته ... فالجنة والنار وسيلتان من الوسائل التي جعلهما الله لحمل الإنسان على العمل الطيب ، وحسن استغلال الدنيا وإحسان الاستخلاف فيها .

فالحياة السعيدة على وجه الأرض ، غاية الغايات من خلق السكون ، وخلق الإنسان وإرسال الرسل ، وسن الشرائع ، وخلق الجنة والنار .

فليس من السهل إذن على العقلاء الفاهمين أن يهون الدعاة والوعاظ من شأن العيش والعمل على هذه الأرض ، أو من شأن دور الإنسان فيها ، ومن للفاطلة أن نجعلها شيئا عارضا تافها لا يستحق من المؤمنين أى مجهود . ومن

الإساءة إليها وإلينا أن نعتقد أننا فيها غرباء ، وقد خلقت بكل ما عليها من أجلا ، وجعل الإنسان فيها سيداً بين كائناتها .

وإذا كانت اللجنة جائزة لمن حصلت دنياه ، فإنه يمكن القول إنه لا سبيل إلى النعيم في اللجنة إلا عن طريق النعم الحقيقي في الدنيا ، وعلى قدر توفيقنا في اكتساب دنيانا والفوز بها ، وتحقيق معاني خلافتنا فيها ، يكون توفيقنا في آخرتنا ، فهناك ارتباط وثيق إذن بين الدين والحياة ، أو بين الدنيا والآخرة . ولكن الناس لم يفهموا هذا ، ففرقوا تفريقاً شاسعاً بينهما ، حتى كأنهما ضدان لا يجتمعان .

ولقد فهم بعضهم أيضاً أن السعادة في الدنيا ، إنما هي الانطلاق من القيود والجري وراء الشهوات ، وتحصيل المال والركز بأي طريق يرويه موصلا لذلك .. وهم ضماف ، قصيرو النظر ، قليلو الإدراك لحقائق الأمور ، ولذلك يبحىء فهمهم للسعادة في الدنيا فهما ناقصا بعيداً عن الصواب .

إنهم يريدون السعادة لأنفسهم والله يريد السعادة لهم أيضاً . ولكن عيهم أنهم لا يرفضون رأى الخبير الحكيم ، الذى يرسم لهم الطريق السوى لبلوغ السعادة ، ويجرون وراء خيالاتهم وأوهامهم ، وما يظنون سعادة لهم ، فتكون النتيجة أن يسطدم كل منهم بالآخر فيشتقون .. حتى لو ظن أحدهم أنه وصل إلى أمنيته ، فإنه لا يلبث أن يجد نفسه بعيداً عن السعادة الحقيقية ، ويراه الناس كذلك ، فيرتقون لحاله ، ويندم آخر الأمر على ما بذله من مجهود ، وما تاله من فشل في صورة نجاح .

#### ولأضرب مثلاً بوضح ما أقول :

أناس يريدون تحصيل الأموال الكثيرة ، والله يريد لها أيضاً ، ولا يحرمهم منها ، وقد رسم لهم طريق الوصول إلى غايتهم من تحصيل المال ، وذلك بالجد والكد والصدق ، وعدم إيذاء الناس . وهذا طريق سليم مضمون لتحصيل المال . ومن سار فيه ضمن المال في رضا نفس ، واطمئنان قلب ، واستطاع أن يستغله للحياة وللمتعة الكريمة التى يريد لها الله ، ولكن بعض الناس لا يتعبد السير في هذا الطريق السوى ، وتطغى عليه شهواته ، فيتخذ للوصول إلى المال

طرقاً مروجة ، فيها النش و سلب الحقوق ، وقد يجمع مالا كثيراً من هذا الطريق أيضاً ، وربما يظن أنه أصبح سعيداً بما جمعه من مال . . ولكنه في الحقيقة قد بعد عن السعادة الحقة عند الله والناس ، بل وعند نفسه أيضاً إن تيقظ ضميره فيما بعد وأحس ما اقتدره من أخطاء في طريقه إلى النش .

فهذا وذاك وصلا إلى المال ، ولكن شتان ما بينهما . فالأول سعيد بكده وماله الذي حصله ، وأتفق منه على المحتاجين ، مرضى عنه من الله والناس ، اكتسب الدنيا والآخرة معاً . . والآخر سعاده كسراب بقية ، لا يلبث أن تتكشف له الحقيقة المرة ، ويطارده غضب الناس عليه ، وينتظره غضب الله ، خسر الدنيا والآخرة . . وقد التبس الأمر على بعض الزهاد والوعاظ فذموا طالبي المال وطالبي الدنيا أياً كانوا . . وهذا خطأ أو على الأقل مبالغة ضارة ربما تنتج خمولا وقودا ، أو تنتج خروجا على الدين ، وانتكاساً عليه .

والقول الوسط الذي يجب أن نقوله ويفهمه كل مسلم ، أن الذي يطلب المال من وجهه ولا يضر الناس ، بل يحافظ على حقوقهم ، يحقق لكلمة الله وحكته في تعمير الأرض بالإنسان ، وكل قرش يكتسبه يستعين به على الحياة ، أو يساعد به محتاجاً ، أو ينشئ به صناعة أو يسد به نقصاً في أمته ، إنما يكتسب معه رضوان الله . . فليجمع المال اذن بالقآ ما بلغ ، وليتمتع بنعمة الله في الحدود للرسمية المقولة ، فإنه عند الله من اللقربين ، وهو خير وأولى عند الله والناس من الرجل السلي الذي لا يكتسب ، ولا يساعد أحداً ، كما أنه خير ممن يجمع المال من طرق غير سليمة ، وإن الله لم يجب على قارون إلا غروره بجمع المال وعدم مراعاة حق الله والناس فيه . . وقد كانت نصيحة العقلاء التي أقرها الله له « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب للمفسدين » .

وهكذا كل طريق موصل للسعادة الحقة في الدنيا هو موصل كذلك لرضاء الله والسعادة في الآخرة .

إن الله يحب الأغنياء التقين ، والأقوياء الخاضعين ، والصناع التمتين ، والتجار الأمناء والزراع الأوفياء « فالؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » و « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

فلا يقل أحد إن هناك تعارضاً بين الدين والدنيا ، وبطلانها قضية عامة ، ولا يقل أحد أن الدين يحول بيننا ، وبين النقي الشريف وللمنة الحلال ، فإن هذا جناية على الدين والدنيا معاً ، وعليه أن يقول إن الدنيا والآخرة كما أرادها الله شيان متلازمان ، السعادة في أولاهما أساس للسعادة في أخراهما ، أما التعارض فهو بين الدنيا كما يريد بها الناس مدنية بالنش والكذب والتفاني والخداع والشر ، وبين الدين ، بل وبين كل عقل سليم . علينا أن نقول « إن الدين كما شرعه الله نقياً من الحرافات ، وتزييدات الباطلين هو في خدمة الدنيا أو عبارة أخرى هو وسيلة لتحصيل الدنيا ، وللمنة فيها كما يريد بها الله ، وكل ما يحقق مصلحة الناس وسعادتهم في دنياهم ، فهو من شرع الله ، وكل ما يجلب الشر فهو بعيد عن شرع الله لم يأمر به ، فالدين وسيلة لتحسين الدنيا وإسعاد الناس فيها ، فهل يعقل أن يتعارض معها ؟ ! أنه يكون حينئذ متعارضاً مع نفسه وبطلاناً لمدفعه .

إنه لم يتفق عقل سليم مع الشهوات المنرفة ، ولم تتفق سعادة الإنسان ومصلحته مع الجري وراء شهواته ، فكيف يريدون من الدين أن يقر دنياهم المليئة بالشرور والشهوات ؟ ! إن الدين يحارب الشر في الإنسان ويحارب كل شرر مخاف لآفته يكون جرثومة فساد في المجتمع السليم .

إن الدين يدفعنا إلى أن نكون أقوياء في الدنيا قبل كل شيء . . في جسمنا وعقلنا ورأينا وثورتنا ، وصناعتنا وخلقنا . . وهذا هو ما يريد الإنسان . . ولكنه كثيراً ما يخطئ الطريق إليه إن بعد عن نور الهداية الذي أقامه الله . . فاطلبوا الدنيا إذن أيها السالمون بكل ما تستطيعون من قوة في نور هذه الهداية . . اطلبوا المال ، اطلبوا العلم بكل فروعه وحققوا لأنفسكم العزة التي جعلها الله لكم . . ولا تتركوا أباً أو وسيلة لتحصيل الدنيا والقوة فيها ، إلا ولجتموه على هدى من نور الله ، واجعلوا شعاركم ودعاءكم دائماً قول الله . .

« ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »

## ٢ - المتفرون ودعوات الرسول والمصالحين



قال تعالى :  
« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ  
مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ  
مُتْرَفُوهَا : إِنَّا بِمَا  
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » .  
(آية ٤ من سورة سبا)

هذه دراسات نفسية واجتماعية للأفراد والمجتمعات ، القديعة منها والحديثة ،  
أوحى إلى بها دراساتي للقرآن الكريم ، وهي دراسات بعد أن قرأها أو نسمها ،  
نحسها في وجودنا ومحيطنا الذي نعيش فيه حتى لكأننا نلسمها ونحسها بكل حواسنا .  
ففي كل مجتمع من المجتمعات أيا كان هذا المجتمع ، وفي كل زمن من الأزمان ،  
طبقات متعددة ، طبقة وجدت حظها ونعيمها في ظل الوضع الراهن ، والنظام القائم ،  
فهى فيه صاحبة النفوذ الفعال ، والكلمة المسموعة ، والجاه النافذ ، والثراء الواسع  
الذى يقبل عليها ، والذى يساعدها الوضع القائم على الازدياد منه ، والتوسع فيه  
من كل وجوهه . مشروعة أو غير مشروعة ، فهى من أجل ذلك تحرص على  
بقاء هذا الوضع ، حرصها على حياتها ونعيمها ، وتبذل من مالها وجهاتها الكثير  
فى سبيل الإبقاء عليه ، حتى يبقى لها فى ظله ، ماهى فيه من جاه ونعيم .  
وبجوار هذه الطبقة ، جماعة تعيش فى ظلها وأتباع ينعمون على «وائدها» ،  
ويقبل عليهم النفوذ باسمها ، فهم يحدون نعيمهم فى نعيم أسيادهم ، ولهذا يرتبطون  
حياتهم بحياة الترفين ، ويميشون بأفكارهم ويرددون نغمتهم ، ويصبغون ببنائات  
لم ، وإمعات يحبون بروح غيرهم ، ويفكرون بقول غير عقولهم ، فهم لا كيان  
لم ، خاصا بهم ، وإنما هم تبع لغيرهم .



ومع هذه الطبقة للترف وحاشيتها ، طبقة أخرى كادحة تعيش على هامش الحياة ، فهي تكسح وتثقي ، لكن لا تستطيع أن تنم بكدها وكدها ، ولا يتوافر لها جزء جهودها ، وإنما يذهب إلى جيوب للترفين ، أو يستولى عليه الأغنياء للتمتع ، فلا يتركون لهم إلا القوت تفضلا منهم ومنة وإحسانا إن أرادوا ، وإلا حرم هؤلاء الكادحون من قوتهم وتضوروا جوعا ومشوا عراة ، وطاشوا كالحيوانات أو أقل .

وهذه الطبقة الكادحة ، تعيش منفصة ساخطة متبرمة بالحياة ، لكنها لا تستطيع أن تبدي رأيها ، أو تظهر سخطها ، أو تبين لأسيادها ألامها ، أو تبث إليهم شكواها لأن ذلك — في عرف السادة للترفين — تمرد جزاؤه الحرمان من النعم الذي يموتون فيه ١١ جزاؤه — السجن والتعذيب والطرده والقتل ، ثم لا يجدون لأنفسهم نصيرا ولا معينا ، لأن الحاكمين من هذا الطراز ، فيصبر هؤلاء على مضض ويمشون وهم كارهون . يتلسمون الخلاص في كل نعمة تهب عليهم ، ويتقربون النور مع للشرق كل صباح ، ويتوقعون الكارثة لأسيادهم مع ظلام الليل ، يتوقون إلى الفكك من هذا الأسر ، ويأملون الخلاص من هذا القتل ، وقلوبهم تنطوى على حقد دفين ، ونار ملتهبة ، تحرق الأرض ، وتحملها خرابا ، ويظلمون هكذا وهم ينتظرون الحرية والعدالة على يد قوى من الأقوياء ، أو نبي من الأنبياء ، أو داعية من الدعاة للصالحين ، الذين يدعون إلى المحبة والمعدل ، والحرية والإخاء والساواة ، فإذا وجدوا ضالتهم فتحوا عيونهم وقلوبهم ، وأحاطوا بالداعية الجديد ، رمز خلاصهم وتحريرهم ، يؤيدونه وينصرونه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، حتى يوقر لهم الحرية والعدالة التي إليها يتوقون .

ولذا نرى موقف هؤلاء من الدعاة وللرسلين والزعماء للصالحين على مر التاريخ ، غير موقف للترفين فهؤلاء الكادحون المظلومون يرون إنصافهم وخلاصهم على يد هذا الداعية للصالح ، ويرون فيه متقدا ورحيما ، وهم لا يطلبون إلا رفع القتل عنهم ، وتوفير الحرية لهم ، وهذا الرجل الذي يدعو للمعدل والمحبة ، والساواة والأخوة ، هو ضالتهم ، ومثلهم الأعلى في الحياة ، فلا غرابة في أن

يتمسكوا به ، ويفتدوه بما يستطيعون ، لأنهم إنما يدافعون عن أنفسهم ، وينطقون  
بنجاتهم وحرثتهم .

أما الترفون الذين يعيشون على كبد غيرهم ، وينعمون بمجد السخرين من  
إخوانهم ، وأبناء جنسهم ، والذين وجدوا في غنائم وقتهم فرصة لظلم الناس ،  
وكبت حرياتهم ، ونهب ما بأيديهم ، والذين استولوا جاههم وقودهم لخدمة  
أنفسهم ومن حولهم ، فوسعوا ثرواتهم وبسطوا على الناس مساوئهم — أما هؤلاء  
الترفون فيرون في كل داهية مصلح شبحا غيفا ، يقض مضجعهم ، وينقض  
عليهم معيشتهم ، ويقوض عليهم سلطانهم ، فهو العدو اللين لهم ، العدو الذي  
ميسبب منهم كل سلطان ونعيم ، لأنه يدعو إلى الحرية للناس أجمعين ، وهم  
لا يحبونها إلا لأنفسهم فقط ، ولا يعيشون إلا على استعباد غيرهم ، من عباد الله  
الضعفاء ، وهو يدعو إلى التسامح والمحبة ، وهم يكرهون هذا الخلق ، ويحبون  
البطش والتكبر ، والقهر والتجبر ، ثم هو يدعو إلى الأخوة بين الناس أجمعين  
وهم يأتفون من هذه الأخوة ، ويرون أنهم خلقوا من طينة غير طينة الناس ،  
وأصل غير أصلهم ، ويصور لهم غرورهم أن الدم الطاهر الذي يجري في عروقهم ،  
ليس كالدم الذي يجري في عروق هؤلاء الفقراء .

ثم هو يدعو إلى العدل ، وهم يكرهون العدل ، ويحبون على الظلم ، وكأنه  
الهواء الذي يعيشون فيه ، وهل يعقل في نظرهم أن يسوا بينهم وبين فقير  
مسكين ؟ . . . وهل يرضون بالقصاص منهم إذا اعتدوا على آخر ليس من  
طبقتهم ؟ ، وهل يسمح السيد أن يقتص من نفسه لأجير عنده ؟ ثم هو كذلك  
يدعو إلى المساواة وهي في نظرهم خلق مرذول يحط من شأنهم ، مع أنها  
الخلق الفاضل الذي يحمله الرسل والصلحون شعارهم ، فهل يقف الغني مثلا  
في الصف ليأخذ دوره كما يقف الفقير ؟ وهل تسرى عليه القوانين كما تسرى  
على الضعفاء والمساكين ؟ إن ذلك في نظره محال ، وللرب عنده أهون عليه  
من هذه المساواة ۱۱

ثم إن هؤلاء الترفين نعموا بالحياة ، وجمعوا ثرواتهم فيها في ظل وضع صنعوه  
لأنفسهم ، أو على الأقل ، وافق هوائهم ، وساعدتهم على التوسع في ثرواتهم ، وقد

اطمأنوا إلى حياتهم ، وإلى تزايد أموالهم ، واتساع نفوذهم في رحاب هذا النظام لهذا كله يحرسون عليه ، ويحاربون كل من يحاول منه بسوء ، حرياً عنيفة لا هوادة فيها ؛ لأنهم للحرصون لهذا السوء ، فهم يدفعون عن أنفسهم ما استطاعوا ، ويشيرون الثبار والشكوك حول هذه الدعوة الإصلاحية ، حتى يقضوا عليها وتبقى لهم الحياة ، ويظل لهم السلطان .

فما هذا الذي يدعو إليه ذلك للفرور الذي يسمى نفسه رسولا ومصلحاً ؟ وما هذه النعمة المردولة ، والبدعة للمقوتة التي يدعو إليها ، من عدل وتسامح ، وأخوة ومساواة ؟ وهل يقل هذا ؟ وهل نطبقه ونسكت عليه ؟ بل لقد استغرب للفركون أن يدعو محمد إلى عبادة الله وحده « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق للآلئ منهم أن امشوا واصبروا على آلتكم إن هذا لشيء يراد » (١) .

وهكذا صور لهم عقلم للفر أن يقولوا هذا ، ويستبدوا أن يكون هناك إله واحد ، ويدعوا أنها مؤامرة قلب نظام العبادة ونظامهم الذي يعيشون في ظله وفي رحابه ، فلا عجب إذن إن رأيناهم يتعجبون من هذه المبادئ الجديدة التي يدعو إليها الرسل ، ولا يطيقون سماع شيء منها ، فما هي في تصورهم إلا عكس للأوضاع ، وقلب لقامات الناس . وحط من كرامات الأغنياء ، وتسوية لهم بالفقراء . . . . وما كان ذلك ليجوز صدوره من هذا الداعي « للتجريء » الخارج على الأوضاع ، فلا بد إذن من إيقافه عند حده ، حتى لا يفرى بهم العامة ، ويثبت في نفوسهم مبادئه الجديدة الخطرة ، لا بد من كبت أنفاسه ، والحيولة بينه وبين الناس ، حتى لا يفسد عقولهم ، ولو رصدوا في سبيل ذلك معظم أموالهم ، فإن ما يدعو إليه سيذهب بكل أموالهم ، وجاههم ومقاماتهم ثم تدور في نفوسهم حماسة متقاتلين : من هذا الداعي ؟ وما أصله ؟ وابن من هو ؟ وعلى من يتناول ؟ وما الذي يريد ؟ ويقولون : لقد كرمتنا الله فأعطانا من رزقه الواسع الخير الوافر ، ومن علينا بالجاه المرض ، أليس ذلك دليل رضاه ؟ إنه لو غضب علينا لما أعطانا ،

ولما أبقي في أيدينا هذه الأموال ، ولما جعلنا سادة مسموحى الكلمة في قوما ؟  
« وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعجزين » (١) .

ثم ما هذا الذى يدعو إليه ، هل يريد أن يأتى بمجديد ، وهل هو بذلك جدير ؟  
لو كان ما يدعو إليه خيراً لكننا أسبق الناس إليه ، بل لكننا أحق الناس  
بالدعوة له ، فنحن أصحاب العقول الراجحة ، والأفكار النيرة ، والنظرة النافذة ،  
ونحن وحدنا الذين ندرك مصالح الناس ، ونعرف مكان الخير لهم ، وما كان لأحد  
سوانا أن يتناول علينا ، فيدعى أنه يدرك ما ندرك ، ويفهم ما نفهم عن فهمه ،  
ويصل إلى ما لا نستطيع الوصول إليه ، ويرسم لنا طريق حياة جديدة ، نحن أولى  
برسمها ، لو كان في ذلك خير للمجتمع ، ويعكس القرآن هذه النفسى للمقعدة للمتكبرين  
للمتتمين عن اتباع الرسول فيقول « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً  
ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » (٢) .

يقصد هؤلاء للترفون بكل هذا ، أن يوهنوا من عزم الداعية ، وأن  
يشككوا الناس في قيمة ما يدعو إليه ، وفي سبيل هذه الغاية استباحوا كل  
شئ ، وادعوا — غير مباينين — احتكار العقل كما احتكروا المال ، وادعوا  
احتكار الفضل كما احتكروا المال والعقل ١١ فآله قد جمع لهم في زعمهم كل  
مظاهر الحياة الدنيا وفضلها ، فلم يعدوا في حاجة إلى من يدلهم على طرق الخير  
فيها وقد ساعدتهم على هذا الاتجاه ، والادعاء للفرور ، أن الناس حولهم ،  
قد زينوا لهم كل ما يصدر عنهم ، ونفخوا فيهم ، فصوروا لهم أفكارهم السطحية  
أنها آراء عميقة ، وقبلوا آراءهم الخاطئة على أنها حق ، يستحق الثناء  
وال تقدير ، وأغرقهم في بحر من اللق والنفاق ، فمأشوا طول حياتهم ، ومنذ  
نومة أظفارهم ، على أنهم موهوبون في العقل ، كما وهبوا المال ، ولم يجدوا طول  
حياتهم معارضة لأفكارهم ، أو مناقضة لآرائهم ، فظنوا أنهم الجديرون بكل فضل  
في هذه الحياة ، وأنه لا يجوز لغيرهم أن يقف منهم موقف الناصح الرشد ،  
أو موقف اللوجه للناس ، دون أن يكون تابياً لهم ، أو مستنداً رأيه من آرائهم ،  
وعادوا أكثر من هذا فأعلنوا وجوب احتكارهم للمراتل ، قياساً على احتكارهم

(١) سورة سبأ : ٣٥

(٢) سورة الأحاف : ١١

للمال والجاه ، وانتقدوا اختيار الله لرسله من أوساط غير أوساطهم ، كما انتقدوا أن يكون أتباع الرسل قراء ، وجعلوا ذلك من عيوب الرسول ورسائله وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم <sup>(١)</sup> استعظماً لأن تكون الرسالة لحمد الفقير ، وطلباً لأن تكون لأحد عظيمين في مكة أو الطائف ، فما كان يليق في نظرهم أن يقوم محمد اليتيم الفقير ، بتوجيه الناس ، بينما هناك من العظماء من هو أولى منه ، وذلك غرور ، دهمهم إليه المال والجاه ، وخضوع الناس واتباعهم لهم ، حتى ظنوا أنهم الأجدر بكل فضل في هذه الحيلة ، وما علموا أن الفضل يد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .



ولمنا نستثير أكثر من هذا حين نستعرض في تفصيل طبيعة هؤلاء وموقفهم من أصحاب البصوات كما قصه القرآن الكريم . . . والقرآن حين تحدث عن الرسل الكرام وما لاقوه من أقوامهم ، بدأ بأقدم الرسل وهو نوح عليه الصلاة والسلام . وكان موقف للترفين هو أبرز شيء في قصة قومه حين جاءهم وقال لهم « إني لكم نذير مبين ، ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم <sup>(٢)</sup> » . وكان الذي تسدى لنوح عليه السلام يكذبه ويسفه ، ويرميه بالضلال ، ومختلف أنواع الاتهامات ، هم للترفين الذين أحسوا لأول وهلة خطر دعوة نوح عليهم ، وعلى مركزهم في قومهم ، فلم يغفلوا بينه وبين الناس ، والقرآن حين يتحدث عن هذه الطائفة الممارسة غتار الأسلوب المختصر ويعنون لها بكلمة واحدة وهي « اللأ » فيقول في تصوير رد هؤلاء على نوح في سورة الأعراف ، « قال للأ من قومه إنا نراك في ضلال مبين » ويقول في سورة هود « فقال للأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا » أى لا امتياز لك علينا يجعلك تتكلم عن الله وتعمل هذه الرسالة ، واللأ هم السادة والقادة والكبراء والأشراف لأنهم يملئون القلوب هية والمجالس أبهة ، أولآتهم — في نظرهم ونظر أتباعهم — ملثوا بالأحلام والآراء الصائبة كما يقول للسرون ، وهم الذين كثروا

(١) سورة الزخرف : ٣١

(٢) سورة هود . ٢٥ ، ٢٦

ما لهم ومكنت خزائهم بالمال ، هؤلاء الناس المترفون هم الذين تصدوا للرد على نوح  
 يرمونه تارة بأنه — بدعوته التي يدعو إليها — مستغرق في ضلال مبين واضح ، ثم  
 لا يكتفون بهذا بل يمرجون على من اتبعه من المؤمنين ، ويطنونهم بالأسلوب  
 الذي يحاول لهم دائماً والنعمة التي يستغيثونها ، فيرمون هؤلاء المؤمنين بالحقسة  
 والدناءة وضعف الرأي وسذاجة التفكير ، لا شيء إلا لأنهم قراء فيقولون له  
 « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل .  
 بل نظنكم كاذبين » (١) فأتباعك إذن لا يعتد بهم ، ولا يحتج بأرائهم ، وليست  
 لهم مكانة في وسط الناس ، حتى تفتخر بهم ، وتفرح باجتماعهم حولك ، فهم أراذل  
 ضعاف العقول ، ومن أجل هذا اتبعوك ، ولو أنهم كانوا أغنياء مثلك ، رزقوا المال  
 والعقل ، لكن موقعهم منك هو نفس موقفنا الآن ولما وقعوا في حبالك ، وصاروا  
 من أتباعك ، ثم ثور في تدوسهم العظمة الكاذبة ويهاجمون نوحاً من هذه الناحية  
 ويتعللون بأنه لا يمكنهم — وقد تجمع الفقراء حوله — أن ينضموا إليه ويجلسوا  
 معهم في مكان واحد ويصير الجميع أتباعاً ، يستوتون في ذلك معهم ، وقد عاشوا  
 طول حياتهم أسياداً لهؤلاء ، لا يقربون مجالسهم ، ولا يجردون على مخاطبتهم ،  
 إلا في ذلة وخفض جناح ، فكيف يجلسون معهم اليوم في مكان واحد تابعين  
 جميعاً لرسول واحد وهو نوح عليه السلام ، ويعبر القرآن بأسلوبه للوجز البالغ  
 عن هذه النفسية فيقول على لسانهم « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » (٢)  
 ثم يمكرون ويتقدمون إلى نوح ، يريدون أن يحملوه على طرد هؤلاء الفقراء  
 في سبيل أن ينضموا إليه ، لأنهم لا يطيعون أن يجلسوا معهم في مكان واحد ،  
 ولكن نوحاً يفسد كيدهم ، ويضع مبدأ للتفاضل غير مبدئهم ، ويحتفظ بأصحابه  
 ويرفض طردهم ، ويرد على هؤلاء المترفين ويقول لهم : « وما أنا بطارذ الذين  
 آمنوا إنهم ملائقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ، ويا قوم من ينصرتني من  
 الله إن طردتهم أفلا تذكرون » (٣) وسورة الشعراء تحكي لنا رد نوح في أسلوب

(١) سورة هود : ٢٧

(٢) سورة الشعراء : ١١١

(٣) سورة هود : ٢٩-٣٠

جيل آخر : « قال وما على بما كانوا يصلون ، إن حسابهم إلا على ربى  
لو يشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين <sup>(١)</sup> » .

وهذه هى طبيعة الترفيع دائماً وموقفهم من أصحاب الدعوات ، حتى تجد هذه  
النعمة التى ضربوا عليها فى عهد نوح ، تنحطى هى نفسها الأجيال والقرون ،  
ويحكىها القرآن عن الترفيع فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم ، دون أن تغير تسميتهم  
أو تهذب عقليتهم فقد مر للأمر من زعماء قريش على النبي صلى الله عليه وسلم ،  
وعنده صهيب وعمار وخباب ، ونحوهم من ضعاف المسلمين ، فقالوا : أرضيت  
بهؤلاء من قومك ؟ « هؤلاء من الله عليهم من يننا » ؟ نحن نكون تبعاً  
لهؤلاء ؟ أطردم عنك فلعنك إن طردتهم أن تبعدك ، وذهب هؤلاء الأشراف  
للتفرون إلى أبى طالب عم الرسول وقالوا له « لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء  
الأعبد فانهم عبيدنا وعتقاؤنا وأجراؤنا كان أعظم له فى صدورنا ، وأطوع  
له عندنا ، وأدعى لاتباعنا إياه ، فذكر ذلك أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم ،  
فقال له عمر بن الخطاب : لو فعلت يارسول الله حتى تنظر ما يريدون بقولهم ،  
وما يصيرون إليه من أمرهم ، فأزل الله فى شأن هؤلاء ، وما يتعدون به قوله  
تعالى « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى  
ولا شفيع لهم يتقون ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالقعدة والعشى يريدون  
وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردم  
فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم يعض ليقولوا هؤلاء من الله عليهم  
من يننا أليس الله بأعلم بالشاكرين <sup>(٢)</sup> »

فنعمة للتكبرين هى نعمتهم دائماً ، وخطرتهم فى عهد محمد ، هى خطرتهم  
فى عهد نوح عليهما الصلاة والسلام ، بل لا تزال هذه النعمة ، وهذه النظرة  
متغلغلين فى نفوس الترفيع إلى اليوم ، وستظلان إلى ما شاء الله ، لأن هذه حالة  
تقسية ، طبع عليها الناس ، فهى تلازم وجودهم أينما كانوا ، وفى أى زمان  
وجدوا ، حتى لكاد تتشابه الكلمات وللواقف قديماً وحديثاً ، وكأنها صورة

(١) سورة الشعراء ١١٢ ، ١١٥

(٢) سورة الأنعام : ٥٣ ، ٥٤

مكررة ... فإذا اجتمع العمال والفلاحون أو أصحاب الحرف ومن لا مطامع شخصية لهم ، حول داعية مصلح ، يؤيدون فكرته ، ويشدون أزره ، ويناصرون دعوته ، صاح للترفون صيحة الخائف للتكبر ، صيحة إخوانهم في عهد نوح : من الذى يتبع هذا الداعية وهذا الزعيم ؟ اليسوا هم الرعايا والتوغاء ؟ وإذا قام من أبناء الشعب الفقراء داعية مصلح ، عابوه بفقره ، أو قهر أسرته وأقاربه ، وحاربوه نفس الحرب ، ونفس الأسلحة التى كان يحارب بها القدماء الرسل والدعاة .

وقد دعانا وجه الشبه القوى بين ما قاله قوم نوح ، وقوم محمد لهم إلى أن نستطرد وتنشظى الأجيال ، ومن بعث فيها من الرسل الكرام ، لتربط بين هذه الأوجه من الشبه ، ولنضع أمامك صورة نفسية واحدة لهؤلاء الترفين ، المستنكرين من اتباع غيرهم ، أيا كانت دعوة هذا الغير ، وهما يظهر لهم وجه الحق فيها ، يستوى فى ذلك المترغون فى عهد نوح ، وفى عهد محمد ، وفى عصرنا هذا ، وفيما بعدنا من عصور .

وبعد هذا نعود إلى تتبع ما قصه القرآن الكريم ، عن الترفين من أقوام المرسلين ، بعد نوح عليه السلام ، وإننا لنجد التشابه التام فى موقف المترفين مع كل رسول ، وهما يختلف الزمان ، والقرآن الكريم يعرض لنا هذا التشابه فى ألفاظ متشابهة ، فهو د عليه السلام قد أرسله الله إلى عاد ، فكفروا به وعاندوه ، ويحكى القرآن موقفهم فى رددهم على دعوته لهم فيقول « قال اللأ الذين كفروا من قومى إنما لراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين » (١) . واعتدوا بقوتهم ، ونأوا بجانهم عن اتباع هود ، وتعذوه فى استكبار ، ويحكى القرآن هذا الاتجاه منهم فيقول « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ » (٢) . وصالح عليه السلام يدعو قومهم إلى الهدى والخلق الكريم ، فيتصدى له الترفون كذلك ، ويبرز القرآن موقفهم هذا

---

(١) سورة الاعراف : ٦٦

(٢) سورة فصلت : ١٥



فيقول « قال للآء الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم »  
أصلون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين  
استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون»<sup>(١)</sup>.

وعصيب عليه السلام يتعير معه للترفون من مدين ، ويتوعدونه بالطرد من  
قريتهم ، إن لم يرجع عن دعوته ، ويد إلى أفكارهم وملتهم ، ويقص القرآن  
موقفهم هذا حين يقول « قال للآء الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب  
والذين آمنوا معك من قريتنا أو لنموتن في ملتنا »<sup>(٢)</sup> ويقولون له في تكبر  
واستعلاء : « وإنا لترك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا  
بمبرز »<sup>(٣)</sup>.

ولعل قصة موسى مع فرعون الذى طغى تحكى لنا أبرز ما فعله للترفون مع  
الدعاة للصلحين ، لقد كان أول شيء جابه فرعون به موسى ، أن عيره بنفوره  
وحاجته ، ومن عليه بتربيته له فقال له « ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرنا  
سنين»<sup>(٤)</sup> وكان فرعون مثال التجبر ، أو التكبر والطفيان ، حتى ليصفه القرآن  
الكريم بأبلغ وصف في هذا الباب فيقول : « إن فرعون علا في الأرض وجعل  
أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستعبي نساءهم إنه كان من  
الفسدين»<sup>(٥)</sup> .

وموسى عليه السلام يحس نفسية فرعون هذه حين كلفه الله بالذهاب إليه ،  
فيتجه إلى ربه يسأله للمونة ويقول « واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى  
أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى»<sup>(٦)</sup> .

ويلاقى موسى من فرعون والترفون من حوله أشد ما لقيه رسول من قومه  
فقد أخذ فرعون يستخف به ويقول « أم أنا خير من هذا الذى هو

(١) سورة الاعراف ٧٥، ٧٦

(٢) سورة الاعراف : ٨٨

(٣) سورة هود : ٩١

(٤) سورة الشعراء : ١٨

(٥) سورة القصص : ٤

(٦) سورة طه ٢٩ — ٣٢

مُهنين ولا يكاديين»<sup>(١)</sup> ويسيره بأنه لقيط ، أشرف على تربيته ، وموسى ينمزه في أول الأمر غمرا خفيفا ، لكنه مر ، ورد عليه في لطف ، ويشعره بأن الذي ساقه إلى بيته ليريه ، إنما هو خطأؤه ، حين استعبد بنى إسرائيل ، وقتل أبناءهم واستعيا نساءهم ، فليس اللقاه مقام منة ، وكيف تمن على بهذا الذي كان نتيجة أخطائك وجبروتك ، فلو لم يكن هذا الطغيان ، لنعم موسى في هذه يريه آباؤه ويحنون عليه ، ولما تعرض هو للقذف به في اليم ، ثم إلى العيش في بيت فرعون لقيطا يعير بتربيته ، ولما شعرت أمه وأخته بهذه الهزات النفسية وبموجات الحزن والسكد تفرق فيها وهي تعذب بآبائها في النهر ، حتى ليكاد قلبها يتخلع منها وراء قلعة كبدها ، لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها لتكون من المؤمنين .

يضحك الله رد موسى على فرعون هذا الرد في أبلغ أسلوب فيقول على لسانه موجها الكلام لفرعون في استفهام تهكمي تعبى « وتلك نعمة تمنها على أن عبت بنى إسرائيل »<sup>(٢)</sup> ويستمر الحوار خفيفا من جانب موسى ، ثقيلًا من جانب فرعون للترف التآله حتى يصل إلى حد تهديد موسى بسوء المصير الذي يعرفه فيقول له « لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين »<sup>(٣)</sup> وأنت تعرف ما يصيبهم ، ولكن موسى يستدرجه ويأتى له بعلامات صادقة على رسالته « فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين »<sup>(٤)</sup> فيغفر فرعون فاه هو ومن حوله ، ويسقط في أيديهم ، ويرون هذا شيئا عجيبا حقا ، ويحس فرعون حرج موقفه ، ويرى أن زمام رياسته على رعيته يكاد يفلت من يده ، فيلجأ إلى نعمة ذات تأثير قوى على نفوس الترفين من حوله ، وسرعان ما تؤثرفهم هذه النعمة ، وهل هناك ما هو أقوى منها على نفوس الترفين ، أنها نعمة التخويف من موسى أن يقلب نظام الحكم ، ويستولى على أرضهم ، ومنابع ثرواتهم ، ويشردهم بعد عز ، ويستذلهم بعد سلطان « قال للئلا حوله إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسعره فهاذا تأمرون »<sup>(٥)</sup> .

(١) سورة الإحرف : ٢٢

(٢) سورة الشعراء : ٢٢

(٣) سورة الشعراء : ٢٩

(٤) سورة الشعراء : ٣٢، ٣٣

(٥) سورة الشعراء : ٣٤، ٣٥

وتجد هذه النخمة طريقها القوي إلى نفوس الحاشية والترفين ، فيسارعون إلى ترديدها ، منحين موسى بأنه إنما يحاول مادة ، ويريد سلطاناً وجاهاً « أجتنا ثلثتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين » (١) . « إن هذان لساحران يريدان أن يخرجكما من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكما للثلى » (٢) .

والإخراج من الأرض ، وانزعاج السيطرة من السيد ، هما من أخطر الأشياء على نفوس الترفين ، وهل لهما إلا النفوذ والسيطرة على الأرض ، فلماذا يبقى لهم بعد ذلك ؟ إن ذلك شيء تعباً له الجيوش ، وتذهب نخيته نفوس ونفوس . وتستعمل لدفعه كل الحيل والطرق ، ومن أجل هذا اقترح للترفون حول فرعون ، أن يجمع السحرة ويحشد من جميع النواحي ، لينازلوا موسى ويطلقوا كيداً ، ويقضوا على مكاريه ، ليحولوا بينه وبين اتباع العامة له .. وهكذا تتجمع ضد قوى السلطان ، وقوى المال ويحد نفسه محاصراً بهما ، وهل هناك حرب أخف وأشد من محاربة المال والسلطان حين يجتمعان ؟ لقد رأينا في التاريخ القريب والبعيد كيف تجمع المال والسلطان واحتشد للترفون وذووا الجاه ضد الأفكار الصالحة ، والجهود النافذة ، وكيف لاقى أصحاب الدعوات من هؤلاء مالاقوا من الإعنت ، وعلى مد البصر من تاريخنا يجد الإنسان أمثلة حية ، وشواهد ملموسة ، تمثل صراع الحق وجنوده مع جماعة السلطان والمال ، للتكنة حول الباطل ، وكيف كان للترفون يتلبون ، ويغفون أصوات الدعاء ، ويكتمون أفواههم ، ويطاردونهم ويحرمونهم حق الحياة الذي يتمتع به البطلون .

لقد امتد الزمن بموسى وهو يصارع للترفين ، الذين لم تؤدبهم النوازل ، التي حلت بهم حتى وجد أخيراً ألا فائدة ترجى منهم ، وأنهم سادرون في غيهم ، ووجد أن

(١) - سورة يونس ٧٨

(٢) - سورة طه : ٦٣

ما لهم هو الذى على لهم في غيهم ، وترفعهم هو الذى يعدم عن الحق ، ويضع غشاوة ثقيلة على أعينهم ، فلا يبصرونه ، ويتقادون لزعيمهم فرعون في بطشه وجبروته وعناده للحق ، فيسيرون جميعا في موكب الباطل ، يجد موسى هذا فيتجه إلى ربه يدعوه ويقول : « ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » (١) ، وموسى إنما دعا هذه الدعوة حين أحس أن المال والسلطان يعميان الناس عن الحق ، ويمعدانهم عن الاستجابة ، ويربطانهم بالباطل ، يدافعون عنه وعن وجوده ، فلم ير بداً من إزالة العقبات من طريق الحق « فدعا واستجاب الله له ، وأعله بذلك وقال : قد أجيبته دعوتكما فاستجبيا ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » (٢) .

ثم تتوالى النكبات على فرعون وقومه ، ولكنه يظل في تمرد على الحق ، حتى لا يدعه يرحل ويتركه ، بل يصر على متابعته ، حتى يقضى عليه ، فيطارده موسى وهو راحل عنه ، ولكن الله الذى يدير الأمور لتنفيذ وعده ، يحرس موسى ويهيء له سبيل النجاة ، ويشق له البحر ، ليسير إلى الجانب الآخر ، ويحاول فرعون أن يتابعه من نفس الطريق ، فيطبق الله عليه وعلى جنوده البحر ويغرقهم ، ثم يبيح لهم انتشارال جثة فرعون ، ليكون عبرة لمن بعده . من الطغاة للفسدين .

ودعوة موسى عليه السلام على فرعون وملكه إنما هي بمثابة حكم أصدره عليهم بأعدامهم ، وبمصادرة المال الذى صدم عن مماغ الحق ، والاحتكام إلى الحقبة والبرهان ، وساقهم إلى ظلم الناس واستغلالهم ، واستبدادهم والسيطرة على أفكارهم ، وهو حكم مسبب ، سجله القرآن بهذا الأسلوب ، الذى يقرؤه لللايين من المسلمين وغيرهم ، صباح مساء إلى أن تنقضى الدنيا . « ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك » فهو يقدم لدعوته بأن هذا المال الذى أعطاه الله لفرعون وقومه ، كان سبباً في وقوعهم ، نه ،

(١) سورة يونس : ٨٨

(٢) سورة يونس ٨٩

ومن دعوته موقف العناد والإيذاء ، وأنه دفعهم إلى الطغيان والتمرد ، وإنكار الدعوة ، والتآمر ، لقتل موسى والقضاء عليه ، ومن أجل ذلك أصدر حكمه عليهم بالإعدام ، ومصادرة الأموال التي جرتهم على الظلم والضلال والإفساد ، ولو كان في يد موسى قوة يستطيع بها أن ينفذ حكمه لنفذه ، ولكنه كان ضعيفاً مجرداً عن السلطان ، وليس في يده إلا سلاح الإيمان ، والاتصال القوى بالله ، وهو حسبه وكافيه ، فاتجه إليه ، وهو القوى للتين ، يدعوهم أن يطبق عليهم هذا الحكم العادل ، الذي استجاب الله له ، ونفذه فيهم وأخبر عن ذلك فقال « قد أجيبت دعوتكما فاستجبيا ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ، وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بنيأ وعدواً حتى إذا أدركه الفرق ، قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننحيك يدينك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لنافلون » (١) .

وكانت هذه هي نهاية جماعة من الترفين في حقبة من التاريخ ، مع رسول من رسل الله ، المعاة إلى الإصلاح .

وإذا استعرضنا بعد هذا كله مصاعب محمد عليه الصلاة والسلام في مكة ، حيث بدأ دعوته نجدها كلها من فعل الترفين ، وأصحاب الناصب والسلطان أيضاً ، مما يتفصّل ما تذيحه الأبيّاق الهدامة ، من أن الإسلام محدر للشعوب ، وللطبقات للبهضوية ، إذ أنه يقرّ الظلم واستغلال الأغنياء للفقراء ، إذ لو كان كذلك لما قام في وجهه هؤلاء المترفون الذين تقموا احتضانه للفقراء والضعفاء وإضافهم . فقد كان محمد من أشرف قبائل العرب ، ولكنه كان يتما فقيراً ، حرم عطف الأب وحنان الأم منذ طفولته ، ولم يرث منها شيئاً يستحق الذكر ، وبسببه على الحياة ، فشأ في كماله عمه وجهه ، وكانوا يرغب شرفهم في قومهم ، متوسطي الحال ، لم يرتقوا إلى طبقة الأغنياء ، وشاركهم محمد معيشتهم ، ورعى النعم ، وعمل أجيراً في قومه ، ولكنه مع هذا تميز بالخلق ، وتتردد بحب قومه ،

وتقديرهم له ، فحين اختاره الله هادياً لهم كان موضع الرضا التام منهم جميعاً ، لكنهم استكثروا عليه أن تكلمه السماء ، ويحوز هذا الشرف الذى لا يستطيع أحد الوصول إليه ، وحينئذ رأى الترفون أصحاب الجاه أن لابد من الوقوف في وجهه ، وإقضاء عليه حق لا يفتقدوا منزلتهم بحاجته ، وبمقدار ما أحسوا على أنفسهم خطر دعوته ، كانت مقاومتهم له ، ومن هنا نجد تشابهاً غريباً ، وتوافقاً تاماً ، بين ما قاله الترفون السابقون لرسالهم ، وما قاله مترفو العرب لمحمد صلى الله عليه وسلم . فقالوا عن الضعفاء الذين اتبعوا محمداً منكروين عليهم اتباعهم له ، ومستهينين بهم « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » وقالوا « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » ظانين أنهم أصحاب العقول الراجحة ، والأفكار النيرة الناضجة ، مما أحلهم مكان الصدارة بين الناس ، فلا يعقل أن يكشف العيب الأرقاء ، وهؤلاء الضعفاء ، من الفقراء ، الخير في دعوة محمد دونهم ، أو أن يصلوا إلى ما لم يستطيع للترفون الوصول إليه ، ويقول هؤلاء في اعتداد وتكبر ، نحن قادرون على تمييز الخير من الشر ، ووزن الدعوات بما فيها ، كما أننا لا نحجم مطلقاً عن اتباع الخير ، وتتبع مصادره أينما كانت ، فلا يعقل والحالة هذه أن نجد في دعوة محمد خيراً ، ثم نحجم عنها ، أما هؤلاء الذين سارعوا إلى اتباع محمد ، فهم بلهاء لا عقل لهم ولا رأى ولا تفكير ، إنما هم إمعات سطحيو التفكير ، ولو فكروا قليلاً كما تفكر ، لوقفوا من محمد نفس الموقف الذى نقفه منه اليوم . . . .

ويساب هذا الكلام هنا وهناك في أوساط مكة ، ويعملون على غزو أفكار الناس بهذا المنطق للتكبر ، حتى يوقفوا سير الدعوة ، ويصدوا عنها الأتباع ، ثم تمر الأيام ، ويخترعون أسلوباً جديداً يتقدمون به إلى محمد ، لعلمهم يفسدون عليه أتباعه الخالصين ، ويرضون زعة الكبر في نفوسهم ، فيقترحون عليه أن يقص عنه هؤلاء الفقراء إذا ما كان لهم — ومنزلتهم معروفة — أن يجلسوا وإياهم حوله ، يجمعهم مكان واحد ، فليطردم إذن من مجلسه ، وينظفه من أمثال صوب وعمار وبلال ، حتى يستطيعوا أن يقبلوا دعوته ، ويحيطوا به ، ويجالسوه ، تماماً كما طلب قوم نوح من قبل .

ولكن الله الذى يحرس دعوته من أن تقع تحت سيطرة هؤلاء الترفين ، وجه رسوله التوجيه الكريم ، الجدير بدعوة للسواة ، التى لا تعرف التفاضل إلا عن طريق الجهد والعمل ، ودافع عن هؤلاء المؤمنين الفقراء ، وأنصلمهم ، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم ، فتكون من الظالمين »<sup>(١)</sup>.

وقد روى أحمد وغيره عن عبد الله بن مسعود سبب نزول هذه الآية فقال : مر للأب من قريش على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعنده صيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يا محمد : أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أنكون نحن تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فملكك إن طردتهم أن تبعك فأُنزل فيهم القرآن « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم — إلى قوله — أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

ويستمر هؤلاء على خطتهم التصفية الباطلة ، متمسكين باقتضاهم بالمال والأولاد ، جاعلين ذلك هوكل الخير ، الذى يقارنون به كل دعوة طيبة ، ويعتبرونه علامة من علامات رضا الله ويقولون « نحن أكثر أموالاً وأولاداً » ثم لا يقفون عند هذا الحد ، فما لهذا يقصدون ، ولكنهم يقصدون نتيجة أخرى ، حكاها القرآن عنهم بعد ذلك مباشرة وختم بها الآية قائلاً عن لسانهم « وما نحن بمعتدين » أى كما يدعى عهد ، وهم بهذا يضعون مبدأ التفاضل فى الآخرة ، قياساً على التفاضل الذى لمسوه فى الدنيا ، بكثرة المال والولد .

ثم إذا سمعوا آيات الله بينات واضحات ، تدعهم إلى الهدى والإيمان ناعية عليهم عنادهم وكفرهم لجأوا إلى أساليبهم ، فى المفاضلة بينهم وبين المؤمنين فى الدنيا فيقولون « أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً »<sup>(٢)</sup> والفريقان هنا : للمؤمنون الفقراء ، وهؤلاء القائلون من الأغنياء الذين أفلسوا من الفضائل ، وختل قلوبهم

(١) سورة الأنعام : ٥٢ .

(٢) سورة مريم : ٧٣ .

من الإيمان فلجئوا إلى حطام الحياة ومظاهرها ، وأعراضها التافهة يقيسون بها الفضل ، ويجعلونها أساس التمايز ، ويقولون من منا صاحب لئال والجاه ، ومن منا صاحب البيوت الفاخرة والرياش والأثاث ؟ ومن منا تزدان المجالس به ؟ أنحن الذين نجتمع الفضل من أطرافه ، فيحتكم إلينا الناس ، وتزدحم مجالسنا بمظاهر المز والترف ، وأكابر الرجال ، أم للمؤمنون الذين جاهلهم من العبيد عندنا ، والذين لا يملكون إلا أطلالاً بالية ، وكسرة جافة متعبة ، ولا يجلس لهم إلا حيث يجلس العبيد ، هناك في الأكواخ وأطراف الشوارع ، حيث لا يقرب أحد منهم مجلسنا ؟ فمن ذا الذي يقول إنهم خير منا ؟ وهل هؤلاء من الذين يتباهى بتبعيتهم أو ينتصر بجمعهم ، أو يعتز بقوتهم ؟ وهكذا يظنون يضربون على هذه النعمة التي لا يملكون سواها .

وهذا شأن كل من خلت نفسه من الفضائل ، وقصرت عن معالي الأمور ، وتمطلت من جميل الأخلاق ، فإنه يلجأ إلى أشياء أخرى ، يكلل بها نفسه ، ويظن ردها شعوراً منه بنفسه ، أو درءاً لما عسى يظنه الناس فيه ، فكلما جلس في مجلس أخذ يقتل للناسيات ، ليذكر الناس أنه ابن فلان ، وابن عمه فلان ، وعندهم من الأملاك كذا ، ومن مظاهر النعمة كذا ، والناس من حوله يستقلونه على نفوسهم ، ويتحدرون بكلامه إذا خلا بعضهم إلى بعض ، لكنه لا يحس هذا ، أو يحسه لكنه لا يريد تركه ، فهذه بضاعته الوحيدة التي لا يملك سواها ، أولاً يتترف بغيرها ، فمثل هذا الجاهل الفارغ الذي امتلأت يده بالمال ، لا يتترف بعم ولا ذكاء ، ولا خلق ، ولا يضع شيئاً من هذا كله في مقاييسه للحياة ، وهو منطوق مع نفسه وحاله إذ لو اعتبر شيئاً من ذلك لأصبح فارغاً ، ولعد من سقط الحياة برغم غناه ، وهو بالطبع لا يريد ذلك بل يستमित في سبيل الإبقاء على نفسه ، ويرتكب في سبيل ذلك حماقات وادعاءات يضج منها الخلق الكريم ويستغيث ، ومثل هذا الأحمق الدعي الفارغ نكبة على المجتمعات ، وسوس ينخر في عظامها ، وهوى بها إلى الحضيض ، وكثير من الناس الآن يلاقون من أمثال هذا الفارغ الكثير من العنت والغنى ، يحده للتعلو إذا تزودوا بالعلم ، ورجعوا إلى قراهم ؛ ليقفوا وجهاً لوجه أمام الجهال الذين لا يطيقون سماع صوت الحق ،



ولا يستطيعون الوقوف أمام أضواء العلم ، ويحده الموظفون الذين تملوا تعليمها راقيا ، حين يدفعهم حظه ليعملوا تحت رياسة جاهل مشرب رياسته ، ويحد الإنسان أينما ذهب ، أمثالا لهؤلاء الأذعياء الفارغين ، يملكون الدنيا بثرثرهم ، ويلوثونها بسوء تصرفاتهم ..

ولو تركت المجتمعات لأمثال هؤلاء لأصبحت مجتمعات فارغة من العمل ، مفرقة باللهو واللعب ، يطفو على سطحها الفارغون ، ويصبحون حينئذ من أهم الأسباب لتسببها وانحلالها ، وزول أسوأ للعباب من أجلهم بها ، وتشتل فيهم القاعدة الحكيمة ، التي قررها القرآن الكريم في وضوح واستقامة « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وكان مما ينشرح له صدر الرسول والمؤمنين معه ، أن الله تعالى هو الذي كان يتولى الرد على ادعاءات هؤلاء المترفين ، وإبطال ما كانوا يشهدون به من الفخر ، وما يدعون من الفضل القائم على المال والولد ، فكلموا وجه للشركون المترفون إلى المؤمنين طعنة من طعناتهم ، نزل الوحي يعلم الرسول كيف يرد عليهم في قرآن خالد يتلى إلى يوم القيامة ، ليضع به أسس حياة فاضلة ، بعيدة عن الدعاوى والغرور الكاذب ، وينقش به ما كان يريد هؤلاء المترفون أن يضعوه للحياة من أسس فاسدة قائمة على الشهوة والهوى .

فإذا قالوا للمؤمنين : « نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين » نزل الوحي يعلم محمداً كيف يرد عليهم ويقول لهم : « قل إن ربى يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تعزبكم عندنا زلفى » .

وبعد أن يطل دعواهم يقرر في نفس الآية أسس التفاضل الحقيقية ويقول « إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الترفات آمنون ، والذين يسمعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون » (١)

---

(١) سورة ص : ٣٧ — ٣٨

قل لم هذا يا محمد ردأ على ادعائهم الفضل في الدنيا والآخرة بالمال ، وضع للحياة هذا الأساس القائم على العمل والمجهود وحسن الخلق .

وإذا مع المترون آيات الله تلى عليهم ، ترفع من عان المؤمنين ، قالوا لهم ، يشمخون بأنوفهم معتزين بجاههم « أى الفريقين خير مقاما وأحسن ندبا » فلا يمر كلامهم دون أن يتولى الله الرد عليه ، فيقول لهم ليكسر أنوفهم « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورثا » فمن تكونون أنتم يا متري مكة بجانب السابقين المترفين في القرون الأولى ، الذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فأخدمهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلم تنن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ؟

ويكثر القرآن من ترداد ما حدث لأمثالهم في القرون السابقة لينزع من أذهانهم فكرة التفاضل على المؤمنين ، بجاههم وقوتهم وجاههم ، ويحطم في نفوسهم الفرور الذي استولى عليهم ، وجعلهم يعتقدون — خطأ — أن النعمة التي يرفلون فيها ، دليل على رضا الله عنهم ، في الدنيا والآخرة ، وأنهم لهذا سوف لا يذبون ، كما قالوا « وما نحن بمعتدين » وإذن فليسوا في حاجة إلى دعوة محمد مطلقا ، فكان التكرار بضرب الأمثال بإهلاك أمثالهم السابقين ضرورة لابد منها ، إزاء أخطائهم وغرورهم ، ليثبت ذلك في نفوسهم ، فليستع إليه يقول في سورة التوبة مخاطبا نوعا منهم بأنهم « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلائهم فاستمتعتم بخلائكم — أى الحظ من المال — كما أستمع الذين من قبلكم بخلائهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون » (١)

ويقول في سورة الروم لافتا نظرهم ، دالا لهم على طريق الصواب وموضع الاعتبار « أولم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٢) .

(١) آية : ٦٩

(٢) آية : ٩

ويقول في سورة فاطر (١) « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكون  
أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكباراً في الأرض  
ومكر السيئ ولا يحيق للشكر السيئ إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين قلن  
تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً . . . أولم يسيروا في الأرض  
فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله  
ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان علياً قديراً . »

ويقول في سورة غافر (٢) « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة  
الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله  
بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق » ثم يأتي في آخر السورة نفسها ، فيكرر  
هذا للمعنى في آيات أخرى يقول في خاتمتها « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده  
وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي  
قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون . » (٣)

وتجد الصورة البارزة لطغيان للترفين ، واعتزازهم بالعلم ، ونسيانهم مصدر  
النعمة التي يرفلون فيها ، يرسمها القرآن واضحة قوية بارزة في قصة ( قارون )  
وبيان في جلاء ، كيف كان مصيره ، ليعتبر من يعتبر فهو يقول « إن قارون كان  
من قوم موسى فبقى عليهم وآتيناهم من السكّنوز ما إن مفاتحه لتتوء بالصبة أولى  
القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتنع فيما آتاك الله الدار  
الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد  
في الأرض إن الله لا يحب للفسدين » فتأخذ قارون العزة بالإثم ، ويستولى عليه  
غروره ، ويقول « إنما أوتيته على علم عندى » وبذلك ينكر نعمة الله عليه ،  
ويدعى لنفسه كل الفضل ، فيقول الله رداً عليه : « أولم يعلم أن الله قد أهلك من  
قبله من القرون من هو أشد منه قوة ، وأكثر جماعاً ولا يسأل عن ذنوبهم  
المجرمون » ويستمر القرآن بعد ذلك فيعرض على الترفين للتكبرين على دعوة محمد

(١) آية ٤٢ — ٤٤

(٢) آية ٢١

(٣) آية ٨٤ — ٨٥

مآل هذا الطاغى التكبر « نخففنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المتصرين ، وأصبح الذين تنموا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لحسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون » فانهموا واعتبروا أيها المتعالمون ، للمعززون بما أعطاكم الله . من نعمة ، ناسين فضله عليكم ، وهتخذين المال مقياسا للفضل ، ووسيلة لاحتقار المؤمنين — مع أنهم أحسن منكم عند الله ، لأنهم ساروا على الطريقة التي رسمها لهم مولاهم ، وكانوا في حياتهم الدنيا مثالا فاضلة ، يقرر لهم ذلك في قاعدة عامة فيقول « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »<sup>(١)</sup> لعلهم بعد ذلك ينزعون عن غرورهم واستكبارهم في الأرض بغير الحق ، وينظرون إلى دعوة محمد نظرة مجردة من الهوى والشهوات .. ليصلوا إلى الحق والهدى .

ونسير مع القرآن فتجد آيات كثيرة أخرى تضرب على هذه النعمة وتقرع أسماع الترفين للتكبرين ، بدوى الهلاك والدمار ، لمن كان على شاكلتهم من الأمم السابقة ، فيقول في سورة محمد « وكأن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم »<sup>(٢)</sup> . ثم يقول في سورة أخرى هي سورة ق .

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن ( أى جماعات ) هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيى »<sup>(٣)</sup> ؟ ..

وفي سورة القمر بعد أن قص فيها قصص الرسل السابقين ، وتكذيب أقوامهم لهم ، اعتزازا بقوتهم ، وذكر ما نزل بهم من الهلاك والدمار ، نتيجة موقفهم الشاذ من رسلم ، يناقش الله المكذبين من قوم محمد ، وأماهم النذر الخفية فيقول « أ كفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر ، أم يقولون

(١) الآيات كلها من الربع الأخير من سورة القصص

(٢) آية : ١٣

(٣) آية : ٣٦

نحن جميع مستمر ، مهزم الجمع ويولون الدبر» (١) ثم بعد آيات قليلة يعود في صراحة فيقول لهم « ولقد أهلكنا أشياكم فهل من مذكر » .

كل هذا ليتعظ هؤلاء للترفون ، ويرجعوا عن غرورهم وتكبرهم ، واقتخارهم بالمال واتخاذهم مقياسا للتفاضل في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وحتى لا يقولوا للمؤمنين « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » .

ويعرض لنا القرآن صورة من تفكيرهم للمادى الذى يريدون أن يطعموا به الحياة ، برغم ما نزل عليهم من تبيكيت لموقفهم هذا ، فيبرز لنا اقتراحاتهم المادية ، التى أرادوا أن يصيروا بها محمدا حين قالوا له « لن تؤمن لك حتى تدبر لنا من الأرض يلبوا ، أو تكون لك جنة من نخل وعنب تفجر الأنهار خلالها تصيراً » والذى يعرف طبيعة البلاد العربية الجبلية الصخرية ، يدرك مدى تعنت هؤلاء في هذه الاقتراحات ، ثم يقولون « أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء » (٢) وهم في هذا كفرعون ، حين استصغر كل معجزات موسى التى أتت بها إليه — كما جاء في سورة الزخرف ، وقال « فلو لا أتت عليه أسورة من ذهب أوجاء معه اللاتكة مقتربين » أناس يقيسون كل شيء في الحياة بمقياسهم هم ، ويعتبرون المال جماع الفضائل ، ورأس للقاييس وكل شيء في الحياة حتى إنهم ليستصغرون شأن محمد ، ويستكثرون أن يبعث الله رسولا من الثقراء ، ويترك كبار اللالين بالحجاز ، الذين يرشعهم ما لهم للمكانة العالية في قلوبهم ، فكانوا — على زعمهم — جديرين بالرسالة واصطفاء الله . . . كأن الله يجب عليه أن يسايرهم وينزل على عقليتهم ، ويقيس شأن الحياة بمقاييسهم فهم يقولون « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » يريدون الوليد ابن النخيرة في مكة ، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف ، والوليد هذا هو للترف الواسع الثراء ، الذى أنزل الله في شأنه بسورة اللدثر « فذرى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد » .

---

(١) آيات ٤٣ — ٤٥

(٢) من سورة الإسراء ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣

وغنى الطائف هو أحد إخوة ثلاثة قصدهم الرسول ، حين ذهب إلى الطائف  
 يطمع أن يجد فيهم نصيراً لدعوته . فاستكبروا ، وعتوا ، وجابهوه بمنتهى السخرية  
 والاستهزاء ، وقالوا له ردأ على دعوته لهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟  
 وهو رد يصرخ بنفسية القوم اللادية ، التي تختصر الفقراء ، ولو كانوا فضلاء ،  
 — إذ لا قيمة للخلق والفضل عندهم — والتي ترى في اختيار الله لمحمد رسولا  
 اختياراً غير موفق ، لأنه ليس بنفى ۱۱۱

وقد رد القرآن عليهم ، وأفهمهم أن الرسالة ليست تابعة للمال والنفى . .  
 وأن في الحياة ناحية مادية وأخرى معنوية أدبية . . . وإن الحياة اللادية ليست  
 تابعة لرضا الله أو غضبه ، فإنه يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، فليس معنى  
 كثرة المال في يد شخص أنه حاز على رضا الله ، أو أنه من الفضلاء في الدنيا  
 والآخرة . . . فحين دعا إبراهيم ربه أن يرزق المؤمنين ثمرات الحياة الدنيا  
 وطيباتها ، قال له الله « ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس  
 المصير » فقيم الحياة اللادية لا تتداخل مطلقاً في قيمها الروحية ، وليس يصحح  
 أن الله يتخذ للمال مقياساً يقيس به قيمة عباده ، ليوزع عليهم رحمته ورضاه —  
 كما أنه لا يأبى نتيجة الرحمة والرضا . وكفر الإنسان بربه لا يعمره من  
 طيبات الحياة الدنيا ، ولا يمنع أن يكثر ماله ويتولد مركزه ، لأن الدنيا لا تزن  
 عند الله جناح بعوضة ، فدنيتها قليلة ، ونعيمها ، بما كثر ضليل ، ولذلك يعطيه  
 البر والفاجر ، ويشترك فيه المؤمن والكافر ، ولولا أن تنعم الكفار وإغداق  
 المال عليهم وإغرائهم في زينة الحياة يبرى النفوس ويجذبها للكفر ، لاختص الله  
 الكفار بذلك ، لأنه لا قيمة له عنده ، فما تتمتعون عليه أيها الأغنياء وتتخذونه  
 المقياس الوحيد للفاضل ، لا وزن له عند الله ، وهو شيء تافه عنده أما القيمة  
 الحقيقية فهي للخلق الكرم ، والعقيدة السليمة في الدنيا ، ثم لنعمة الجنة  
 وزيلتها في الآخرة . . . وهذا شيء لا يحصل عليه الكفار ، بل يحرمون منه  
 لأنهم لم يدفعوا ثمنه . .

فالمال وحده لا يؤهل لرضا الله ولا يرضعكم للوجاهة عنده ، ولا يرفع من قيمكم  
 للمعنوية ، مادتم قد فقدتم منبعها الأول ، وهو الخلق الفاضل والعقيدة السليمة ،

لأن الناحية المعنوية لها قيمها ومقوماتها، وهي قائمة على زاد من الخلق والتقوى، ولا يحوز هذا الفضل، وهذه اللزلة كافر بربه، أو معتد أئيم على سنته، بل يخص الله بها عباده للؤمنين « يخص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » فتدخل الكفار في تقسيم رحمة الله على الناس إنما هو خروج عن الأدب وغرور.

ونستطيع أن نفهم هذا وأكثر منه في رد الله على الذين استكثروا إرسال محمد، هذا الرد القوي الذي يوبخهم ويكتهم حين يقول عنهم « أم يقسمون رحمة ربك » إنها لجرأة!!! وإنه لغرور!!! « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً » هذه هي الحكمة ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ويحتاج بعضهم إلى بعض ويحسون ضرورة التعاون فينتظم بذلك نظام الكون.. ولم يرد من هؤلاء أن يتخذوا للمال ذريعة لاحترار المجردين عنه، ويتقروا به، ويخرجهم غرورهم عن حد الاعتدال، فما قصدا من التفاوت أن يحقر الغني الفقير، أو أن يحقر الفضل، ويعمله غنام على البطر، والوقوف في وجه للصلحين ومحاربتهم.

وإذا كان الله قد أعطى الدنيا بعض عباده، وخصهم بالمال فذاك شيء بسيط. أما الذي له قيمته فهو رحمة الله. واختياره محمدا للرسالة، والله يخص برحمته من يشاء « ورحمة ربك خير مما يجمعون ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجلنا من يكثر بالرحمن ليوثهم مقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون، وليوثهم أبوابا وسررا عليها يتكثون، وزخرفنا، وإن كل ذلك لا متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للثمين » فهل فهمت أيها اللتقفون!!! ولكن أنى لهؤلاء أن يفهموا، وأن يرتدعوا وقد أطفاهم لال، فعصوا وصموا ثم عصوا وصموا...!!!

إن لهؤلاء دورا في الحياة متشابها، في جميع الأزمان، لا بد أن يؤديه تماما وعلى أكل وجه، ودورهم في نظرم هو الدفاع عن أنفسهم، والحفاظ على ترفهم ومكاثهم وتقاليدهم، وفي نظرنا ونظر الحق هو محاربة دعة الإصلاح، والوقوف في وجه دعواتهم الجديدة، ورسالاتهم الحميدة، والحيولة بينها وبين النفوذ إلى أفراد الشعب حتى لا يث فيهم الدعاة للصالحون أيا كانوا... مبادئ العدل والحرية والمساواة، وهي أشياء يكرهاها الطغاة للثقفون، ويرصدون ما لهم

وجاههم وسلطانهم للقضاء عليها ، حتى يظل لهم الشعب ، يستعبدونه ، ويستزقون دماءه ، ويسخرونه لمآربهم .

تلك هى تقية للترفين فى كل زمن منذ وجد دعاة الاصلاح على وجه الأرض إلى اليوم ، نعم إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، ولهم أدوار لا تختلف كثيرا ، وإن اختلفت الأزمنة ، وتباينت الشعوب ، قررها القرآن فى وضوح ليسلى عمدا ، ويخفف عن نفسه الأثر الذى تحسه من معارضة هؤلاء وحربهم له ، كما يخفف عن نفس كل داعية مصلح يأتى بعده ، إذ يغرس فى نفسه أن كل دعوة كدعوته لاقت ما يلاقه « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور » « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » . . « وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب النير ، ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير » . وآيات كثيرة متاثرة فى القرآن تقرر ما تقرره هذه الآيات ، فليس محمد إذن بدعا من الرسل الدعاة ، بل يجب أن يوطن نفسه على منازلة أصحاب المال والجاه وعلى احتمال أشد أنواع المكروه ، وعجاجة ألوان الصاعب لأنه يقود حربا لا هوادة فيها ، بين حياة الفضيلة واللبادىء العادة التى يمثلها ، وبين حياة الرذيلة والترف والجبن والظلم التى يمثلها وبمحيطا للترفون ذوو المال والجاه ، فليصبر محمد إذن « كما صبر أولو العزم من الرسل » وليصبر كل داعية مصلح من بعده ، تأسيا به وبأولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فإن الحياة لا تحلو ولا تسمو إلا باللبادىء التى يدعو إليها هؤلاء جميعا ، ثم هى لا تكون دنيا إلا إذا وجدت فيها عوامل البنى والشىء والعدوان مرعى خصيا فى نفوس للترفين أعداء الاصلاح . .

وتلك هى طبيعة الحياة كما خلقها الله ، ولست أنجى على للترفين أو أقرر عنهم شيئا مفتريا عليهم ، بل إن الله رب العالمين الخبير بالنفسيات هو الذى قرر ذلك فى القرآن ليخفف كما قلت عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن كل داعية يأتى من بعده « وكلا تحص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » وتثبت القوادى إنما يأتى من إشعار الرسول بأن الحرب التى يلقاها من للترفين قد لقي مثلها زملاء له



من قبل « فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أئامهم نصرنا ولا تبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين » . .

فهو يقول تصير آله وتثبنتا « وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ، وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله » فيرد الله عليهم : « الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » ويقول في سورة سبأ في شكل قاعدة عامة مقرر « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . . . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » فأوحى الله إلى رسوله أن يرد عليهم وقال له « قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلّني » ويقول في سورة الزخرف يخاطب محمداً بعد أن قص بعض اقتراعات الكفار على الله ورسوله دون سند أو دليل « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتنون » ثم يحكي عقب هذا فناءهم في التقليد ، واستمساكهم بما هم عليه فيقول « قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان حاقبة الكاذبين » والانتقام من هؤلاء للترفين لم يكن إلا بتدميرهم ، وإهلاك ما يعتزون به من مال وبنين ، أو حرمانهم من ذلك كله . . كما تنطق الآيات « الحق عليها القول فدمرناها تدميراً » « فجعلنا طالها سافها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » « فأخذتهم ساعة العذاب المهون بما كانوا يكسبون » . . « فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الحزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخصى وهم لا ينصرون » وليس ذلك كله إلا غيرته منه سبحانه على اللبائذ السامية ، وللثل العالية ، التي يريد أن يثبت قواعدها في الأرض ، على يد الرسل وللصالحين لتتم البشرية وتسد في ظلها .

ومع ذلك فقد رأينا للترفين على مر السنين يحرفهم القروور ، ويمحلمهم مافي أيديهم من المال على مناهضة العدالة ، وطمس معالم الحق ، ومحاربة كل نهضة ،

وإخفات كل صوت يعمل لإقرار الحق والعدالة في مجتمعاتهم ، لأنهم يرون فيه نذير سوء بتقويض سلطانهم ، أو على الأقل بالحد من نفوذهم وشهواتهم ، رأينا ذلك في تاريخ أوروبا ، إبان نهضتها الحديثة ، بعد أن غرقت أجيالا في ظلمات الإقطاع والاستبداد ، رأينا الإقطاعيين للترفيه في كل دولة ، حربا عنيفة على دعاة الإصلاح ، اللطالين بحقوق الإنسان ، حتى رجال الدين أنفسهم في أوروبا خرجوا عن طبيعتهم ، كرجال رحمة وحق وعدالة ، إلى عوامل ظلم وإعنات ، لأنهم انقلبوا إلى إقطاعيين مترفين ، وغرقوا في بحار اللذات والشهوات ، فانضموا إلى غيرهم من المترفين في حرب الشعوب ، والقضاء على نهضاتها ، وأوجدوا فجوات واسعة بينهم وبين الشعوب ، كان من أثرها حينما انتصرت كفة الشعوب ، أن عزلوا هؤلاء عن سياسة الدول ، وفضلوا الدين عن الدولة ، ومع ذلك لم تخل المجتمعات الأوروبية بعد النهضة الحديثة من إقطاعيين ، يسيطرون بمالياتهم ونفوذهم على صائر الأمور في دولهم ، ويسخرون كل شيء لمآربهم .. فقامت نتيجة لذلك .. تلك النظريات الحديثة التي اعتنتها الملايين من الناس ، تخلصا من ظلم الإقطاعيين ، وأصبح للاشتراكية دول تقوم عليها وتعمل لها ، وتحمي نظامها ، وتحاول أن تفرسه على العالم ، كما أصبح لها أنصار في كل مجتمع يئن من ظلم الإقطاعيين .

ونحن في مصر قد رأينا مهازل يمثلها أمامنا كثير من الإقطاعيين ، وعرفنا كيف خضعت الدولة زنا طويلا لمآرب هؤلاء المترفين ، وكيف سخروها للاستزادة من المال ، والتحكين لهم من ظلم الشعب وكبت أنفاسه ... رأينا كبار المالين يسيطرون على البرلمان ودوائر الحكومة ، ورأينا صورا من الظلم تقشعر لها الأبدان ، ولم يجد الشعب من رحمه لأن حكامه كانوا هم جلاديه .. وغرق هؤلاء للترفون إلى الأذقان في الفساد وعلوا الشعب كيف يهزل في وقت الجهد ، وكيف تملو الرذيلة على الفضيلة ، وكيف يسود المفسدون للماجنون . وموت كندا وغما الفضلاء للمصلحون . رأينا هؤلاء يحاربون كل قانون يصورون فيه شيئا يحد من سيطرتهم ، أو يقطع شيئا ولو تافها من ماليتهم ويسطون جهاز الدولة من أجل مآربهم . وصار الجهاز الحكومي في هذا الانحمار الفاسد حتى تعفنت الأمور ،

وفسدت النفوس واتجهت إلى المشاركة في الفساد والإفساد وكانت تتمتع في هذا :  
إذا كان رب البيت بالهدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

رأينا هؤلاء للترفين ، وكثيرا ممن تعلموا في الغرب ، وتأثروا بالحياة للتحلة فيه ، يشعرون في الأمة روح الفساد والتحلل ، ويرون في كل دعوة جادة إلى الأخذ بفضائل الإسلام ؛ للقضاء على التحلل والفساد .. دعوة للقضاء عليهم ، وعلى مآربهم ومقاداتهم ، وحرمانا لهم من حياة اللهو والمجون والانطلاق التي ألفوها ، وطاشوا وتنفسوا فيها ، فخاربوا كل صوت يدعو للفضيلة ، والرجوع إلى تقاليدنا العفة المحمّدية ، وسخروا ممن يحمل هذه الدعوة ، وحاربوه بكل وسيلة ، وهم بذلك منطقيون مع أنفسهم وصالحهم ، وتاريخ أمثالهم ، لأنهم يريدون أن يعيشوا كما تعودوا ، وكما عاش أمثالهم من قبل .

وعلى رواد الإصلاح من ناحيتهم ، ألا يفزعوا من موقف هؤلاء ، أو يداخلهم بأس بسبب ما يلاتون ، فهم حملة الدعوة التي حملها الرسل والصلحون من قبلهم ، ولا تقوا بسببها العنت والإرهاق ، وعليهم أن يتحملوا كما تحمل هؤلاء الدعوة ويثابروا كما ثابروا ، ويمجاهدوا كما جاهدوا .

وعلى الشعب للؤمن البريء أن يؤازر دعاة إصلاحه ، ويلتف حولهم ويناصر دعوتهم حتى يتخلص من رجس الترفين ، ومن يعيشون عيشتهم ، ويحتقون فكرتهم ، ليجنى ثمرة هذه الدعوة الطمئنانا في حياته وعدلا في قضاياه .

ولقد جاءت الثورة تقطع رأس الفساد ، واجتثت شجرة الترف والمجون واللهو ، واتجهت إلى الداء تعالجه من أساسه ، فصادرت بعض الأملاك التي امتلكها أصحابها دون وجه مشروع ، وأرجعتها للشعب — كما حددت للأكية ، ووزعت ما زاد عن الحد للعلوم على الطبقات العاملة ، في الأرض ، ولا تزال الآن تسير في طريةها للقضاء على الترف والترفين ، لتقرب بين الطبقات وتوجه الكثير من الناس إلى القيم العملية الخلقية ، وتقضي على النزعات الفاسدة التي سيطرت على جماعات تعالوا على الشعب ، وجعلوا أنفسهم من طينة أخرى ، ورموا الطبقات العاملة في الصانع أو للزارع ، بأنهم عبيد إحساناتهم وعنوا بـ كلاهم وقططهم أكثر مما ينون بفلاحهم أو عمالهم ، وامتصوا دماء الشعب

وكسبوا المال من حرام ليهدوه تحت أقدام العائيات هنا وفي أوروبا... حتى صاروا مهزلة متقلة ، وسية فاضحة لبلادهم أينما ذهبوا... وكانت الثورة وإصلاحاتها تطورا طبيعيا ، وسنة ربانية في حياة الأمة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا وصدق الله العظيم « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وما كانت للصادرة للأملك وحرمان كثير من الترفين من أموالهم التي كانوا بها يترفون إلا نوعا من سنة الله في الإهلاك والحرمان الذي فعله الله بالترفين السابقين الفاسدين .

ولقد استجاب الله سبحانه لموسى حين دعا ربه أن يذهب بمال فرعون ويهلكه هو وجنوده ، وكانت هذه الدعوة مصادرة للمال بأسلوب الدعاء المناسب للأنبياء « ربنا انك أنت فرعون وملأه زينة وأموال في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم... قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » . وهذه الحالة التي شكرنا منها في مصر ليست خاصة بها ، ولكنها تسود كثيرا من المجتمعات الشرقية ، غاية ما هناك أنها قد تختلف شدة وضعها ، حسب اليناث الخاصة ، وظروفها المختلفة ، وأخشى ما أخشاه أن يظل الحاكون لهذه المجتمعات غافلين عن حقائق الحياة وتطوراتها ، ونقصات الشعوب وتطلعاتها ، بعيدين عن حكم الإسلام الحق في علاج ادواء مجتمعاتهم ، فتكون نتيجة ذلك أن تصاب بهزات عنيفة لا تؤمن عواقبها ، فان الشيوعية تخطف بيريقها كل ماخط غاضب .. وتلتهمز — بل تقتل — هذه الهزات ، لتستولى على النفوس ، وتجذبهم إلى حظيرتها .

ولو عقل الحكام وللترفون لعرفوا أن مصلحتهم تحتم عليهم أن يتنازلوا عن كثير من طبائهم وحرصهم ، وأن يضعوا بكثير من مآلهم ، ليحفظوا شيئا لهم ، وأن ينزلوا على حكم الواقع ، وأن يعرفوا أن هدوء النفس مع قليل من المال ، خير وأجدى على الإنسان من كثير من المال مع القلق والخوف... وأن رضا الله وعبدة الشعوب هما النعمة الكبرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

### ٣- الإسلام وزينة الحياة الدنيا



قال الله تعالى :  
« وَمَا أَوْفَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ  
فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَزِينَتَهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ  
وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .  
( آية ٦٠ من سورة القصص )

مما يمتاز به الإسلام على غيره ، في تشريعاته وتوجيهاته ، اعترافه بالطابع البشرية ، وملاحظة مجاريها في حياة الإنسان ، ثم رفقته الشديد به ، فلا يحاول لذلك أن يقضى على هذه الترائز أو يمجتها من أساسها ، ولا يرهق الإنسان بحرب عنيفة بينه وبينها ، وكل ما يتدخل الإسلام من أجله ، إنما هو تعديل الخطر منها على الأخلاق ، وعلى حياة المجتمع ونظامه ، تعديلًا يتفق مع الاتجاهات الطيبة ، والأهداف الفاضلة ، وفيما عدا ذلك ، يسمح به ، على شرط ألا يطفئ على الجانب الخلقى : أو ينقص على الناس هدوءهم وروحانيتهم ، ونستطيع أن نلصق أثر هذا كله في نظرة الإسلام لزينة الحياة الدنيا .

فهو يحول بين الناس وبين الرهبانية ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويفتح الباب واسعاً أمامهم ، ل يتمتعوا بالدنيا كما يريدون ، ما داموا في حرص على أخلاقهم ، ونحن نريد في هذا البحث أن نتابع آيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، لنخرج منها بصویر صحيحة عن وجهة نظر الإسلام إلى الدنيا وزينتها ، فإن قوماً تصدوا للناس ، يصورون لهم الحياة الدنيا والعمل فيها بصورة بشعة ، ينقر منها القلاء للؤمنون ، حتى كان من نتيجة ذلك ، أن انصرف المسلمون عن العمل لدنيا ، وتركوا ميذاتها لغيرهم فاحتله وسيطر عليه ، ورحف على المسلمين فامتدوا على عليهم ، وأمسك بزمامهم ، حتى فقد المسلم كل سيطرة

وسلطان حتى على نفسه ، وأصبح المسلمون هملاً تابعين لغيرهم ، فهم إذن في أشد الحاجة الآن إلى من يصور لهم الإسلام ، ونظرته الصحيحة للصياغة والعمل لها والتمتع فيها ، حتى يقبلوا عليها ويعملوا فيها ، من أجل سعادتهم ، وتقوية سلطاتهم ، وتحصيل العزة التي كتبها الله لهم .

وإنك لتجد وأنت تستعرض آيات القرآن الكريم آيات تصورك وتشعرك بأن الدنيا كلها قد خلقت للإنسان ، من أجل متعته وحياته الراضية الرغدة ، فيقول الله تعالى « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً »<sup>(١)</sup> ويقول « وسخر لكم الشمس والقمر ذابين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »<sup>(٢)</sup> والله هو الذي هباً له سبيل العيشة في الأرض ، وهداه إلى التمتع بما فيها من طيبات ، ومن عليه يلجأ هذه النعم له فيقول « الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون »<sup>(٣)</sup> ويقول « أو لم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فيها ركبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون »<sup>(٤)</sup> ويقول « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، يلبث لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذي سخر البحر لنا كلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »<sup>(٥)</sup> - ثم نجد القرآن يطور هذا المعنى بلغة وسياق آخر فيقول « فليظفر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شققاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضياً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولأنعامكم »<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة البقرة آية ٢٩

(٢) سورة إبراهيم آيات : ٣٤ ، ٣٣

(٣) سورة الزخرف آية : ١٠

(٤) سورة يس آية ٧١ - ٧٣

(٥) سورة النحل : ١٠ - ١٤

(٦) سورة عبس : ٢٤ - ٣٢

وهكذا تبحر القرآن في هذه الآيات وفي كثير غيرها ، يذكر نعم الله على عباده ، ويمن بها عليهم ، ويعرضهم من أجلها على الشكر ، والاستقامة في هذه الحياة ، لتوفير السعادة للبشرية كلها ، ويحى القرآن بتفهيم الإنسان أن هذه الدنيا وما فيها من نعم كبرى ، إنما خلقت له هو ، ليعمرها ويتنعم بخيراتها ، حتى ما لا يستطيع الإنسان بقوته تسخير ، سخره الله له ، وجعله ذلولاً طيعاً لإرادته ، حتى يتم الله عليه نعمته .

ومن الطبيعي — والحالة هذه — أن يكون المتع بهذه النعم كلها ، بما أباحه الله ، بل بما ندب إليه ، ودعانا له ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ويكره منا أن نعطل مخلوقاته ولا نستغل فضله ، أو نعب من خيراته .

فمن الخطأ إذن أن تشج في المسلمين نعمة خيثة مرذولة ، تدعوهم إلى الانكماش ، وتبعد بين الدين والدنيا ، وتضع حداً حاجزاً بينهما ، وترسم للمؤمنين صورة من الحياة ، بعيدة عن طلب الدنيا ، والعمل فيها ، والإقبال عليها ، وتدعوهم إلى أن يكرهوها ويمقتوها ويمقتوا معها كل سعى جاد ، وكل عمل شاق ، وتصور لهم طلاب الدنيا بأنهم : الساعون في طلب أرزاقهم ، الضاربون في منابك الأرض لاستخراج كنوزها ، العاملون على زيادة ثروتهم ، واقتناء متاع الحياة الدنيا أو هكذا فهم الناس من وجههم ، واستولى عليهم هذا الفهم ، إبان فترة الضعف التي مرت بالمسلمين ، أو إن ثبت قل إنها كانت من المماول التي شاركت في هدم صرحهم ، حتى لرى خطب الجمع للدونه للورثة من أجيال بعيدة تصور الحياة هذا التصوير البشع .

وقد يكون قصد هؤلاء الواعظين أن يصرفوا الناس عن التكالب ، والانكباب الترس على تحصيل الرزق من طرق غير كريمة ، وفي مناقشة تثير الأحقاد ، وهذا حسن ، لكنهم لم ينفوا بتفهيم العامة الفرق الدقيق بين هذا المعنى الكريم ، وبين المعنى الآخر الخطر الذي فهموه ، وأثر على مجرى حياتهم ، فقد فهموا من هذا التصوير أن الإسلام لا يريد من الناس أن يسوا على أرزاقهم ، أو على الأقل يعتبر الاشتغال بذلك جرياً وراء الدنيا الغانية ، مع أن هناك ما هو أفضل من هذا عند الله ، وهو العبادة وترتيل القرآن والاططلاع لذلك .

كما فهموا أن الإسلام لا يبيح لهم التمتع بالطيبات ، أو على الأقل عدوا ذلك من مظاهر الرقة في الدين ، والنقص في الإيمان واعتبروا إهمال للتظهر ، وعدم نظافة الثياب ، أو جمها من رقع كثيرة ، وترك اللعاب ينساب على القنن ، وللإلباس من مظاهر الدين .. والولاية ، وسيطر هذا التفكير القريب والتوجه السيء على المسلمين قرونا طويلة ، حتى أصبح العمل في الحقل وللصنع وسط للمسلمين غير مرغوب فيه إلا إذا كان الإنسان إليه مضطراً ، وهو حينئذ يعمل للدنيا لا للدين ، وشتان بين هذا وذاك .. شتان في نظر هؤلاء بين العامل الكادح الساعي في الدنيا لرزقه ، وبين هذا البرويش المتبذل المتعطل ، الذي يدعى الإيمان أكل الإيمان ! ويدعى العمل للأخرة ، لأن ذلك يجعل إلهياه ، حيناً يضرب الأرض بفأسه ، أو يسوق الغنم بعصاه . . .

ولقد جنى هؤلاء على الإسلام — بنظرهم هذه — جناية لم يجنئها عليه أعداؤه وكفاهم أنهم كانوا من أسباب ضعف المسلمين ، وتمكين أعدائهم من رقابهم ومصائرهم ، كل هذه القرون الطويلة ، ولا زال العالم الإسلامي يتن من أوجاعه التي خلفتها فيه هذه النظرة الخاطئة في فهم الإسلام .

وقد كاد جماعة من المسلمين الأول والرسول صلى الله عليه وسلم وسعاهم يعلمهم ويرشدهم أن يفهموا هذا الفهم ، فحال بينهم الرسول وبينه . وهم جلوس يتطلون منه — فقد رأوا شاباً ذا جلد وقوة يحمل فأسه ، ويتجه إلى عمله في حقله ، فقالوا : « لو كان شبابه وجلده في سبيل الله » كأنهم رأوه يعمل فيما لا يفيد به الله — فلم يرض الرسول صلوات الله وسلامه عليه — وهو الربى وللوجه الأعظم لركب الانسانية — لم يرض هذه النظرة منهم وقال لهم : « لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه يفها عن المسألة فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أيون شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أولاد صغار يعطهم ويستقيم ، فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى إباء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان »

وبهذا صحح الرسول لأتباعه فهمهم ، وحال بينهم وبين الاشتكاس ، وجعل العمل والنية الطيبة فيه جهادا في سبيل الله أي عمل كان . . ولكن كل هذه المعاني



لم يلتفت إليها أولئك المتكسون التأخرون ، الذين جنوا على الإسلام وعلى أبنائه .  
 إن الاسلام لا ينكر على الناس جهم المال والبنين ، ولا يغضب إذا أحب  
 الانسان زينة الحياة ، ومتع نفسه بجمتها ، فأكل طيباً ، وليس طيباً ، ونزل مسكناً  
 طيباً واتقن أغر الرياش والأثاث ، الإسلام لا يكره هذا ، بل يهده خيراً حسناً  
 وكل ما يعمل في هذه الحالة ، ويتدخل فيه إنما هو تلبية للسلم إلى أن هذا الخير  
 الذي يقبل عليه في الدنيا ، ويتمتع به لا يليق أن يدعو إلى البطر أو إلى نسيان  
 فضل الله عليه ، بل عليه أن يتذكر ربه للتم من خلال كل نعمة تصل إليه ،  
 ويذكر الله بها ويشكره عليها شكراً قليلاً وعملياً ، حين يشرك معه غيره من عباد  
 الله في أفضال الله عليه ليفوز عنده بعد الموت ، بما هو خير وأبقى من نعم الدنيا التي  
 أحبها ، فالقرآن يعترف بزينة الحياة ونعمها ولذتها عند الإنسان ؛ ويتخذ من  
 مكائنها هذه عنده سلباً يدعو به إلى ما هو أحسن منها ، ويعرضه بذلك إلى  
 حسن التصرف فيها فكأنه يقول له . . . هذه أشياء أحببتموها لما فيها من خير  
 وحسن . وعندى في الآخرة ما هو أحسن منها ، لو أحسنتم في الدنيا التمتع بهذه  
 النعم ، وشكرتم الله عليها ، وحرستم على الفضائل ، فلم تنسوها في غمار التمتع  
 بخيرات الحياة الدنيا . . . عندى في الآخرة جائزة عظيمة ، أحسن من كل ما تمتعتم  
 به في الدنيا ، لو أحسنتم التصرف في تمتعكم الدنيوية .

وهذا تحريض لاعلى ترك بطيات الحياة الدنيا ، والعمل لتوفيرها ، بل على الفوز  
 معها بطيات الحياة الأخرى كذلك ، وقد عالج القرآن كثيراً هذه الناحية ، لأن  
 الله الحكيم الذي نزل الكتاب ، يعلم خفايا النفوس وطبائنها وهو القائل « كلا  
 إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » (١) .

فهذه طبيعة النفوس ، كلما ملكت ما لا تزعت إلى الشر ، وابتمدت عن الفضائل  
 والخير ومن أجل هذا يحاول القرآن التخفيف من هذه النزعة ، ويستميل  
 الإنسان النقي للتمتع بطيات الحياة إلى متعة أخرى أفضل وأبقى بما في يده  
 في الدنيا . .

(١) سورة الطن : آية ٦١ ، ٧٠

اقرأوا معنى قول الله تبارك وتعالى من سورة آل عمران (١) :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل للسومة والأنعام والحراث ، ذلك متاع الحياة الدنيا »

فهو في هذه الآية يتحدث عن الطبيعة البشرية وبرزها واضحة ، أمام أصحابها ومحاطب الإنسان بما في قرارة نفسه من حبه لهذه الأشياء المشتيات ، من النساء والبنين والقناطير المقنطرة إلى آخره . . . وما كان الإسلام ليطن على الناس حجم الطبيعي لهذه الأمور ، فإن هذا الحب هو أساس الإقبال على الحياة ، وتعمير الكون الذي أراد الله من خلق آدم ، وإزاله للأرض فلا يعقل — إذن — أن يحارب الإسلام أو يعيب حب الآباء للأبناء أو حب الرجال للنساء أو حب الناس لذلك ، وما كان يعقل مطلقاً أنه يحاول نزع هذا الحب الطبيعي من نفوس الناس لأنه إن فعل فأتما يحاول عبثاً ، ويكلف الأشياء ضد طباعها ، والله تعالى منزه عن ذلك . .

فهو إذن يتحدث عن الطباع البشرية ، ويميلها لهذه الأشياء ، ولا يعيب عليها هذا الميل في ذاته ، بل ولا يحاول اقتلاعه ، وكل ما يفعله في هذا الصدد ، إنما هو التوجيه ، فهو يذكر الإنسان بأن هذه المشتيات التي يحبها ، يوجد عند الله ما هو خير منها وأفضل ، فلا يليق أن يشغله الأدنى عن الأعلى ، ولا يجوز أن يبيع الكثير الباقي بالقليل القاني ، فاذا وقع منه ذلك ، كان في نظر العقلاء غير عاقل بل في نظر الذين يحبون التمتع غير حصيف ولا حاسب ، لأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير . ولا يكون ذلك إلا حين يكف على هذه المشتيات ، ويجهلها غايته ، فيسوء التصرف فيها ولا يسلك الطريق الحلال في التمتع بها ، ولا يشكر الله عليها ، ولا يجعلها سلماً يرتقى به إلى ما هو أعلى وأبقى . .

ويمكن أن تلمسوا معنى هذا للمعنى الذي أريد أن تحيطوا به من آيات القرآن الكريم حين تقرأون معنى قوله تعالى — يمد أن قرر في الآية حب الناس لهذه التمتع « والله عنده حسن المآب ، قل أؤنبشكم بخير من ذلكم ، فإذن انتقوا عند ربهم

جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد »

وعليه بهذا قول الله في موضع آخر « للال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »<sup>(١)</sup> وقوله تعالى في سورة الشورى « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون »<sup>(٢)</sup> .

فكل هذه الآيات ولها نظائر كثيرة في القرآن تقرر أن كل ما يؤتاه الإنسان في الحياة من مال وبنين وغيرهما ، إنما هو من متع الحياة الدنيا وزينتها ، وهي متع بسيطة قليلة ، تكتنفها للنصائح ، إذا قيسمت بمتع الحياة الأخرى الباقية ، والإنسان للؤمن يستطيع أن يجمع بين التمتين ، فيمتع نفسه بما في الدنيا من زينة طيبة حلال ، دون إسراف مع تذكر الله للنعم ، وأداء حقه ، ويكون في الوقت نفسه قد هيا له متعة أخرى عظيمة عند الله ، فيفوز بالحسينين في الدنيا والآخرة ، وهكذا يعترف الإسلام بالمرائر السكمنة في النفوس ، ويعد لها للناحية التي يستفيد بها صاحبها ، ويستفيد المجتمع معه ، فهو حين يقر حب الإنسان لمتع الحياة من مال وبنين كأنه يدعوهم إلى الاستزادة منهما ، ومن الحيل للسومة والأتمام والحرف ، فيندفع إلى العمل والجهد بكل الوسائل ، حتى يحصل من هذا كله على أكبر نصيب ، ولكنه لا يتركه يجري وراء طيبة الحرف وحب للتمعة ، حتى تستولى عليه وتدفعه إلى اللزالي وإضرار الغير ، ونسيان حق الله ، بل يذكره ، ويأخذ بلجام نفسه كيلا يندفع ويتهور ، ويستل فيه حبه للتمعة ، فيدعوه إلى الاعتدال وإلى اكتساب متعته من طريق شريف ، ليفوز عند الله بتمعة أوفر وأبقى .

\* \* \*

هذا الفهم الصحيح للقرآن ولنظرة الدين للحياة غاب عن كثير من الناس ،

---

(١) سورة الكهف : ٤٦

(٢) سورة الشورى : ٣٦

ولا سيما بعض الوجهين من العلماء ، غفلوا هذا الدين السمع الرحب ، المتسق مع الحياة ، وطرق التهوض والسيادة فيها ، حولوه إلى دين منزمت متمجرب يارض الطابع البشرية ، ويحارب الفرائض عاقبة ، حتى ليكاد يقتلها ، حولوه إلى دين يدعو إلى الرهبانية والكسل ، والحدود ، وترك وسائل الكسب والقوة للعاملين من غير أتباعه ، وما كان لدين يدعو أتباعه إلى العزة والسيادة في الأرض أن يدعوهم مع ذلك إلى الحدود ، وترك وسائل التكسب ، وإعداد قيمة للمال ، ما كان لدين يقول لأتباعه « كنتم خير أمة أخرجت للناس » أن يجعلهم أمة كلام وثرثرة ، تاركة لغيرها العمل وكسب المال ، وما كان لدين الذي جعله الله الدين الخالد لأمم الأرض جميعاً أن يجعله متعارضاً مع الحياة السلمية ، والأوضاع المستقيمة متعارفاً مع حكمة الله في تعمير الكون به ، واستخراج كنوزه ، والتعجب بغيراته .

نعم ما كان الإسلام هكذا ، ولا يرضى بالوضع الشاذ الذي ارتضاه له أناس من أهله ، حين صوره بصورة الدين المتعارض مع الطبيعة ، البعيد عن مسايرة الحياة والتسابق الشريف في ميادينها ، وعندنا من الآيات الصريحة ما يرسم لنا الطريق الواضح لسير الناجح في هذه الحياة ، لأننا إذا تتبعنا آيات القرآن الكريم وجدنا فيها آيات صريحة واضحة ، تقرر وجهة نظر الاسلام من متع الحياة الدنيا وزينتها ، اقرءوا معي قول الله تعالى « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » (١) .

فأفقه — سبحانه — يأمر عباده أن يزينوا ، ويتمتعوا بمتعة اللباس وغيره من كل ما يزينهم ، إذا ذهبوا إلى عبادته ومناجاته في بيوته ، وإذا كان هذا مدعوا إليه عند مناجاة الله وعبادته فهو في اللواقف الأخرى أولى وأزوم ، أو على الأقل مدعو إليه كذلك ، ثم نجد الآية الكريمة تقرر مبدأ هاماً في حياة الإنسان ، يضبط به أمره « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب للمسرفين » هذا هو اللزوم في حياة الإنسان ، يأكل ما يحب ، ويشرب ما يشتهي ، ويتمتع كما يريد ، في الحدود الطيبة ، دون إسراف .

وتشبه هذه الآية آية أخرى في سورة الفرقان ، في صدد بيان عباد الرحمن ،  
 وتعييّنهم بأعمالهم وأوصافهم ، وحى قوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا  
 ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً »<sup>(١)</sup> أى وسطاً بين رذيلتي الإسراف والتقتير ،  
 ثم نجد القرآن بعد أن أمر الإنسان باتخاذ زينته عند كل مسجد ، يقرر مبدأ هاماً  
 صريحاً في أسلوب قوى ، يصور أن هناك جماعة مقشدة مزمنة ، تحرم على  
 الإنسان زينة الحياة الدنيا ، بدعوى أن التمتع ليس من الدين ، وأن الحرمان هو  
 القربى إلى الله ، فيرد على هؤلاء للزمتين وأمثالهم ، ويقرر للبدأ الهام في هذا  
 الأسلوب القوى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟  
 قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ، كذلك تفصل الآيات  
 لقوم يعلمون « فهل رأيت قوة تشبه هذه القوة في تقرر هذا للبدأ ، الذي يحاول  
 أقوام غافلون متنتطعون طمسه وهدمه ، فيحرمون على الناس ما أحل الله لهم باسم  
 الدين ، والذين يرى من أفكارهم وتوجيههم ، وقد جاء في تفسير الكشف  
 للزعرى في صدد تفسير هذه الآية : كان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون  
 الطعام إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً ، يعظمون بذلك حجهم ، فقال للسُّلُون : فإننا  
 أحق أن نعمل ، قليل لم : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » وهذه الآيات حرب  
 على كل من حاول أن ينظر إلى التمتع نظرة سيئة وكذلك على من فكر في حرمان  
 نفسه من متعها باسم التقرب إلى الله .

والقرآن حين يوجه هؤلاء للشددين على أنفسهم ، الذين يحرمون عليها  
 ما أحل الله كأنه يقول لهم ، ما لكم تذهبون إلى الحلال فتحرمونه ، وتتشددون  
 وتنتطعون وتنتالون ، وعندكم أشياء محرمة ربما تهاوتهم وفرطتم فيها ؟ فإن كنتم  
 حقيقة متدينين ، تطلبون رضى الله ، وترجون القربى منه ، فهذا شرعه الذي  
 حدده ورسمه ، فيها تشددوا في تحريم هذا الحرام ، والامتناع عن قربانه ، بدل  
 هذا الحلال الذي تحرمونه على أنفسكم ، ولذا نراه يقول مباشرة بعد الآية السابقة :  
 ( قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ،

وَأَنْ تَسْكُرُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ<sup>(١)</sup> » .  
 هذا هو الحرم وهما ميدانه ، فعالجوا أنفسكم وامتنعوا عنه ، ولا تنتطعوا  
 في تحريم اللذة الحلال ، بدعوى أنكم متدينون !

وهذه الآيات تخاطب كذلك كل جماعة عتيت بالتوافه ، وتمسكت بمنذوب  
 أو سنة ، أو نهت عن مكروه أو ما هو خلاف الأولى ، وجعلت ذلك هو ميدانها ،  
 وأقامت الدنيا وأقصدتها من أجله ، وهى فى الوقت نفسه تفرط فى أداء الواجبات  
 وتتفانى عن الكبر من المحرمات ، وتجعل كل همة فى للظاهر الجوفاء ،  
 تتخذ بها فتضيع جهودها ، وتذهب هباء أعمالها ، ويصاب المجتمع بنكسة من  
 جراء تصرفاتها ، ولو شئت أن أضرب الأمثال لتصرفات من هذا القيل ، لوجدت  
 الكثير ، ولكن يكفى ما أعرفه من أن كل قارىء يحس معى وجود مثل هذه  
 التصرفات ، سواء كانت صادرة من أفراد أو جماعات ، ولست أرجو من التنبه إلى  
 هذا إلا أن نصلح ما فىنا من عيوب اجتماعية ، وأن تنبه إلى الباب لا إلى القشور ،  
 ونركز جهودنا فى الموضوع لا الشكل ، حتى تثمر أعمالنا الثمرة التى نبتغيها .

وعندنا حديث صريح يتصل بموضوعنا ، ويتلاقى مع الآيات التى سقناها من  
 قبل ، ويكاد يكون فصل للقال ، فى هذا الموضوع . وهو قوله عليه الصلاة والسلام :  
 « كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك خصلتان : سرف وخيلة » فليس  
 هناك ما هو أوضح ، ولا أصرح من هذا الحديث ، فى تحديد التمتع بطيات الحياة ،  
 فهو يطلق للإنسان حرته فى التمتع بها ، مادام ذلك لا يؤثر على نفسه ، فليس  
 فيها الكبر والخلاء ، ولا يؤثر على سلوكه فيدفعه إلى السرف المعقوت ، والحرام  
 للردول ، وما عدا ذلك فهو حلال ، يتمتع به كيفما شاء ، ويقضى من الأثاث  
 والرياش والمركبات ما يستطيع ، على ألا يؤثر ذلك عليه فيطنى ، ويلبس من حوله  
 بمن وصاه الله بهم .

ثم تعالوا معى إلى آيات من القرآن الكريم تحدثنا عن هذا المعنى أيضا .  
 يقول الله تعالى : ( وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَتَّعَمَّكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ

مسمى<sup>(١)</sup>» فهذا المتاع الحسن ، الذى يعطيه الله لعباده التوايين المتطهرين ، إلى أن ينتهى أجلهم فى هذه الحياة ما هو ؟ أليس هو زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ أليس هو المال الكثير الذى يتخذ الإنسان وسيلة لثمته فى هذه الحياة ؟ ثم إن الله حين يعد عباده للتعين بالحياة الطيبة فى الدنيا يقول : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجنيه حياة طيبة<sup>(٢)</sup> » ماذا يريد بالحياة الطيبة ؟ هل يريد لها فقط حياة الفقر والشغل والسقى ؟ كلا ، إنما يريد لها حياة يزنها للمال الوفير ، الذى يسخره الإنسان لثمته ومشروعاته ، والله حين يقول على لسان نوح عليه السلام لقومه : « استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السيل عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا<sup>(٣)</sup> » هل كان يمد لهم نوح على الاستغفار والطاعة بالحرام والمكروه ؟ .

وحين يقول الله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض<sup>(٤)</sup> » وحين يقول : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا<sup>(٥)</sup> » هل يريد يبركات السماء والأرض ... الفقر والجوع ؟ أو يريد المال الوفير والخير الكثير ؟ وهل يكون المال إلا للمتعة والزينة ، وتسخيره لأغراض الإنسان المادية والروحية ؟ ! . وإذا كان جزاء التقوى فى الدنيا وفرة للمال ، وكثرة الخيرات للجماعات والأمم ، فهل يقل بعد ذلك أو يتصور أن يكون التتم بهذا المال ، وهذه الخيرات عما لا يرضاه الإله . . ؟

وأمانا آيات كريمة استدعى نزولها اتجاه جماعات من الصمابة إلى التقرب لله ، يحرمون أنفسهم من طيبات ما أحل الله لهم ، فلم يرض الله عن اتجاههم ، وأزل من قرآنه آيات صريحة ، تعتبر من أقوى الآيات دلالة فى هذا الموضوع . حيث تبين الوضع الصحيح أو النظرة السليمة التى يجب أن يفهمها المسلمون فى هذا الموضوع ، لأن هؤلاء

(١) سورة هود : ٣

(٢) سورة النحل : ٩٧

(٣) سورة نوح : ١٠ ، ١١ ، ١٢

(٤) سورة الأعراف : ٩٦

(٥) سورة الجن : ١٥

الصعابة رضوان الله عليهم اعزموا البد عن متارف الحياة الدنيا ، والاشطاع عن متعها ، والانصراف إلى حياة التتشف والحرمان ، غانين أن ذلك مما يزيدكم قرباً إلى الله ، ولكن الله أبى — وهو الكريم — أن يتركهم على هذا الفهم للإسلام ، وهو في مستهل نشأتهم ، وهم في موضع القدوة لمن يأتي بعدهم ، فأزل الله آيات من قرآنه تنهاهم في شدة وقوة عن هذا الفهم والاتجاه .

وإننا لنلحس هذه التمرة من جانب الله وشدة في النهي من الفاظ الآية نفسها : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكلاهما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون <sup>(١)</sup> » فأنتم تزعمون أن النهي لم يكن نهياً مجرداً ، بل فيه ولا تحرموا طيات ما أحل الله لكم . ثم بعد هذا يقول لهم : « ولا تعتدوا » مع أنهم لم ينووا إلا خيراً ، لكن للعالة في الدين ، ومحاولة التقرب إلى الله بما لم يشرعه ، ثم حرمان النفس من طيات ماسقة الله إليها حلالاً طيباً ، كل ذلك اعتداء على تشريع الله ، واعتداء على السنن الطبيعية ، واعتداء على النفس الإنسانية ، حين يكلفها الإنسان شدة وعناء ، دون أن يكون ذلك في محله من رضى الله وتوجيهه ، ولذلك ينذرهم الله بعد هذا النهي الشديد ، ويقول لهم ، إن الله لا يحب منكم هذا ولا يحبكم إذا أقدمتم عليه لأنه « لا يحب للمعتدين » .

وقد جاء في تفسير للنار لهذه الآية أن بعض الصعابة رضى الله عنهم ، استشاروا نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم في تحريم الطيات والنساء ، على أنفسهم ، وتركها بعضهم من غير استشارة ، اشتغالا عنها بصيام النهار وقيام الليل ، فتهاجم عن ذلك وأزل الله تعالى هذه الآية ، وما في معناها من الآيات في تحريم الحباث وفي المنة عليهم بحل الطيات ، وبين ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله وقطعه أحسن بيان ثم قال ، وإننا نذكر هنا بعض الأخبار والآثار للروية ، لتكون حجة على أهل التلو في هذا الدين ، الذين تركوا هدايته السمعة ، إلى تشديد



التابرين ، وصاروا يعدون زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيّات من الرزق خاصة بالكافرين ، حتى كان للشارك لهم فيها خارج عن هدى المؤمنين .

ثم أورد بعد هذا عدة روايات في سبب النزول ، وكلها تجمع على أنه كان هناك أشخاص من الصحابة ، أرادوا أن يتقربوا إلى الله بحرمان أنفسهم من طيات الحياة ، وبالتالي في العبادة ، اعتقاداً منهم أن ذلك بما يرضاه الله ، ويشبهه عنه ثواباً عظيماً .

وكان من هؤلاء الصحابة الذين ذكرت الروايات أسماءهم على بن أبي طالب ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، حرموا على أنفسهم كثيراً من التهوّات والنساء ، وقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال الآخر : لا أزوج النساء ، وقال الثالث : لا أنام على فراش ، وأرادوا أن يتخذوا الصوامع للعبادة ، كما اتخذها الرهبان ، وهما أن يخصوا أنفسهم ، ويلبسوا اللبس ، وأرادوا أن يصوموا النهار ، ويقوموا الليل ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال : « مبال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم !؟ ألا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء فمن رغب عن سنّي فليس مني » وقال لعبد الله بن عمرو : ( ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : فلا تفعل صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينيك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك « أي زوارك » عليك حقاً ، وإن بحبك من كل شهر ثلاثة أيام » وقال عليه الصلاة والسلام في رواية أخرى : ( إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم في النار والصوامع ) .

وفي رواية أخرى أن الرسول أرسل يقول لهم : ( ألم أنبأ أنكم اتقتم على كذا وكذا ۱۱ ) قالوا : بلى يا رسول الله ، وما أردنا إلا الخير ؛ قال : ( لكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآتي النساء ، فمن رغب عن سنّي فليس مني ) وفي رواية : ( لا آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا ) .

نفس من هذه الروايات ذلك الاتجاه النفسي لبعض من أجلاء الصحابة حين ظنوا أن في الحرمان تقرباً إلى الله ، كما في بعض الأديان التي سبقتهم فزلت هذه

الآية لتفضي على هذا الاتجاه عند نشأته ، وتقرر الطريق الوسط الذي اختاره الله لهم ، والذي هو طابع الإسلام العام في كل أموره ، وتنهام في شدة عما أقدموا عليه ، برغم أنهم أعلنوا عن الدافع الطيب الذي دفعهم إلى هذا العمل ، لأن إرادة الخير وحدها في أي عمل لا تكفي ، بل لابد من سلامة الطريق الذي تسلكه إلى هذا الخير .

ثم لم يكتفِ الله جل وعلا في إرشادهم بهذا النهي ، بل أعقبه بأمر واضح صريح في أن يأكلوا مما أحله الله لهم ، وهذا مما يبين خطورة الأمر وشدة العناية به فيقول : « وكُلُوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » ثم لم تقف العناية بالأمر عند هذا الحد ، فإنهم لما قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، وماذا تفعل في أيماننا التي حلفنا ، حللهم الله منها وأزل : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » وليس هناك أشد من هذا كله عناية بالأمر ، وإهتماماً به ، ولا عجب فإن اتجاه الإسلام العام وطبيعته الحيوية الاجتماعية ، تتعارض مع هذه الروح التي ظهرت من بعض الصعابة ، وكان اللغو هنا يشمل مثل هذه الأيمان الخارجة عن سنن الله وشرعه .

لعل بعض النفوس تتساءل عن الحكمة في هذا النهي وتقول ، وأي ضرر في أن يحرم الإنسان نفسه من بعض الطيبات ، متقرباً بذلك إلى الله ، فهو لم يقصد إلا الخير ، وهل في ذلك جناية على نفسه أو على غيره ، حتى يشتد الحكمم الخير في النهي هذه الشدة ؟ ويجيبني في الجواب عن هذا التساؤل ما جاء في تفسير المنار حيث يقول : ( إن الله تعالى يحب من عباده أن يقبلوا نعمه ، ويستعملوها فيما أنعم بها لأجله ، ويشكروا له ذلك ، ويكره لهم أن يجنوا على الفطرة التي فطرهم عليها ، فيمنعوا حقوقها ، وأن يجنوا على الشريعة التي شرعها الله لهم ، فيغلوا فيها بتعريم ما لم يحرمه ، كما يكره لهم أن يفرطوا فيها باستباحة ما حرمه أو ترك ما فرضه ، ولأجل هذه الحكمة لم يكتفِ بالنهي عن تحريم الطيبات ، حتى صرح بالأمر باستعمالها والتنعيم بها ، وقد بين تعالى غاية ذلك وحكمته التي أشرنا إليها بقوله : « يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتِّقَاءُ اللَّهِ وَمَا ذُكِّرَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ » (١) والشكر يكون بالقول والعمل ثم قال : ( فامتنالوا هذا الأمر وذلك

التي معا ، لا يتحقق إلا بالتمتع بما يتيسر من الطيات فعلا ، بلا تأثم ولا حرج »  
 ثم قال : « فعمل بما شرحناه أن امتناع أى امرئ من التمتع بالطيات التي رزقه الله  
 إيها ، مع الداعية الفطرية للاستمتاع بها إثم يحنيه على نفسه في الدنيا ، ويستحق  
 به عقاب الله في الآخرة ، بزيادته في دين الله قربات لم يأذن بها الله ، وبما يترتب  
 على ذلك من إضاعة بعض حقوق امرأته وعياله ، وناهيك به إذا انتصب  
 قدوة لغيره . »

\*\*\*

أظن أن الأمر الآن قد استبان ، وللوضوح قد استوفى حقه من البحث لكن  
 جيت هناك أشياء تمتح على التساؤل ، وتحتاج إلى الجواب عنها .

فهناك أصوات كثيرة ، طالما سمعناها تردد فضل الزهد ، وفضل الجوع والفقر ،  
 حتى لتكاد تفضل حياة الشظف والحرمان دينيا عن حياة التمتع بطيات الحياة الدنيا  
 وتتخذ من ذلك قاعدة عامة ، أولى بالمسلمين أن يسيروا عليها ، وهذا في رأى  
 خطأ في فهم الزهد ، لأن الزهد المطلوب من كل مسلم هو عدم التكاليف والحرص  
 على الدنيا ، حرصاً يذهب بقيمة السلم ، ومثله العليا ، ويحل بالفنايل التي يجب أن  
 يتحلّى بها ، أو يجعل حياته صورة كريهة من الجشع ، أما الزهد الذي يراد به  
 ترك التمتع الحلال بالطيات فهو ليس قاعدة عامة في الدين ، وليس مطلوباً من  
 المسلمين أن يتبعوه في حياتهم ، لأن الآيات الصريحة تعارض هذا الاتجاه العام .

وإذا رأينا بعض كبار الصحابة يؤثرون التشف كمرضى الله عنه ، وقد  
 كان في مقدوره أن يتمتع بما توفر له من المال الكثير ، فإن ذلك كان لصلحة عليا  
 في سياسة الرعية ، ولم يكن الغرض الوحيد منه مجرد التقرب إلى الله ، لحسب ،  
 بل كان يريد بذلك معارضة تيار قوى جارف ، حدث في صفوف المسلمين ، حين  
 فتحت عليهم خزائن الأرض ، كما أراد أن يحد من انجذاب عماله ، وولائه نحو جمع  
 المال ، خوفاً عليهم من أن تتفجر في نفوسهم ينابيع الشهوات ، ويندفعوا وراء  
 أنفسهم ، يترفون بالمال الكثير الذي صار في أيديهم ، ولحذا نرى عمر في الوقت  
 الذي أخذ نفسه فيه بهذه الترية ، وهذا السلوك ، يبيع لبعض عماله ولغيره من  
 كبار الصحابة ، أن يظهروا بمظهر للنم التمتع بخيرات الحياة ، مادام ذلك يتطلبه

الحياة ، وما دام من كسب حلال ، لا يؤثر على نفسه الرء وسواكه ، فأمر عمر إذن هو ، كما قال بعض الفضلاء : أنه فعل ذلك لحكمة هي أنه كان أميراً للمؤمنين ، وعمله يقتدون به ، وربما لا يكون لهم مال ، فيأخذون من المسلمين ليجاروا التيار العام ، وهو تيار الترف والتجنع ، فأقام عمر رضى الله عنه من نفسه صمام أمان حتى لا يصاب للمسلمون في أول عهدهم بمالهم وحكامهم ، وأياً ما كان فالزهد يعنى الامتناع عن الطيات تدنيا ، ليس قاعدة عامة في الشريعة ، يطالب من كل مسلم أن يحققها ، ولكنه قد يكون في بعض الأحيان دواء لبعض النفوس ، تعاطاه كما يتعاطى للريش الدواء ، ليصلح من نفسه أو نفوس من حوله .

ومع هذا فليس معناه التكاسل ، وترك العمل ، والاعتماد على الغير ، وليس معناه أن يجوع الإنسان باختياره ، ويترك ما يقيم به نفسه ، ويحفظ به صحته ، فإن ذلك جناية على الفرد والمجتمع لا يرضاه الإسلام .

وإذا رأينا بعض أحاديث تفصل الجوع والفقر على الشبع والنفى ، فلا تشك أنها أريد بها حالات خاصة ، لا أنها قاعدة عامة ، لأنها حينئذ تعارض صريح الآيات ، وحينئذ نكون في حل من عدم الأخذ بها كقاعدة عامة لأنها لا تصلح أساساً للعبادة القوية التي أرادها الله . لير أمة أخرجت للناس ، ثم إن بعض الذين يذمون الدنيا والتعم فيها يعتمدون على قوله تعالى : «من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب» (١) ويقولون مالنا والدنيا وللمسى فيها ، لقد تركناها لأهلها ، وابتعدنا عنها وعكفنا على عبادة الله له برحمتنا ١١ وهذا فهم سقيم واتجاه غير سليم ، وتحريف لكلام الله عن مواضعه ، لأن الآية لا تعرض لدات السعى والعمل ، ولكن تعرض للنية والاتجاه فيه ، فهناك جماعة حسلت نياتهم ، وخلصت لله قلوبهم ، فراقبوه في كل عمل ، وراعوا مرضاته في كل سعى وكد ، وهؤلاء ، ينالون حظهم من عملهم في الدنيا وحظهم من نياتهم الطيبة في الآخرة عند لقاء الله ، وهناك جماعة لا نية لهم في عملهم ، أو لهم نية لا تتجهون بها لله ، بل يريدون قرية من غلوق ، أو مكافأة عاجلة من مال أو صمة حسنة يراود بها الناس ، وهؤلاء وينتهم ،

(١) سورة الشورى : ٢٠

فجزاؤهم لا يتعدى دنياهم ، وليس لهم في الآخرة حظ ، لأنهم لم يتذكروها في عملهم (وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ) . . . فالآية إذن لا تعرض للتمتع والزنى في الدنيا ، كما أنها لا تعرض للعمل نفسه ، ولكن تتحدث عن النية والانجاء فيه ، وللمتمتع بنعم الله إذا قصد بذلك التحدث بنعمة الله عليه ، وشكره عليها ، أثابه الله على هذه النعمة ، حتى لو كانت لقمة يضعها في فم امرأته يداعبها بها — كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعامل إذا كدح وسعى ، ليف نفسه وأولاده عن السألة أثابه الله ثوابا يحرم منه القاعدون العاكفون على العبادة ويلتمسون رزقهم من أيدي الناس كما تنيد الأحاديث الصحيحة ..

وقسبه هذه الآية للتقدمة آيات أخرى في سورة البقرة<sup>(١)</sup> تتحدث عن النيات ، وتقسم الناس حسب نياتهم وتبين ثوابهم تبعاً لهذه النيات ، فتقول : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الآخرة حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » .

فالتقسيم الأول : في الآية هم الذين عكفوا على الدنيا قاصرين نياتهم عليها غير ناظرين إلى ما وراءها وهؤلاء سيتألم ما قصدوه وسيحصلون في الدنيا ما أمالوه ، أما الثواب في الآخرة فهم محرمون منه ، وليس لهم منه حظ ولا نصيب ، والذنب ذنبهم ، لأنهم لم يتجهوا إلى الله وثوابه في أعمالهم ، وهذا هو الذي تبرزه آية أخرى « من كل يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون »<sup>(٢)</sup> فيأخذون جزاءهم عاجلاً فيها ، أما الثواب في الآخرة فلا ، لأنهم لم يقصدوه ، بل لم يؤمنوا بالآخرة أصلاً ومثله قوله تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد »<sup>(٣)</sup>.

(١) آية ٢٠٠ ، ٢٠٢

(٢) سورة هود : ١٥

(٣) سورة الإسراء : ١٨

وفي معنى هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « ومن كانت هجرته إلى دينا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » وليس له زيادة على ما أراد .

والقسم الثاني : جماعة عندهم جد نظر وفيهم إيمان ، فجمعوا ما بين الحسنيين ففسعوا وكدوا وراعوا وجه الله في سعيهم وكدهم ، وانجسوا إلى الله ببنائهم وآمالهم أن يثيبهم الله على ما يفعلون ، فرزقهم الله على حسب نيتهم ، فوفر لهم في الدنيا بعض ما كسبوا من مال يتمتعون به متعة حلالية حيث نعموا به هم ومن حولهم من عباد الله المحتاجين .

وفي الآخرة سيوفهم الله جزاءهم غير نقوص ، فحصلوا بذلك خير الدنيا وخير الآخرة ، وما حسنة الدنيا التي طلبها هؤلاء إلا العيش الهنيء العزيز بنعمة للمال والولد والحرية ، وهل تكون حسنة الدنيا إلا هذا ؟ وقد استجاب الله لمؤلاء المعتدلين ووعدهم وعداً حسناً حين قال : « أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » .

فهذه الآيات لا تعرض إذن لقذات السعي والسكد والعمل لجمع المال وتحصيل القوت للنفس والعيال بدم وتقيص وحاشا أن يفعل الإسلام القوى هذا أو يرفضه ، ولكن الآيات كسابقتها تتحدث عن النيات والاتجاهات ، تعرض لنفسيات الناس . في كدهم وكدهم ، وتوفي كل اتجاه جزاءه ولا تظلم الناس شيئاً ثم تعلن ذلك في وضوح لتصلح من شأن النفسيات للرخصة ، وتوجهها الوجهة السليمة ، التي تؤهل صاحبها لاكتساب الحسنيين ، وماذا على العاقل الحصيف لو أصاب بعمله هدفين وحصل ثمنتين فجمع المال بسعيه في الدنيا ، وأتفق منه على المحتاجين فاكتسب النعمة والسعة الحسنة وحب الناس له في الدنيا . . وفي الآخرة ينتظره الجزاء للضعاف . . ولأجر الآخرة خير . .

وأحسن تطبيق لهذا المعنى الذي أريد تبليته وتوضيحه ما تحمده آية أخرى من القرآن الكريم عن جماعة من الصعابة الذين قاتلوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم في أحد يقول الله عنهم : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » فالذين أرادوا الدنيا ، هم الذين خالفوا أمر الرسول ، وتركوا أما كنهم جرياً وراء اللغائم يجمعونها ، أما الذين أرادوا الآخرة فهم الذين ثبتوا في أما كنهم ، يذاهبون

بأرواحهم عن الرسول وصحابه ، ويقاتلون دونهم حق للمات ، فإرادة الآخرة — وهذا هو شاهدنا في الآية — لم تكن كسلا وعجزا ، ولكنها كانت تمثل في قتال عنيف تطيح فيه الرؤوس وترهق فيه الأرواح ، قتال يحقق للسلمين النصر والعزة والسيادة في هذه الحياة الدنيا كما يحقق لدينه الغلبة على أعدائه .

وهكذا تظهر روح الإسلام قوية في كل آية من آياته ، وتهوى على الكسالى للتبطلين الذين يظنون الإسلام عجزاً وكسلاً . وجدأعن التمتع بالحياة الدنيا وزينتها . فهل تقطن الأمة الإسلامية — وهي الآن لقمة سائقة للدول الأجنبية —

هل تقطن إلى نظرة الإسلام الصحيحة للحياة . وتعرف أن دينها يحتم عليها أن تكون هي السيطرة على مقومات الحياة فيها من كل نواحيها زراعية وتجارية وصناعية وحرية وعلمية ، فيكون في يد المسلمين مفتاح التوجيه والقيادة في كل مضمار ؟ ! هل تقطن الأمة الإسلامية إلى أن دينها هو دين الحياة القوية الطيبة دين يظر للمؤمن القوى نظرة أسمى وأجل من نظيرته للمؤمن الضعيف ، ويحترق اليد العليا خيراً من اليد السفلى ، ويفضل الثني الشاكر للتصرف في ماله تصرف الرجل الحصيف الذي يتنقى به ثواب الدنيا وثواب الآخرة ، يفضل هذا الرجل كثيراً على الفقير الصابر العاجز الذي لا يملك إلا الصبر على فقره وجوعه ، وهل تقع هذا العاجز أحداً كما فعل الثني الشاكر ؟ إن خير الناس أنفعهم للناس .

هل يفتن العلماء وللوجهون إلى هذا كله ، ويفهمون أن حياة الثني والتمتع بالدنيا تمتعاً طيباً ، خيراً ألف مرة من حياة الفقر والكد والحرمان ؟ ! هل يفهمون أن عزة الآخرة لا تكون إلا عن طريق عزة الدنيا ؟ . هل يفهمون هذا فيكفوا عن دعوة الناس إلى الخمود والكسل ، وإلى الزهد الفارغ والتبطل للعيب ؟ ويكفوا عن ذم الدنيا وعن تصوير السعي فيها تصويراً قبيحاً ، فإن للسلمين في أنحاء العالم الإسلامي في حاجة إلى أن يفهموا نظرة الإسلام الطيبة للدنيا ، وجهه للعمل ، والكد والكسح ، والسبق في مضمار الحياة ، وجمع المال من طريق شريف ، في حاجة إلى أن يفهموا حب الإسلام للثقة والعزة بالخلق والمال والسلاح . إن للسلمين الآن مرضى بضعف الأمة وقلة المال ، وجهل الصناعة . فبشوا في نفوسهم أيها العلماء وللوجهون روح القوة والثقة بالنفس وحب العلم والعمل ، قولوا لهم لو كان عندنا مال وعلم لسيطرنا على موارد الثروة في بلادنا

الغنية ، ولأنك أن نسيطر على العالم كله . . فكفانا ذلة وضعفاً ونوماً وخوراً  
هذه القرون الطويلة التي مرت بنا ، وقد تمكن فيها الأقوياء العاملون من السيطرة  
علينا ، واستزاف خيراتنا والتمتع بغير ما في بلادنا .

إن على الوجهين والربين للأمة الإسلامية تبعة عظيمة ، ومسئولية كبيرة  
في هذه الظروف التي تمر بنا الآن ، فإن ركب الحياة يسير ، وليس فيه مكان  
للقاعدين ، أو للبطيخ ، فعليهم أن ينغخوا في العملين روحاً جديدة ، أستغفر الله  
بل الروح الإسلامية الأصيلة التي بعثت العرب من عرقهم ، وجعلت منهم أمة  
تسيطر على العالم في فترة قصيرة من الزمان .

ورضى الله عن عمر بن الخطاب قد رأى جماعة من للتعطلين يدعون التوكل  
على الله فعلام بالدره وقال لهم : ما أنتم بمتوكلين ، إنما للتوكل من يزرع الحب ،  
ويقتظر الحصاد من الرب ، ورأى رجلاً يسير منكس الرأس ، فاعلم أنه بهذه  
الصورة يحقق معنى التدين والتواضع فعلاه بدرته وقال له : ارفع رأسك يا رجل  
لا تمت علينا ديننا أماتك الله . . نعم إنه دين العزة في داخل النفس ، وفي كل مظهر  
من مظاهر الحياة .

فليفهم المسلمون - إذن - دينهم جيداً ، وليستمدوا منه روح الحياة السعيدة ،  
وليتجهوا إلى العمل ، وإلى الدنيا بكل قواهم ، جاعلين شعارهم ودعائهم في جميع  
أحوالهم « ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .



## ٤ - علاقة المسلمين بغيرهم

قال الله تعالى :

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ  
أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ  
عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي  
قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ  
مِّنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ،  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ  
أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ  
اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .



( آخر سورة المجادلة )

هذه الآية ومثيلات لها في القرآن الكريم تحدد موقف المسلمين من أعدائهم  
الذين يحاربونهم ويكيدون لهم في كل مكان ، وترسم للجماعة الإسلامية طريق  
الحياة مع هؤلاء الخصوم .

ومن المعلوم أن الجماعة لا يكون لها كيان ، ولها هوية واحترام ، إذا لم تحدد  
موقفها من خصومها ، وتسد كل ثغرة بينها وبينهم ، وإذا لم تكن هي نفسها  
متعانية في حب نظامها ، يسودها روح التعاون والإخلاص ، وهذا هو الذي أخذ الله

به المسلمين في بدء تكوين جماعتهم ودولتهم ، ليخلصهم من أدران العلاقات القديمة ، ويجعل لهم طابعاً خاصاً وقومية خاصة ، فقد كانوا قطرات في بحر خضم من الشرك والفاق ، يحيط بهم الأعداء من كل مكان ، وهم الفئة المؤمنة المخلصة ، فكانوا كالواحة الخضراء الوارفة الظلال ، التي تنبض بالحياة والنضرة ، في وسط الصحراء الميتة ، التي تنتج الجذب وتنفع النار ، وكان لأفراد هذه الجماعة قبل أن تتوحد على الإسلام صلات قرابة ومودة بمن حولهم بمن آثر البقاء على شركه ، فلو ترك الباب مفتوحاً لهذه المودات تأخذ طريقها في ظل النظام الجديد ، كما كانت قديماً ، لمخل الخطر منها على الجماعة الإسلامية الناشئة ، ولنبيت القلة المؤمنة في الكثرة الكافرة ، فكان لابد إذن من تحديد الموقف بين هذه الجماعة وبين أقوام بدت البضياء من أفواههم وما تحفى صدورهم أكبر ، أقوام هاجموا المسلمين وكلدوا يقضون عليهم ، حين أخذوا يصادرون حريتهم ، ويحولون بينهم وبين خدمة دعوتهم ، وفي تحديد هذا الموقف أنزل الله هذه الآية وآيات أخرى تشابهها .

والذي يروحك من جمال النظم في الآية أنه سلك في التعبير طريقاً بالآ في التأثير على النفوس : فبدلاً من أن يأمر أو ينهى آى بما يريد من المؤمنين في صورة الوصف لهم كأن ذلك شيء مقطوع به بالنظر للمؤمنين الصادقين ، ووصف لازم هؤلاء الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر .

واقه بهذا التوجيه الكريم يرتفع بالعلاقة الروحية بين المسلمين ، فوق كل العلاقات الأخرى بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه فيهدر علاقة الدم هذه في سبيل الإبقاء على علاقة الإيمان بين المؤمنين لأنها العلاقة الروحية التي تسمو دائماً فوق كل العلاقات للمادية .

وإذا شئت أن تدرك هذا المعنى واضحاً جلياً فاقراً معنى هاتين الآيتين من سورة التوبة ، بوجه الله فيهما الخطاب للمؤمنين ليرتفع بهم إلى سماء الإيمان ، بدل أن يتعلقوا بالأرض ، وليصنى نفوسهم من كل شيء إلا من حب الله ورسوله ، وبريهم على الإخلاص والتفاني في سبيل عقيدتهم ، وعلى التضحية مهما كانت غالية قاسية ، سواء كانت تضحية بالمال ، أو عواطف القربات ، أو حب الديار للتخلل في القلوب — اقرأ معنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترنتموها وتجارة نخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) (١).

تجد في هاتين الآيتين أن الله يدفع للؤمنين دفعا إلى التحزب والتعصب لإيمانهم ، ويضع الحد الفاصل بين من يحبه للؤمن ومن لا يحبه ، كما تجد يشتد في الخطاب ، ويهدد وتوعد هؤلاء الذين يخلدون إلى الأرض ويتبعون هواهم ، ويضعون مالم أقراباتهم فوق عقيدتهم وحبهم لجماعتهم المؤمنة .

وبجانب هذا تجد آية أخرى تطارد هؤلاء الذين يعيشون بين إخوانهم المسلمين طابورا خامسا لأعدائهم فيتجسسون على جماعتهم ويتربصون لأعدائهم بإذاعة أسرار المسلمين إليهم وكشف خططهم ونواياهم .

اقرأ معي أول سورة المتحنة التي نزلت لأن واحداً من المسلمين عمل على إذاعة الخطط التي وضعها الرسول سرا لفتح مكة .

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا في سبيل وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ) ثم يحرض الله المؤمنين على الامتنال ، ويهيجهم على شدة العدا بأمور مادية يحسونها في الدنيا ، حين يصور لهم ما يقع عليهم من إنداء ، لو ظفر بهم خصومهم فيقول غلبنا

(إن يفتقوكم يكونوا لكم أعداء ويمسوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا) ثم ينتقل إلى شيء أهم من ذلك ، يخوفهم به حين يوالون أعداءهم لمنفعة يرجونها ( لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ) فيضع أمامهم عقاب الآخرة بجانب إبداء الدنيا .

أوجدت أقوى من هذا في زجر المسلم عن إذاعة أسرار المسلمين للأعداء ، وعن اتخاذهم أجباً وأنصاراً وأولياء ( لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير ) والنتيجة التي أرادها الله هنا ليس المراد منها أنها تلك التي تصل إلى حد أن تدفع بالمسلم إلى الإخلاص لعدوه ، واتخاذ ولياً يعاونه على إخوانه المسلمين ، إنما المراد بها اللودة الظاهرة التي لا تجلب على المسلمين ضرراً أو هزيمة ، حين يضطر المسلم إلى هذا التظاهر مع أعدائه .

ولا أحب أن يلتبس الأمر على بعض القراء فيظنوا أن الإسلام يأمر بمعاداة غير المسلم أي كان موقفه من المسلمين ، لأن الإسلام فرق في معاملة غير المسلم تبعاً لمعاملته هو للمسلمين وموقفه من الإسلام .

والأصل في ذلك قوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتسخطوا إليهم إن الله يحب للقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (١) .

وليس معنى للسلمة لأية دولة غير مسلمة أن نرمي في أحضانها ، وتتيح لها الاطلاع على أسرارنا ، فإن ذلك قد يكون من أخطر الأمور على حياتنا

ومصلحتنا ، إذ أن مسلم اليوم قد يتقلب غداً إلى عدو محارب ، والحكمة تقتضى مراعاة هذه الناحية .

فلربما اقلب الصديق فكان أعلم بالضرورة

والإسلام بذلك لا يقرر أمراً غير عاды ، ولكنه يقرر ما يوحى به العقل السليم ، والحكمة السديدة ، وما تستوحيه الدول في علاقاتها بعضها ببعض ، حتى الدول للتصادقة المتعاقبة .

وقد رأينا الولايات المتحدة تصر على الاحتفاظ بأسرار القنبلة الذرية حتى على أصدقائها وحلفائها فإذا كان الإسلام يوصى للمسلمين ألا يرتعوا في أحضان دولة غير إسلامية ولو كانت مسالمة ، ويتخذوها موضع سرهم ، ويطلعوها على خططهم ، ويؤثروا مصالحها على مصالحهم ، فإنه لا يمكن ربه بالتعصب أو اهدار الآخرين ، لأنه بذلك يحافظ على الحقوق الطبيعية للدولة الإسلامية ، ويضع من الضمانات ما يكفل لها القوة والنصر ، والاحتفاظ بعزتها وسيادتها وفي الوقت الذى نجد الإسلام فيه يشدد في هذه الناحية الهامة في حياة المسلمين نجد — كما سبق أن قلت — يفرق في معاملة المسلمين لغيرهم تبعاً لموقفهم هم من المسلمين .

فمنهم المحاربون المعتدون ، وهؤلاء ليس لهم عند السلم إلا أن يقابل عداءهم بعداء أشد منه غضبا لله ولكرامته «إنما ينهاكم الله عن الدين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم» «وقاتلوا للذين كفروا كما يقاتلونكم كافة» .

ومنهم السالمون الذين لا يقدمون على إيذاء المسلمين أو التعرض لحريتهم ، ولا يمانون أحدا عليهم ، ويريدون تبادل للنافع معهم ، وهؤلاء لهم معاملة خاصة من جنس معاملتهم أفضت عنها هذه الآية ( لا ينهاكم الله عن الدين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتسقطوا إليهم إن الله يحب للقسطين ) .

وقد جاءت هذه الآية من سورة المتعنة بعد آيات أعلنت على أعداء الله حرباً شعواء ، وعداوة سافرة ، وذكر في مناسبتها بما قبلها أن المسلمين ربما دفعتم الآيات السابقة إلى عداة غير السلم أي كان موقفه فجاءت هذه الآية تحد من هذا الاندفاع ، وتوجههم إلى ما يليق من معاملة الدين لا يستيئون إليهم ، مقابلة للحسنة بالحسنة ، وهذا هو الذي يتفق مع الخلق الكريم الذي جاء به الإسلام ، كما يتفق مع مبادئ العدل الذي يحرس عليه ، فأناس لا يؤذونك ولا يماونون أحداً عليك . . كيف تؤذيهم ؟ ! ولو طلبت منهم شيئاً أعادوك إليهم ، فكيف تمنعهم شيئاً وتقاطعهم ؟ ! وهم يماونونك في السراء والضراء فكيف تجابههم بالعداء ؟ ! أناس قامت العلاقة من جانبهم على المجاملة والمودعة ، فكيف تجملها من جهتك غلظة ومقاطعة ؟ !

إن الإسلام في هذه الحالة يتدخل ويوصي أتباعه بحسن الخلق ، وكرم العامة ، وعدم الشذوذ ، فليس أتباعه أقل خلقاً من هؤلاء ؟ ! وحرص الإسلام على كرم الخلق وحسن للعامة هو الأساس الأول في قوانينه والهدف الأسمى من تعاليمه .

ولذا أوصت الآية يرهؤلاء المسلمين ، ومعاملتهم بالعدل ، وأعلنت في آخرها الرضا والثواب من الله لمن يتحرى ذلك معهم ( إن الله يحب للمتقنين ) .

ويقول الله في سورة النساء بعد آيات أمرت المسلمين بقتل أعدائهم المحاربين :  
 ( إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم )  
 ( أى ضاقت وامتنعت ) أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلاً ) فالآية في المعاهدين الذين بينهم وبين المسلمين عهد ، أو من يتجهى إليهم ، ويدخل في ميثاقهم ، وكذلك الواقفين على الحياد بين المسلمين وأعدائهم ، فليس لنا أن تؤذيهم ونحاربهم ، بل علينا أن نحسن معاملتهم ونسلمهم ، كما سلمونا

وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حبيبه يوم القيامة » وبهذا يتبين جلياً نظرية الإسلام في معاملة المسلمين لغيرهم : —

١ — فهو لا يرضى لهم أن يتخذوا من غيرهم أولياء يلقون إليهم بأسرارهم ، حتى لا يستفيدوا من ذلك إذا اهلبوا علينا ، وقامت بيننا وبينهم حرب في يوم من الأيام .

٢ — ويوجب عليهم أن يقفوا صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص في وجه من حاربهم في دينهم أو في مصلحة من مصالحهم ، وللمسلمون أمة واحدة مهما اختلفت ديارهم ، وبلادهم وطن واحد لم جميعاً .

٣ — ولكنه يوصيه بإحسان المعاملة لمن أحسن معاملتهم ، ولم يتعرض لدعوتهم أو لمصالحهم ، ولم يمن عليهم أحداً من أعدائهم .

٤ — والإسلام مع هذا لا يمنع المسلمين أن يستعينوا بغيرهم — بمن يأنسون فيهم للمسالة — في أعمال الدولة ، ويستفيدوا بما عندهم من حرف وصناعات ، فقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم أحد اليهود في الكتابة ، حتى قامت حرب بينه وبينهم فلم يأتئنه واستغنى عنه ، ثم قام زيد بن ثابت رضي الله عنه بتعلم لغته ، ليحل محله ، فتعلمها في زمن وجيز ، واستعان الخلفاء كذلك بغير المسلمين في بعض الأعمال . لمصلحة الدولة الإسلامية — هذا هو ما توحيه الآيات وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم .

بقى أن أشير هنا إلى آراء الباحثين في الأساس الذي تبنى عليه الدولة الإسلامية سياستها الخارجية مع غير المسلمين .

وقد ذهب هؤلاء الباحثون مذهبين في رسم هذه السياسة :

١ — فجاعة منهم رأوا أن للمسلمين متى بلغوا الدعوة الإسلامية بوضوح وجلالة ، ثم لم تقبل منهم ، ولم يدخل للدعوى في دين الله ، كان ذلك منهم إصراراً على باطلهم ، وإيذاناً بحرب للمسلمين الذين يمثلون هذه الدعوة وعلى هذا يجب علينا أن نقاتلهم ، لنسوقهم إلى الحق قسراً بعد أن لم يأتوا إليه مذعنين .

وقد عزز هؤلاء وجهة نظرهم بآيات عامة في القرآن تحت طي القتال . منها « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة »<sup>(١)</sup> وقوله تعالى « وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »<sup>(٢)</sup> وقوله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » — ويأخذون من هذه الأدلة ومثيلاتها في القرآن والحديث أن القتال إنما يهدف منه إلى إحياء الإسلام إلى الناس . وأن غير المسلم إن لم يؤمن بعد عرض الإسلام عليه عرضاً واضحاً وجب قتاله لأن مجرد الامتناع عن قبول الإسلام بعد وضوح الحجة يعتبر موقفاً عدائياً منه يبرر قتاله .

وعلى هذا الأساس وبمقتضاء كانت في نظرهم كل آية في القرآن تدعو إلى السلم والتجارة ، وتدعو إلى العفو وإلى الدعوة والمجادلة بالتي هي أحسن منسوخة حتى بلغت الآيات للمنسوخة من القرآن على رأيهم ما يقرب من مائة وعشرين آية فقوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » منسوخة وقوله « الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » منسوخة وقوله « إن عليك إلا البلاغ » « ما على الرسول إلا البلاغ » ، « لست عليهم بمسيطر » كل هذه الآيات منسوخة وهكذا ١١

٢ — أما النظرية الثانية فيرى أصحابها أن أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو السلام ، ما لم يطرأ ما يدعو إلى تغييره ، وإعلان الحرب عليهم ، فالإسلام لا يجوز قتل الإنسان وإهدار دمه وماله ، لمجرد أنه لا يدين به ، كما لا يجوز مطلقاً أن يتخذ المسلمون القوة من سبل الدعوة إلى دينهم ، إذ أن الأديان وكل الأفكار مدارها على الاقتناع الداخلي ، لا على الخضوع الظاهري ، فالطريق إلى القلب إنما هو الدليل للفتح ، لا القوة المهيبة القاهرة ، وهذا هو الذي يتفق مع منطق القرآن « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » فعلى المسلمين أن

(١) سورة النساء : ٧٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٣ .



يسلكوا في إيصال دعوة الإسلام إلى الناس طريق الحجة والبرهان ، والمجادلة  
بالحق هي أحسن .

أما القوة فلا نلجأ إليها إلا إذا حصل إعتداء على المسلمين ، أو وقف أناس  
في طريق البعثة ، وحالوا بينهم وبين حرية الدعوة ، فنحاربهم حينئذ لا ليلسوا ،  
بل ليزكروا عدوانهم ، ويكفوا عن وضع العراقيل في طريق البعثة ، ويخلوا بيننا  
وبين عقول الناس فنحن نقاتلهم حينئذ « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »  
أى حتى لا تحول القوة بين الإسلام وقلوب الناس ، ويصبح الدين لله ، لا يقف  
أحد في طريقه ، أو يستعمل القوة ليحول بينه وبين الناس . وقد بنى هذا الفريق  
نظريته على أسس من القرآن نفسه ، فالآيات التي أمرت بالقتال جاءت تحمل معها  
سبب الأمر به ، قال تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » « وقاتلوا في سبيل  
الله الذين يقاتلونكم ، ولا تتعدوا إن الله لا يحب للعتدين ، وقاتلوا » أى  
هؤلاء الذين يقاتلونكم « حيث تفتنهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم »  
« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » ، والآيات التي تأتي في ظاهرها  
آمرة بالقتال ، دون أن تملأ هذا الأمر ، يمكن حملها على الآيات الأخرى للينة  
للسبب ، وإذا أضفنا إلى هذا ما يعتمدون عليه من نصوص القرآن نفسه ، مثل  
قوله تعالى « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » حيث ينفي بصورة  
طبيعية أن يكون الإكراه وسيلة من وسائل غرس الدين في القلوب ، إذ أن هذا  
غير ممكن إطلاقاً . فما كانت القوة لتجبر القلوب في يوم من الأيام على قبول شيء  
معين ، لأنها طريق غير موصل للاقتناع ، بل ربما كانت من أشد العوامل تنفيراً  
من هذا الشيء وصدا عنه ، فالقوة ليست لها سيطرة إلا على الظواهر والجواس ،  
كالأيدي والأرجل واللسان ، فهذه من الممكن أن تتحرك كما تهوى القوة وتجب  
ولكن القلب يظل بآمن من أى ضغط ، ولا تستطيع القوة ولو تجمعت من  
أطراف الدنيا كلها ، أن تجبر مخلوقاً ضعيفاً تافهاً أن يحب من يكره ، أو يكره من  
يحب ، وصدق الله العظيم « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم  
ولكن الله ألفت بينهم إنه عزيز حكيم » ويزيد أصحاب هذا الرأي على النص المتقدم  
أكتافاً جاء من نصوص أخرى بشأن الدين لا يقاتلون للمسلمين ولا يؤذونهم ،

ولا يترضون دعائهم ، مثل قوله تعالى « فَإِنْ اعْتَذَلْتُمْ فَلَمْ يَقَاتِلْكُمْ وَأَقْبُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَيْلًا » وقوله تعالى « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » (١) وقوله تعالى في سورة للمتعة المدنية كذلك « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَاسِطِينَ » .

أما الحديث ( أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . . الخ ) فقد قال الإمام ابن تيمية فيه : ( ليس المراد أني أمرت أن أقاتل كل أحد إلى هذه الغاية ، فإن هذا خلاف النص والإجماع فإنه لم يفعل هذا قط ، بل كانت سيرته أن من سألته لم يقاتله ) على أنه يمكن أن تقول ، إن الناس هنا هم للمشركون المحاربون ، إذ أن فعل الرسول كما جاء في النصوص الأخرى يستدعي هذا التخصيص ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتعرض لكثير من المشركين متى سألوه .

وهذا الرأي الأخير أعنى القائل بأن الحرب للدفاع عن الدعوة ضد المعتدين عليها ، هو الرأي للعقول القبول ، فليس مما يشرف الدعوة الإسلامية أو أية دعوة أخرى أن تتخذ القوة وسيلة لنشرها ، وإرغام الناس على قبولها . . . وهو الرأي الذي تتفق معه نظرة علماء القانون الدولي في الأساس الذي تبني الدولة عليه علاقاتها بعضها ببعض ، وهو الرأي الذي يرى ابن تيمية فيه أنه « هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار » .

ويقول الأستاذ المحرم الإمام الشيخ محمد عبده (٢) في تفسير آيات ( وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم . . . الآيات ) بعد كلام طويل يؤيد به وجهة النظر الثانية « قتال النبي صلى الله عليه وسلم كله كان مدافعة عن الحق وأهله ، وحماية لدعوة الحق ولذلك كان تقديم الدعوة شرطاً لجواز القتال ، وإنما تكون

(١) سورة الأفعال : ٦١ .

(٢) ج ٢ ص ٢١٥ مطبعة أولى .

الدعوة بالحجة والبرهان لا بالسيف والسنان ، فإذا منعنا من الدعوة بالقوة ، بأن هدد الداعي ، أو قتل ، فعلينا أن نقاتل لحماية الدعاة ونشر الدعوة ، لا للأكراه على الدين . . . وإذا لم يوجد من يمنع الدعوة ويؤذى الدعاة ، أو يقتلهم أو يهدد الأمن ، ويستدئ على المؤمنين فآله تعالى لا يفرض علينا القتال لأجل سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، ولا لأجل الطمع في الكسب . . . وبما قررناه بطل ما يزعمه بعضهم من أن الإسلام قام بالسيف ، وقول الجاهلين للتحصين ، إنه ليس ديناً إلهياً لأن الله الرحيم لا يأمر بسفك الدماء ، وإن العقائد الإسلامية خطر على الدنية — فكل ذلك باطل ، والإسلام هو الرحمة العامة للعالمين » .

وأعتقد أنه بذلك قد وضع الراى القوى فى الرايين السابقين وهو كما قلت - الراى للمقول ، للقبول ، وقد بقى علينا أن نطبق هذه النظرية الإسلامية فى السياسة الخارجية على الدول غير الإسلامية وموقفها من الأمة الإسلامية الآن : إن الإسلام يعتبر للمسلمين جميعاً إخوة وأمة واحدة ، مهما تباعدت ديارهم ، واختلعت أجناسهم وألوانهم ، ويعتبر ديارهم للعددة وطناً واحداً متماسكاً ، وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول إن الاعتداء على أى بلد من بلاد المسلمين شرقاً أو غرباً شمالاً أو جنوباً ، يعتبر إعتداء على الوطن الإسلامى كله ، وكل دولة تعترف هذا الاعتداء تعتبر دولة عداوة للمسلمين جميعاً فى نظر الإسلام ، دماؤها وأموالها مهددة ، وعلى للمسلمين أن يشدوا عليها بقوة ويعلموا عليها حرباً شعواء ، يشترك فيها كل مسلم قوى قادر على الحرب أو التجهيز لها ، وتوضع فيها كل إمكانيات العالم الإسلامى تحت تصرف الجيش المسلم الذى يدافع عن كرامة الإسلام والمسلمين ، فإذا كان بهم ضعف عن إعلان الحرب ومقاومة الجيش بالجيش ، فندمهم ميادين كثيرة ، يستطيعون فيها أن يضيخوا أعداءهم ، ويرغمهم على التساللة والجللاء عن أراضيهم ، عندم الميادين الاقتصادية والصناعية ، وعدم التعاون مع قواتهم المهتة ، يستطيع المسلمون - متى حزموا أمرهم وجمعوا شملهم - أن يرغموا أنف أى مستعمر على مسالمتهم ، وخطب ودم ، إن استعملوا هذه الأسلحة السلمية .

وقد يهول القارئ أن يقف للسُّلون وهم ضاعف أمام هذه الدول كلها ، وهي صاحبة الحول والطول ، ويشفق على المسلمين من هذا العداء ، لاسيما وهم في حاجة إلى صناعاتهم . .

وإني أقول لهؤلاء للشفقين كفوا عن هذا الإشفاق ، فاتم قوة تهرب لو اتحدتم ، فاعملوا على إيقاظ روح المحبة والتضامن بينكم أولا ، ثم قفوا في الخطوط صفا واحدا ، ثم انظروا أثر هذا في نفوس أعدائكم وسترون ألا داعي لهذا الإشفاق ، فهذه الكتلة الهائلة التي يربطها رباط من صنع الله ، وهم أكثر من أربعمائة مليون مسلم تستطيع أن تفعل الأعاجيب لو أنها تساندت ، واستل قادتها روح الإسلام فيها ، وربطوا مصالحهم بعضها ببعض ، فلو تجمع أربعمائة مليون بعوضة على جيش ضخم لمزته وأقضت ضججه .

واليب الذي نراه الآن في المسلمين هو ضعف الروح الإسلامية فيهم ، وبهه ضعف الرابطة الإسلامية وضعف الشعور للشرک ، ثم عكوف كل جماعة منهم على مصالحهم ، بغض النظر عن مصالح أو مصائب الآخرين ، وبذلك استطاع للتعمررون أن يجهزوا علينا جماعة بعد جماعة ، حتى وقفنا كلنا فريسة سهلة مستساعة في أيديهم . ثم لم نستطع بعد الوقوع في الخطر أن نفيق وتربط ونصل بينما ما انقطع ، لنقوم من كبوتنا ، ونسترجع عزتنا ومجدنا .

ولكن مما يبعث الأمل في النفوس أن الروح الإسلامية ، قد بدأت تدب في النفوس لتحي ميتها ، وأخذ العالم الإسلامي يشعر بنوع من التعاطف والرغبة في المساعدة ، وإن كان لا يزال ذلك في نطاق محدود ، إلا أنه على كل حال بشير خير في المستقبل إن شاء الله ، وبقي على المسلمين في كل مكان أن يشعروا أنه لا نهضة لهم ولا يقظة إلا عن طريق واحد ، هو إحياء الشعور الديني ، وتقوية الروح الإسلامية في النفوس ، وذلك بالتربية الدينية الواعية ، فهي أولى من الانجاء إلى إثارة الروح القومية الخاصة بكل دولة من دولهم إذ أنها لا تثنى كثيرا ، فإن مجد البلاد الإسلامية كلها في مجد الإسلام قديما وحديثا .

فليتجهوا إذن إن كانوا طلاب مجد وعزة إلى هذا الطريق مستعينين بما وهبهم

الله من ذخيرة ربانية ، في توحيد الكلمة ، وجمع الصفوف ، وتحطيم القيود  
والصعود إلى القمة ، حيث المزة التي كتبها الله للمؤمنين .

نعم : فليتهجوا وليستمعوا جميعاً إلى خطاب الله لهم : « ولا تهنوا ولا تعزنوا  
وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين<sup>(١)</sup> » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٩ .



## ٥ - رمضان ونزول القرآن

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ  
الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ  
مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ »

( من آية ١٨٥ سورة البقرة )



جعل الله الأيام كالإنسان منها شقي وسعيد ، فمنها أيام فاصلة في تاريخ الفرد والجماعة ، ومن أجل هذا ينظر الإنسان إليها نظرة خاصة ، تتفق في جلالها وعظمتها مع عظمة الأحداث التي وقعت فيها ، وقد ميز الله بعض الشهور وجعل لها أسبقية في الفضل على بعض ، فجعل منها أربعة حرماً ، حرم فيها على العرب سفك الدماء ، وأوجب عليهم فيها الخلود إلى الأمن والاطمئنان ، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ثم خص من الشهور الباقية شهراً بالتكريم والتفضيل، وهو شهر رمضان، الذي بقي وميقتي فضله ما بقيت السموات والأرض. فإذا بحثنا عن مكانة الشهور العربية في نفوس العرب قبل الإسلام ، وجدنا لمكانة رمضان في الإسلام جذوراً قديمة في الجاهلية ، فقد كان العرب يستظلمون رمضان ، ويتعشون فيه ، وقد قرأنا في سيرة الرسول قبل بثت أنه كان يتحرى أيام رمضان من كل عام ، فيترود ، ويخرج من مكة وضواؤها ، ليتعب « في غار حراء » على رأس الجبل بعيداً عن مشاغل الحياة ، حيث يتاح له التأمل الهادئ في ملكوت السموات والأرض، وقد جاءه الوحي وهو يتعب بغار حراء في شهر رمضان ، حيث نزل عليه بأول آية من القرآن : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » ويقول صاحب كتاب الفكر السامي تعليقاً على مكانة رمضان في نفوس

العرب قبل الإسلام : « ولعل ذلك كان من بقايا شريعة إسماعيل وأبيه ، فجاء الإسلام بما زاده وبينه من شرائعه » ويقول العلامة الزمخشري في كشفه : « فإن قلت : لمسمى « شهر رمضان » ؟ قلت : الصوم فيه عبادة قديمة فكأنهم سموه بذلك لارتعاضهم فيه من حر الجوع ومقاساة شدته » .

وكان تعظيم رمضان في الإسلام بالصيام فيه تجديد لمظلمته ومكاته قبل الإسلام ، وقد روت لنا الكتب عن عظمت هذه قبل الإسلام الشيء الكثير ، أحب أن أقول بعضاً للقراء ، وليس معنى ذلك أني ألزم صحة ما جاء فيها ، ولكن أدريها هنا لأعطي القارئ فكرة عما قيل عن هذه للكانة ، التي امتاز بها شهر رمضان من بين الشهور ، وما قيل في هذا أحاديث رواها الإمام أحمد ، فقد جاء في الاتفاق للسيوطي : قال ابن حجر في شرح البخاري : قد خرج أحمد والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاثة عشرة منه ، والزبور لثمانى عشرة خلت منه ، والقرآن لأربع وعشرين خلت منه ، وفي رواية ومحف إبراهيم لأول ليلة . ويضفي هذا الحديث — لو صح — على شهر رمضان مكانة قديمة . ويجعل له خصوصية عظيمة لم يحظ بها شهر آخر من الشهور ، فإن اختيار الله له لينزل فيه كتبه ، ويشع فيه على الأرض نوره وهدايته ، لمو أمر عظيم يلفت النظر ويسترعى الاهتمام .

ولست أريد بهذا أن أستمد عظمة هذا الشهر عندنا بما كان له قديماً عند العرب : أو من خصوصيته بإزالة الكتب السابقة فيه ، فإن الحديث الذي يرويه لنا الإمام أحمد في هذا يقول عنه الشيخ محمد عبده في تفسيره للنار (١) : « ولم يصح من هذه الأقوال والروايات شيء » كما يقول التعليق على هذا الكلام بأسفل الصفحة فيها حديث واثلة ، مرفوعاً عند أحمد وابن جرير وغيرهما وهو غير صحيح ، ومن أجل هذا لا أحب أن أستند على هذا الحديث في تعظيم شهر رمضان ، وكفاني سنداً في ذلك صريح القرآن : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » فقد ميزه الله على كل الشهور بما يميز به محمداً على كل المرسلين ، وهو القرآن الكريم ، الذي نزل فيه ، والذي جعله الله مصدر سعادة ورحمة ومناعة وقوة ، لكل من اهتدى بهديه وخضع لتوجيهاته .



وبودي أن أقف مع القارىء قليلا لنبحث معاً معنى إنزال القرآن فيه .

لقد ورد في تحديد زمان نزول القرآن ثلاث آيات : الأولى تحدد زمنه شهر رمضان ، وقد تقدم ذكرها ، والثانية تحدد زمنه ليلة مباركة وهي من آيات سورة البقرة : ( حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة ) ، والثالثة تحدد زمن نزوله ، كذلك ليلة القدر : ( إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر . . السورة ) وليس هناك تضارب بين هذه الآيات ، فالليلة المباركة وليلة القدر واحدة ، وهي إحدى ليالي شهر رمضان . فشكل تعبير من هذه التعبيرات موافق للحقيقة للقررة ، وهذا مشاهد ملموس فيما تعلمه بيتنا ، فقد نذكر تاريخ العمل بالسنة ، وقد نذكره بالشهر أو اليوم : فلا غرابة إذن في مفهوم هذه الآيات الثلاث .

لكن يبقى علينا أن نوفق بين ما تفيد هذه الآيات من نزول القرآن في ليلة القدر المباركة ، من شهر رمضان ، وبين ما ينطق به الواقع الذي لا شك فيه ، من نزول القرآن في أكثر من عشرين سنة ؟ ! .

لقد رأينا للسلمين السابقين في العهد الإسلامي الأول يحثون عن التوفيق بين هذا وذلك ، ويتجهون إلى العلماء بالقرآن ونزوله ، ينتظرون منهم الجواب . فقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سأله عطية بن الأسود فقال : أوقع في قلبي الشك قوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » وقوله : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » وهذا أنزل في شوال وفي ذى القعدة وفي ذى الحجة وفي الحرم وصفه وريبع ؟ ! قال ابن عباس : « إنه نزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا في الشهور والأيام ، أى مفرقا ومدرجا بعضه وراء بعض مثل مواقع النجوم » .

وقد روى عن ابن عباس أيضاً أنه قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة ، وفي رواية عنه إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، وهي أقرب السموات إلى الأرض ، وهذه الأحاديث كلها أحاديث مروية عن ابن عباس ، موقوفة عليه وهي — تنهّب كما يتبين

منها — في التوفيق إلى أن الآيات لا تتحدث عن نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن تتحدث عن نزوله من الفوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، وعلى هذا لا تعارض بين الآيات وبين الواقع .

ولكن هل ارتضى العلماء جميعا هذا الرأي من ابن عباس ، ووقفوا عنده . كلا : لأن هناك آراء أخرى أكتفى هنا بواحد منها مروى عن الشعبي ، ويتجه هذا الرأي إلى اعتبار أن القرآن حين يتحدث عن وقت نزوله إنما يتحدث عن بدء النزول على الرسول لا عن نزوله كله ، ومن العلوم أن أول آية نزلت من القرآن نزلت على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو يتعد في غار حراء في شهر رمضان ، وهذا ثابت صحيح ، فيمكن — إذن — تنزيل الآيات الثلاث وتفسيرها بهذا الحديث الصحيح للتحقق عليه ، ويكون معنى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن — أي بدى إنزال القرآن فيه ، ولا غرابة في أن يؤرخ القرآن زمن نزوله زمن البدء فيه ، فإن الإنسان الذي نزل القرآن يغاطبه ، يسير على هذا التهج في تاريخ الحوادث والأعمال ، فيقول مثلا « بنى الجامع الأزهر في سنة ٣٥٩ هـ مع أنه لم يتم بناؤه إلا في سنة ٣٦١ هـ ولكن للمؤرخين اعتبروا تاريخ البدء هو تاريخ قيامه ، وهكذا في كل عمل يستغرق سنين يؤرخونه غالبا بتاريخ الشروع فيه . وليس هذا النوع في تاريخ الأعمال عبثا أو كذبا ، ولكنه يتعشى مع الواقع ، فإن البدء بالأعمال هو أهم مرحلة فيها ، من حيث إخراج للشروع من حيز الفكر إلى مجال العمل ، ومن هنا نحتفل بالشروع في الأعمال حين نضع الحجر الأساس لها بحضور رئيس الدولة .

وعلى هذا الأساس يزول الإشكال : لأن القرآن إنما تعرض لتاريخ البدء فقط ، وليس هناك مانع من أن يستمر نزوله بعد ذلك أياما ، وسنين كما حدث بالفعل ، وهذا الرأي هو الذي ارتضاه الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره لهذه الآية فقال :

« وأما معنى إنزال القرآن في رمضان ، مع أن المعروف باليقين أن القرآن نزل منجما متفرقا في مدة البعثة كلها ، فهو أن ابتداء نزوله كان في رمضان ، وذلك في ليلة منه ، سميت ليلة القدر ، أي الشرف ، والليلة للباركة في آية أخرى ،

وهذا المعنى ظاهر لا إشكال فيه ، على أن لفظ القرآن يطلق على هذا الكتاب كله ، ويطلق على بعضه ، وقد ظن الذين تعدوا للتفسير منذ عصر الرواية أن الآية مشكلة ورووا في حل الإشكال ، أن القرآن نزل في ليلة القدر من رمضان إلى مساء الدنيا ، وكان في اللوح المحفوظ ، فوق سبع سموات ثم نزل على النبي منجما ، وظاهر قولهم هذا أنه لم ينزل على النبي في رمضان منه شيء ، خلافا لظاهر الآيات ، ولا تظهر اللمة علينا ، ولا الحكمة في جعل رمضان شهر الصوم على قولهم هذا ، لأن وجود القرآن في مساء الدنيا ، كوجوده في غيرها من السموات واللووح المحفوظ ، من حيث أنه لم يكن هداية لنا ، ولا تظهر لنا فائدة في هذا الإنزال ، ولا في الإخبار به ، وقد زادوا على هذا روايات في كون جميع الكعب السماوية ، أنزلت في رمضان ، كما قالوا إن الأمم السابغة كلفت بصيام رمضان ، ولم يصح من هذه الأقوال والروايات شيء ، وإنما هي حراش أضافوها لتعظيم رمضان ، ولا حاجة لنا بها ، إذ يكفي أن الله تعالى أنزل فيه هدايتنا ، وجهه من شأمر ديننا ، ومواسم عبادتنا .

وترى من هذا كيف يتعصب الشيخ محمد عبده لما قاله الشعبي من قديم ، ويرد القول الوارد عن ابن عباس ..

والذي يميل إليه العقل ، وتطمئن له النفس هو قول الشعبي والشيخ عبده ، فإن الروايات الصحيحة المتفق عليها ، تؤيد بدء إنزاله في رمضان ، كما أن العادة جرت بين المؤرخين وغيرهم من العقلاء ، بجعل تاريخ بدء العمل تاريخا له ، كما سبق تقرر ذلك ، وإذا كنا دائما نخلد ذكرى الأيام التي يتحقق لنا فيها خير ، أو تبدأ لنا فيها نهضة ، فنهب جميعا للاحتفال بها ذاكرين فضل الله علينا فيها ، ومعبدين الآثار التي انبثت من أحداثها ، مجددين العزم على الاستمسك بها ، والعمل بالمحافظة عليها ، متخذين هذه الأيام الفاصلة عيدا ، نرف فيه الخير والبشر إلى قنفوس ، فيكثر التبرع فيها للفقراء والمساكين ، والفوق عن كثير من اللذنين ، حتى يعم خير هذا اليوم ، ويشعر فيه الجميع بالبشر والفرح ، إذا كنا نحن الضعفاء العاجزين نقدر هكذا مثل هذه الأيام ، فلأن يقدر الخالق القدير أياما من أيامه شمع فيها الخير والنور ، وغمر أجزاء العالم فيها ، أولى وأفضل وهكذا كان .

فلقد كرم الله الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن ، وقدرها حق قدرها ، وجعلها خيراً من ألف شهر ، بل من آلاف الشهور ، فإن الشهور والسنين التي تمر على الإنسانية ، دون أن يحدث فيها خير ، أو يهديها إلى أفضل الطرق في حياتها ، لم ي شهور وصنون مئة ، لا حراك فيها ، وإن اليوم الذي تتم فيه نعمة يتق ما تلا أمام الانسان ، لا يحصى من ذهنه طوال الأعوام .

وليلة يبدأ فيها هذا الحدث التاريخي العظيم في تاريخ العرب والانسانية ، ويعت الله فيها عبداً من عباده رحمة للعالمين ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، يُلْذِن ربه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ، ليلة هذا شأنها ، هي عند الله والناس ، خير من آلاف الشهور ، فإن أثرها باق خالد ، ما بقيت هذه الحياة ، بل إن أثرها ليتمد إلى ما بعد هذه الحياة ، حيث الجنة الباقية ، التي يورثها الله عباده الاتقياء ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ومن أجل هذا احتفل الله بها ، وكرمها هذا التكريم ، ومماها ليلة القدر — أى الشرف — كما مماها الليلة المباركة ، وضاعف ثواب العمل فيها ، وجعلها أمناً وسلاماً ، وخصص لها سورة من القرآن ، ومدحها بهذا الأسلوب القوي في اللوح ، حيث يقول : بسم الله الرحمن الرحيم « إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل للملائكة والروح فيها يُلْذِن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر » .

ومن أجل هذا التحول الجديد في تاريخ الإنسانية ، في هذه الليلة ، كرم الله الشهر الذي تقع فيه من أجل تكريمها ، فكرم رمضان ، وكلف أمة القرآن عبادة من أفضل العبادات فيه ، وقربة من أكرم القربات إليه ، وهي الصوم ، الصوم طوال الشهر كله ، والصوم عبادة خالصة عنى الله بها ، وأضافها إلى نفسه ، دون بقية العبادات الأخرى ، حيث يقول جل وعلا في الحديث القدسي : ( كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزي به ، يترك طهارة وشرا به من أجلى ) .

فهل نذكر كلا أقبل علينا شهر رمضان هذه النعمة الكبرى الخالصة ، فنحي في أنفسنا مبادئها وتعاليمها ، ونشكر الله على ما أنعم به علينا ، ونرجع إلى ما أنزل الله ، وإلى الرسول في أمور حياتنا ، لاستعيد عجد المسلمين الأول . ونسعد في الدنيا والآخرة ونقوم حياتنا على تقوى من الله ورضوان ٢١١

## ٦ - الصَّيَامُ

قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ  
عَلَيْكُمْ الصَّيَامُ كَمَا كُتِبَ  
عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ  
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .



(سورة البقرة)

الصيام من التكاليف التهذيبية ، التي يراد بها تربية النفس ، وتقويم الروح ،  
وطبعها على الصبر والجلد ، والبر والعطف ، ومن أجل هذا كان عبادة مشتركة  
في الأديان السماوية . بل وفي الأديان الوضعية الوثنية ، التي ترمي إلى تربية الروح .  
وتعويدها قوة الاحتمال ، وأقدم ما عرف عن ذلك كان عن قدماء المصريين ،  
ثم انتقل إلى اليونان والرومان . ومن المعروف أن موسى عليه السلام كان يصوم  
وقد ذكر القسرون عند قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأعطيناهم بها بشرى »  
أنه صام مدة الثلاثين يوماً ، مقدمة لتحمل التوراة ، وفي آخرها أحسن تغيير  
رائحة فيه . فذكره مناجاة الله . وحمل التوراة على هذه الحالة ، فأزال رائحة  
فيه ، ولكن الله لم يرض عن ذلك ، فزاد عشرة يصومها ، فيتم الليقات أربعين —  
وكان ذلك من الله تذكيراً للصوم — وأرشدته إلى ألا يتغير رائحة فيه التي هي  
أطيب عند الله من رائحة للسك

واليهود أيام يصومون فيها ، متقربين بصيامهم إلى الله ، وقد قيل أن اليهود  
في المدينة أيام الرسول كانوا يصومون يوم عاشوراء ، فأحب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، أن يصوم تاسوعاء كذلك حتى لا يتفق المسلمون مع اليهود في المظهر  
فقال : ( لئن عشت إلى قابل لأصومن تاسوعاء ) .

وأما النصارى فقد ذكر النار أنه : ( ليس في أنجيلهم العروفة نص في فريضة الصوم ، وإنما فيها ذكره ومدحه ، واعتباره عبادة ، كما نهت عن الرياء ، وإظهار الكآبة فيه ، وأمرت الصائم بدهن الرأس ، وغسل الوجه ، حتى لا تظهر عليه أمارة الصيام ، فيكون مرأيا ، وأشهر صومهم وأقدمه الصوم الكبير ، الذى قبل عيد الفصح وهو الذى صامه موسى ، وكان يصومه عيسى ، عليها الصلاة والسلام ، والحواريون رضى الله عنهم ، ثم وضع رؤساء الكنيسة ضروبا أخرى من الصيام ، وفيها خلاف بين اللذاهب والطوائف ... وكان الصوم للشرع عند الأولين منهم كهوم اليهود ، يأكلون في اليوم والثيلة مرة واحدة فيروه ) . وكانت العرب تعرف الصيام ، ويتحنن منهم البعض في رمضان ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يتعبد قبل بعثته أيام رمضان في غار حراء ، حتى نزل عليه الوحي فيه : ( ولعل ذلك كان من بقايا شرعة إسماعيل وأبيه جفاء الإسلام بما زاده وبينه من شرائعه<sup>(١)</sup> ) .

ولا يزال الهنود وغيرهم من الوثنيين ، يهومون إلى اليوم ، ويالتفون في تعذيب النفس بالصيام تقربا لآلهمتهم ، وتهذبا لنفوسهم وكبحا لشهواتهم ، ومن هذا نعرف أن الصيام عبادة معروفة لدى جميع الأمم قديما وحديثا ، حتى قال الضحاك : لم يزل الصوم معروفا من زمن نوح عليه السلام ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ولكن بما لاشك فيه أنه اختلفت أوضاعه وأشكاله ، ولم يكن على طريقة واحدة ، ولا في زمن واحد — كرمضان مثلا — عند الجميع ، إنما للبدا فقط هو الذى تلاقت عليه الأديان كما تلاقت في كثير من التوجيهات الخلقية التهذيبية والعقائد ، ولا يجب في هذا ، فالأديان ترمى إلى تهذيب النفوس وتطهيرها ، وكسر شهواتها وانقطاعها ، والصيام من أقوى الوسائل لبلوغ هذه الغاية النبيلة .

وقد سبق أن قلت إن رمضان عند العرب كان من الشهور التى يحسن فيها التعبد ، ولقد اعتاد الرسول التعبد فيه كل عام قبل بعثته .

(١) كتاب الفكر السامى .

وفي رمضان بدأ الوحي على الرسول ، وابتدأ نزول القرآن في ليلة من ليالي  
الباركة ، هي ليلة القدر ، ولا شك أن الشهر الذي حاز الفضل من قديم ، ويحمد  
فضله بيده الوحي ، ونزول القرآن فيه ، ليستحق التمجيد والتكريم منا نحن  
الذين نسعد في الدنيا والآخرة بما أنزله الله فيه ، وجدير بنا أن نعتبره موسماً من  
مواسم البر والتقرب إلى الله . ولو لم يفرضه الله ، تحمداً بنعمته ، وشكراً لنضله  
علينا ، فما بالنا وقد جعله الله كذلك موسم خير وقرين ، وفرض على المسلمين أن  
يسوموه ويتطهروا فيه ، إحياء لذكرى أكبر نعمة ، وأجزل فضل على البشرية .  
وهي نزول القرآن الذي جعله الله للناس هدى وشفاء .

ولقد تأخر تكليف المسلمين بصوم رمضان إلى ما بعد الهجرة بستين ، حين  
أصبح المسلمون جماعة حقيقية ، وتم فرضه على الصورة التي نعرفها ، ونسير عليها  
الآن ، بعد أن مر بأدوار تشبه دور التكوين ، حيث أخذ نصيه من التدرج  
الذي سلكه الحكيم اللطيف بعباده في تكليف الناس بشيئ ، فقد شق عليهم  
أن يلزموا صيام شهر كامل بعد أن كانوا غير مقيدين بشيء ، فجعل الله للقادريين  
منهم الخيار بين الصيام ، وبين الإفطار والفدية ، وأرشدهم إلى أن الصيام خير  
وأفضل ( وأن تصوموا خير لكم ) ، حتى إذا تمودوه وألقوه ، وعلم الله أن  
تقوسهم تهيأت للإلزام به ألزمهم وقال ( فمن شهد منكم الشهر فليصمه ) .

وهناك آية أخرى ، أوقفنا على طور آخر ، مر به الصوم من أطوار  
التكوين أيضاً فقد « كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا فإذا  
ناموا امتنعوا<sup>(١)</sup> » ولو كان ذلك من وقت العشاء ، فكان الواحد منهم يجوز  
أن تكون مدة صيامه اثنتين وعشرين ساعة فيجهد وبرهق ، وبضهم يأتي من  
الخارج فيجد امرأته وقد صحت من نومها فيقع عليها ، مخالفاً بذلك ما ساروا  
عليه ، وقد كان ذلك — كما قال الأستاذ الإمام — اجتهداً منهم ، ويكون الله  
قد تركهم لفهمهم في آية ( كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم )  
حيث فهموا أن التشابه في الآية الواردة تشتمل الكيفية أيضاً ، وساروا على

(١) تفسير المنار : ج ٢ ص ١٧٤ وذكر فقرة مثل هذا في سبب نزول الآية .

ذلك مدة ، حتى إذا بدا عليهم الجهد والمثقة ، شملهم الله بصفوه ، ونظم لهم طريقة الصوم كما نعرفها ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس حيث قال : ( أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ) حيث يقعون في المخالفة والحرج ( فتأب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ) فأنتم الله نهته على المسلمين ، وأكل لهم أعظم الفرائض وأكثرها مراقبة لله .

وقد وردت في فضل صيام رمضان أحاديث كثيرة ، كلها تتواطأ على إظهار فضله ، وجزيل ثوابه ، واحتفال الله به في السماء والأرض ، وجعله موسماً من مواسم الرضا والنفرة والعق من النار ، فأية كيفية إذن توفر هذا الفضل ، وتحقق هذا الرضا ؟ !

للصوم ناحيتان : شكلية صورية وأخرى روحية ، ككل العبادات الأخرى ، وقد اهتم الفقهاء بالناحية الشكلية من حيث الصفة والفساد ، واللفظ من الأشياء وغير اللفظ ، وجعلوا ذلك متصلاً بالناحية للمادية الحسية كالأكل والشرب والاتصال بالنساء ، قصوروه تصويراً تاماً من الناحية الشكلية ، ومع ذلك فالأمر فيه لم يقف عند هذا الحد ، بل هناك ماهو أجل وأعظم ، وهو الناحية الروحية ، نعم ، وهل يكفي هيكل الإنسان ليكون له شعور وإحساس وإنتاج ؟ إنه لا بد له من الروح تسرى في أوصاله ، لكي يكمل ، ويشمر النفرة التي ترتب على وجوده .

فالصيام الذي قال عنه الفقهاء ، إنه إمساك عن الأكل والشرب والنساء ، إنما هو الصيام من إحدى ناحيتيه ، أما الناحية الثانية وهي الروحية ، فهي الإمساك عن شهوات النفس من الغيبة والنجمة ، وإهداء الناس باليد واللسان ، وفي مراقبة الله والخشية منه ، والحياء من جلاله فإذا أخذ الإنسان نفسه بهذا أيضاً ، وألزمها به طوال شهر كامل ، غاضباً من شهواتها وزوعها نحو طيب المأكل والشرب ، مع توفره أمامه كل وقت ، خرج من صيامه بدرس مفيد ، ربما يستمر تأثيره ووعيه طوال السنة ، فيظل في مراقبة الله ، وصبر عن الشهوات ، حتى يصير ذلك



عادة له ، فيصبح من للأمول أن يندرج في مدارج التتقين الذين ( لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) .

وفي الصيام ناحية مهمة ، من أجلها كرمه الله ، وهى لاتوافر في غيره من العبادات توافرها فيه . فلئن كان في الصلاة شيء من المجهود الجسمي ، الذى عليه الخشوع ، وفيها شيء من ترك ما اعتاد الناس عمله في غير أوقاتها ، لكن ذلك لا يستمر إلا دقائق معدودات في الفريضة الواحدة ، ولا يحس الإنسان أثناءها أية مضايقة ، ولا يشعر بذل أى مجهود نفسى . ولا مصابة بالنعى الذى نشعر به في الصوم ، وأما الحج فلئن ترك الإنسان فيه ملابسه العادية وبعض الأشياء التى يحبها فذلك سهل على النفس نوعا واللباس لاديهوة لها . ولكنها عادة يسهل على الإنسان التخلص منها بما يستر عورته وكفى . على أن تركها يمكن تقصير مدته إلى ثلاثة أيام لا يحس المحرم في أثناءها شيئا من المضايقة .

أما الصوم فناحيته الصورية متعبة شاقة ، وفيها كبت وإرهاق ، فالإنسان يحسك عن الأكل والشرب مدة لم يتعودها في غير الصيام ، يحس أثناءها نهما للأكل والشرب ، ويرى أثناء نهمة وفرط جوعه وظمئه للأكل الشهى ، وللاء الذنب البارد ، مما يسهل له لعاب الشبع للرتوى ، ومع ذلك يصرف نفسه عن هذا وذاك ، ويصبر على جوعه وعطشه — وقد يكون في عمل مرهق والجو قائظ — وربما يصادفه ذلك وليس معه أحد ، وباستطاعته أن يسكن جوعته ، ويطفى غلته ولا يراه إنسان ، ولكنه يحسك ويتعفف ، لأن العلم الخير يراه ويراقبه ، فنصر المجاهدة للنفس ، والرقابة لله في الصيام أشد وأبرز منه في أية عبادة أخرى . إذا أضفت إلى هذه الناحية الصورية في الصيام الناحية الروحية ، التى بها يحسك الإنسان عن كل شهواته ، ومحارب جميع نزعاته ونزواته ، ازداد عنصر المجاهدة والرقابة بروزاً ، وازداد سر الجزاء الأوفى الذى جله الله له ، وهو سر إضافته إليه كما جاء في الحديث القدسى « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجل » .



« إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » فالصيام

الذى لا تتحقق فيه الناحية الروحية ، بل يبقى قاصراً على الصورة والميكل ، حيث يحس الإنسان عن الطعام والشراب تقليداً ، وليقال عنه إنه صائم ، ويجلس على موائد الصائمين ، ثم يسخط على أيام رمضان ويستقلها ، ويستجمل نهايتها ، ويرى لنفسه العنان في شهواتها ، فينقلب إلى سبيل لمان ومغتاب تمام ، لا يتخرج عن إثم من الآثام ، كأن رمضان عنده موسم للعارك والنضب ، لا موسم الحلم والعفو في الأرض وفي السماء .

هذا الصائم ، وهذا الصيام ليس له عند الله مكان ، ومسكين هذا الصائم !! فقد أتعب نفسه بالجوع والعطش دون جدوى ، فلم يستعد من صيامه دنيا ولا أخرى ، وهذا هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » أما الثواب والتهديب فقد أصاعه حين أطلق لنفسه عنانها ، وجرى وراء شهواتها ، وإذا لم نجح من غرسنا ومجهودنا أية ثمرة فلائى شيء إذا تكون الشجرة ؟ ! .

إن الله غنى عن عباده وعن عبادتهم ، ولم يرد بهذه التكاليفات التى كلفهم بها إلا تهذيبهم وإصلاح شئونهم ، فإذا لم تتحقق الغاية من العمل ، وجنح الإنسان عن الطريق للرسم ، للوصول إلى الغاية المرجوة ، فمن إذن تكون العبادة ، وإلى من يكون الاتجاه ؟ ولأى شيء يذل المجهود ؟ إنه مجهود ضائع ، واتجاه خاطئ ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يقول « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » . والزور هو كل منكر خارج عن الحق . وصدق الله العظيم « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

وللصيام عدا الناحية الروحية التهذيبية ، وعدا الثواب الذى يصدق الله على الصائمين فوائده أخرى جسمية ، تكلم الأطباء عنها ، وأوردت الكتب فى ذلك حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم « صوموا تصحوا » .

واسأل الله الكريم أن يوفقنا جميعاً لأداء فريضة الصوم كما يحب ويرضى ، كما نسأله أن يصير المسلمين بأسرار شريعته وبرزقهم الاستمسك بها حتى ترجع إليهم قوتهم ، ويعود لهم سالف مجدهم إنه ولى التوفيق .

## ٧ - ذكرى بدر

يقول الله تعالى :  
« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ  
وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ  
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »



سورة آل عمران

في تاريخ الأمم والدعوات أيام وأحداث فاصلة حولت مجراه ، ودعمت أركانه ،  
وفتحت فيه صحائف جديدة مجيدة لهذه الأمة ، أولئك الدعوة ، ولقد كان في تاريخ  
الدعوة الإسلامية في بدء عهدها أيام وأحداث لما شأنها وخطرها ، وتقف غزوة  
بدر على رأس هذه الأحداث والتزوات التي حولت مجرى التاريخ ، وبدأ الإسلام  
بها عهداً جديداً ، تطلعت فيه الأنظار كلها إلى هذه الدعوة الناشئة .

لورجعنا إلى ما قبل هذه الغزوة ، لرأينا أن الدعوة عاشت في مهدها الأول  
في مكة مضطهدة ، وعانى الرسول ومحابته من الإيذاء والتنكيل ، ما لقيه أصحاب  
الدعوات من الرسل السابقين ، وظلت الدعوة في مكة ثلاثة عشر عاماً ، تمانى من  
الحجر والتضييق ، والسف والإيذاء ما حصرها في أفراد قليلين ، حتى أذن الله  
لنبيه أن ينتقل إلى المدينة ، بعد أن هبأ له الجو الحر الذي تنعش فيه الدعوات ،  
ولا تعيش إلا في رحابه ، وخرج الرسول وأصحابه من وطنهم ، ومهد صابم ،  
وجتمع أهلهم وأصحابهم ، خرجوا تاركين كل ذلك ، وما كانوا يملكونه ،  
مؤثرين الله على متاع الحياة ، من أهل ومال ووطن ، واستقروا في مخرجهم ،  
وفي قلوبهم قلق يسكنه الأمن الذي وجدوه في حياتهم الجديدة ، وفي نفوسهم  
حرقة تطفئها لذة الحياة الحرة الطليقة لدعوتهم العزيزة ، استقروا هناك بالمدينة  
بيداً عن مكة ، ولكن قلوبهم ترمقها ، وبخز في نفوسهم أن أخرجوا منها .  
كارهين ، فهل تدوم هذه الحال طويلاً ؟ وهل يقنع للكيون بخروج عدد من بينهم

وهم الذين فكروا وهم يأتمرون به ، وقدروا أن إخراجهم بعيداً عنهم ؟ هو الخطر نفسه عليهم ، فاربعا يجمع الناس حوله وبها جهم ! ثم هل يمكن للمسلمين أن تهدأ نقوسهم ، وهم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ؟ ! إن كلاماً من للمسكرين يفكر في أمره وأمر عدوه للترص به ، ولا يمكن أن يبقى للعسكران قائلين ، يتمتعان معا بالحياة المادية ، إن الحياة لا تتسع إلا لأحدهما فلا بد إذن من أن يسعى كل منهما ليظفر بالحياة دون الآخر .

ولقد كان المسلمون في مكة حتى هاجروا قلة ذائبة في المحيط الذي يعيشون فيه لم يكونوا مجتمعاً بالمعنى الصحيح للمجتمع ، ولم يكونوا كثرة يخشى بأسها ، أو يتكون منها جيش يدافع عن نفسه ؟ فكان لابد لهم من التحمل والصبر ، لأن كل مقاومة بالقوة . صيرها الفشل ، وستدفع بالمقاومين إلى الفناء ، فما الحكمة حينئذ من المقاومة ؟ ! فليصبروا إذن ، وليزل عليهم القرآن يدعوهم للصبر والتحمل ، ولو كان ذلك خروجاً من الوطن الحبيب ، فليضضوا به وبأسوالهم وصعوبات قلوبهم ، وبكل شيء عزيز لديهم في سبيل شيء واحد هو حرية العقيدة التي من أجلها يعيشون ، لكنهم أصبحوا في المدينة كثيرين ، وكونوا مجتمعاً يرأسه محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الكلمة السموعة في المدينة ، والتف حوله مئات بل آلاف من الرجال الأقوياء الأشداء الذين عاهدوه على حرب الأسود والأبيض من الناس . قى أراد . وهنا يتعشى التشريع مع تطور الحياة الجديدة ويأذن الله لعباده المؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم ويمتشقوا السيف ليجمعوا عقيدتهم ، فيزل القرآن يقول : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (١) وهنا أخذ المسلمون يحاولون أن يستردوا شيئاً من حقهم للساب ، وما لهم لا يقبلون وقد ظلموا « وإن الله على نصرهم لقدير » ؟ وكان لابد أن تؤدي هذه المناوشات والمحاولات ، إلى حرب بين للمسكرين وكانت الحرب ... والتقى الجمعان ، وتلاقت الفئتان : فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة ، وكان ذلك في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة .

ولم تكن أدوات النصر من العدد والقوة متوافرة لدى المسلمين توافرها  
للسكك فقد خرجت مكة تقصد حرباً ، خرجت كلها ، حتى أن من لم يستطع  
الخروج بنفسه أجز من يخرج نيابة عنه ، حتى لم يبق فيها قادر على حمل السلاح  
وخرجت النساء مسافات مع الجيوش ، ثبت في نفسه الحماسة والقوة ولم يرجع  
إلا قرياً من « الجعفة » عند « رايخ » وأصبح رجال مكة إما في العير مع  
أبي سفيان وإما في النفير الذي خرج بنقد العير ، ويؤدب المسلمين ، ومن تخلف  
عن هذا وذلك بقاء بالمحوان والاحتقار ؛ حتى قيل عنه استخفافاً به ( لا في العير  
ولا في النفير ) وصار ذلك مثلاً إلى اليوم ، يقال عن كل من لا لؤز له ولا كان .

ولم يكن الجيش للكي حين خرج ، يعتقد على كثرته أنه خارج لملاقاة جيش  
بالمنى الحقيقي ولكنه كان يظن أن مهمته تأديب العصاة للارقين ، والقضاء على  
أفراد العصاة ، الذين تجرأوا ، وبلغت بهم جرأتهم أن تعرضوا لتجارة المكين  
وهم الذين خرجوا من مكة ليليل فارين ، وكان الفيظ يملأ قلوب أهل مكة من  
هذه الجراءة التي عرضت سمعهم للقليل والقال في نواحي الجزيرة ، وهزت من  
مكاتبتهم في النفوس فلا بد إذن من ذلك أعناق هؤلاء للتبرئين وإبادتهم حتى  
لا تعرض مكة وتجارها بعد ذلك لثل ما تعرضت له ، ولا بد من إلقاء الدرس  
البلغ الذي يؤكد هبة مكة في النفوس للأبد وتبقى لتجارهم حرية التنقل في  
أمان إلى كل مكان .

بهذه الروح — روح الاستخفاف بقوة المسلمين ، والرغبة في إبادتهم —  
سار للسكك إلى ملاقات المسلمين ، حتى إنهم يصرون على ملاقاتهم وتأديبهم ،  
بعد أن نجحت تجارتهم ، وأرسل لهم أبو سفيان يلصمهم بالرجوع دون حرب ،  
إذ لم يعد هناك داع إليها ، وقد سلبت الأموال من أيدي محمد وأصحابه ؛ ولكن  
أباجهل الفيظ الحق ، يستولى عليه حقه وغيبه ، وتسلط به روح الاستخفاف  
بالمسلمين ، فيصيح فيمن حوله : « والله لا ترجع حتى نرد بدر<sup>(١)</sup> فقيم عليها

(١) يثر في مكان يسد عن المدينة بنحو ١٥٠ كيلومتر على الطريق بينها وبين مكة الآن ،  
وقد سمعت بزيارته في شعبان سنة ١٣٧٤ هـ والمبيت فيه وزرت مواقع الفروة في الصباح ،  
وما كان أحفلها بالعبرة والظة تلك الساعات التي قضيتها في هذا المكان التاريخي =

ثلاثاً تنحر الجزر ، ونطمع الطعام ، ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابونا أبدأ بعدها .

وهكذا ترون كلمات أبى جهل تنطق بالاستخفاف والرغبة فى التشقى والانتقام استرداداً لمصعهم ، وتأكيذاً لهيبتهم ، ويسير القرشيون للالاقة المسلمين ، مستندين إلى كثرتهم وأهبتهم ، متيقنين أنهم لن يلاقوا مصاباً فى إبادة المسلمين ، فاهمين أنهم ذاهبون إلى نزهة حرية يسيرة ، يقطعون فيها رموس المسلمين ، ثم يجلسون على جثثهم ، يقيمون أفراحهم بالنصر ، ويشربون الخمر ، وتعزف لهم القيان .

أما المسلمون فقد خرجوا إلى بدر ، لا يقصدون حرباً ، بل يريدون تجارة أبى سفيان وما كانوا يظنون وهم خارجون أنهم سيلاقون مكة بخيلها ورجلها ، ولكنهم وجدوا أنفسهم بعد إفلات القافلة ، بين أمرين أحلاماً مر ، فلما أن رجعوا إلى المدينة فارين أمام الزاحفين عليهم من مكة ، وهذا هو العار ، ولن يصيبهم فرارهم من تعقب للكئين لهم إلى عقر دارهم ، فوق ما يسببه الفرار من تجرؤ يهود المدينة ومناقبتها عليهم . وإما أن يثبتوا للالاقة هذا الجيش الضخم ، وهم قلة فى العدد والعدة ، وفى هذا من الخطر عليهم ما فيه ، ولكنه على كل حال أليق بهم ، كرجال حرب وعقيدة ، يؤمنون بسمو الاستشهاد ، ورون فيه الحياة الشريفة الخالدة . . . وشاورهم الرسول أى الأمرين يختارون ، فاختراروا الثبات والنزال ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وكان الله يدبر الأمور ويهيئ الأحداث ، ويسوق الجانبيين لموقعة يتجلى فيها تأييده لعباده المؤمنين ، ويريمهم من آياته الكبرى : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليعق الحق ويهبط الباطل ولو كره المجرمون » (١) وكانت حالة المسلمين هذه تصورها الآية الكريمة (٢) « ولقد نصركم الله يدر وأتم

---

== واسترجعت فيها حوادث هذه النزوة وما نزل فيها من القرآن الكريم ، لقد وصلت من المدينة إليها بالسيارة بعد تمب جعلنى أدرك مقدار ما تحمله المسلمون الذين خرجوا فى رمضان وساروا بين الجبال حتى وصلوا هذا المكان إنها العقيدة يستهين أصحابها بكل الصعاب .

(١) سورة الأنفال : ٧ ، ٨ . (٢) سورة آل عمران : ١٧٣ .

أذلة فاقوا الله لعلكم تشكرون » كما يصورها موقف الرسول وهو يناجي ربه ،  
ورعى الحرب دائرة « اللهم هذه فريش قد أتت بخيلائها ، تحاول أن تكذب  
رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد »  
فهل يترك الله هذه العصابة للؤمنة ، نواة الأمة المحمدية ، ليبيدها هؤلاء الكفار  
المدلولون بقوتهم ١٩ .

إن القرآن الكريم يبيننا عن هذا السؤال حين يصور لنا رحمة الله بالمؤمنين ،  
ورعايته لهم في كل مراحل المعركة ، حتى نرى كأن الله القدير هو الذى يدير  
المعركة ، ويوجهها بصورة واضحة ، لم نهدها في غزوة أخرى ، حتى حقق لهم  
النصر ، الذى كان مفتاح التحول في تاريخ الإسلام .

ولقد عنى القرآن بتسجيل خطوات هذه الغزوة ، وما تم فيها ، عناية لم تحظ  
بها أية غزوة من غزوات الرسول ، فقرأ « مى وهو يصور «بادئ المعركة  
ومقدماتها ، ويحدد مواضعها ، ويرز أثر العناية الإلهية في توجيهها فيقول : « كما  
أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك  
في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وإذ يمدكم الله إحدى  
الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله  
أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » (١) ثم يقول في موضع آخر :  
« إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم  
لاختلفتم في اليعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، ليهلك من هلك عن  
بينه ويحيى من حى عن بينة » . . ثم يقول مصوراً ما هيأه له من أسباب غريبة  
وظروف عجيبة حتى تم إرادته سبحانه « إذ يريكم الله في منامك قليلاً ولو أراكم  
كثيراً لفشلتم ولتزازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه علم بذات الصدور » ،  
ولا يقتصر هذا التشجيع ، وهذه التهيئة على ما رأى الرسول في منامه ، بل يكون  
ذلك مع المسلمين أيضاً حين للمعركة نفسها ، ليقوى روحهم للفتوة ، ويدفع  
بالآخرين إلى لقاءهم لينفذ فيهم وعده « ليعق الحق ويطل الباطل » فيقول :  
« وإذ يريكمهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويهلككم في أعينهم ليقضى الله أمراً

كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور» (١) ويصور لنا النعم التي أحاط بها عباده المؤمنين بعد أن ساقهم إلى الحرب في سبيله فيقول ،ذكر آلم ، « إذ تستيشون وبكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » فسخر لهم للملائكة آلافاً كما في سورة آل عمران ، لا ألقا ، تشد أزهم ، وتضرب رقاب أعدائهم ، ثم يصور لنا القرآن كيف سخر الله الطبيعة لخدمة عباده للناضلين : « إذ يشيكم الناس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » ويحس الإنسان ، وهو يقرأ القرآن ، أن هذه للمركة لم تكن معركة أرضية ، بين الكفار وأفراد المؤمنين ، بل كانت معركة ربانية دافع الله فيها عن الذين آمنوا ، وتولى توجيههم ، وتبينة كل الأسباب لمساعدتهم ، وقد عهدنا الله يدافع بالحجة عن رسوله وللمؤمنين معه ، فما بالك وهم الآن في حرب لم يشيئوا لها ، اقرأ ، هي قوله تبارك وتعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فتبنتوا الدين آمنوا ، سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فأضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ، ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ، يأبى الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فة قد باء بنضوب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .



قل لى أبها القارى هل رأيت مثل هذا فى آفة معركة ؟ ؟ ألا نحس ،هى أن الله القدير هو الذى يدير المعركة ويوجهها ، ويمين للضارين كيف يضربون وفى أى موضع يهون يضربانهم ؟ هل رأيت تعليقات القواد لجيوشهم ؟ وهل قرأت هذه التعليقات الربانية ، وآفة قوة يهبها الله للصارين حين يقول : ( أنى معكم ) ويقول : « سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » يكفى هذا ليضمن للمؤمنون النصر ، وليجولوا بسيوفهم فى رقاب الكفرة الفجرة وهم آمنون ، وهل يبق للشك موضع فى قلوب المسلمين ، وقد تكفل الله بالمعركة وجند لها للملائكة وسخر

(١) سورة الأفعال : ٤٢ وما بعدها



لها الطبيعة ١٢ إنهم يحاربون بقوة الله ، ويقننون الكفار بسلطان الله ( فلم تتناولهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ، ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين )<sup>(١)</sup> .

أيها القارىء المؤمن إن الله لم يتدخل في هذه المعركة هذا التدخل وبشراف عليها هذا الإشراف ، ويستجب للمسلمين في كل ما يدعونه دون حكمة أو سبب ١١ لقد رأى الله منهم إخلاصهم العميق للدعوة ، وتفانيهم النادر في حمايتها ، وحماية قائدها ، حتى ليؤثرون الاستشهاد حبا لله ورسوله على الحياة ، لقد استشارهم الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يفعل : أيحارب أم يرجع ، فوجدهم جميعا على قلب رجل واحد ، يؤثرون الموت على الحياة ، ويعجبون الله ورسوله أكثر مما يعجبون أنفسهم ودينهم ، فيقول له القداد بن عمرو ( ائمنى لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ) وينطلق صوت آخر هو صوت محمد بن معاذ زعيم الأنصار فيقول للرسول : ( ائمنى لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ) كانت هذه هي الروح للسيطرة على نفوس المسلمين ، وهي روح تمتلئ بحب التضحية والقداء ، وتؤثر الاستشهاد في سبيل الله ، فلا عجب إذن أن يتكفل الله لمؤلا بال نصر ، وعدهم بالعون ، وتهيئ لهم أسباب العلية . والقهر ، برغم قتلهم ، وضعف عدتهم ، تحقيقا لوعده الكريم لعباده المؤمنين : « إن تصبروا الله يصرحكم ويثبت أقدامكم » وصدق الله العظيم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

فهل نتذكر كلما أطل علينا شهر الأجداد الروحية والمفاخر الحربية ، أن كفار الحياة تألبوا على الفئة القليلة المؤمنة ، فما ضعفوا وما استكانوا ، وضخوا بأعز الأشياء لديهم ، في سبيل حريتهم وكرامتهم وعقيدتهم ؟ وهل نأخذ العبرة من

هذه الموقعة ، التي كان الإيمان فيها سلاح النصر والعلبة ، فتؤمن ، تؤمن بالله  
وتؤمن بأنفسنا ، وبأتنا « خير أمة أخرجت للناس » ؟ .

إن للسليين الآن كثرة ، ولكهم في مضمار الحياة قليلون مستضعفون ،  
لأنهم قدوا عنصر القوة ، وهو الإيمان ، وإيه لتريب أمر هذه الأمة ، تضعف  
هذا الضعف ، ويدها أسلوب القوة ، وعدة النصر !! لما رأينا كتاباً يذكر  
في أتباعه روح القوة ، وينزع عنهم لباس القل والضعف ، ويتوعد للمستضعفين  
بالنار كالقرآن ، الذي تتلوه صباح مساء !! وما كانت قصة بدر في القرآن ،  
ولا غيرها من قصص النزوات والحروب التي سجلها ، إلا توجيهاً قوياً ، إلى  
القوة والتضحية ، والاستشهاد في سبيل العقيدة .

فلعلنا نرجع للقرآن فننذى به روحنا ، وتقوى بتعاليمه نفوسنا ، ونعشق  
التضحية كما عشقها من قبلنا ، من آباءنا وأجدادنا الأوائل ، الذين رضى الله عنهم  
ورضوا عنه ، والذين طلبوا عزة الحياة بعزة الموت ، حقق الله لهم عزة الحياة  
وكرامة اللات ، فصاوا سعداء وماتوا كرماء !! وما كان الله ليخلف وعده  
لعباده المؤمنين « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم  
الأشهاد . . »

## ٨- أعيادنا ..



أعيادنا واحات السرور والبهجة وسط صحراء الحياة الجادة اللاعبة ، يقف عندها ركب الحياة المجهد ، ليستريح من وعثائه ، وينصرف بقلبه ومظهره إلى حياة يشع فيها الأمل والسرور والمرح ، ويفوح في أجوائها العطر والسلام .

أعيادنا واحات وارفة تستقبلها الأم كما تستقبل القافلة للتعب ظلال الواحات ، وماءها العذب الفرات ، تطفئ ظمأها ، وتجدد نشاطها ، وتبث لها قوتها ، وتقبل بعزم جديد ، وأمل نصير ، ونفس راضية ، وروح متشرحة طيبة ، على المرحلة الجديدة من حياتها ، راجية أن يعود إليها يومها السعيد .. يوم العيد — وهي أطيب ما تكون نقسا ، وأنضر وجها ، وأحلى أملا .. وأقوى عزما وعملا ..

لذلك كانت الأعياد ضرورة اجتماعية قبل أن تكون سنة دينية ، فكان لكل أمة أو جماعة عيد أو أعياد ، تصنعها هي لنفسها من أحداثها ، إن لم يرسمها لها رسلها ، وجاز أن يكون للجماعة أعياد خاصة مشتقة من أحداثها وتاريخها وأعياد عامة تشترك فيها مع جماعات آخر تشاركها في عقيدتها وفكرتها ، والأعياد الخاصة مظهر خاص من مظاهر الجماعة الواحدة لا يشاركها فيها غيرها ، ولا يجوز أن تغني جماعة وتهازل معنويتها فتتخذ من الأعياد الخاصة لغتها ، أعيادها تحتفل بها وتزوج لها . . أما الأعياد العامة التي يولدها الاشتراك في العقيدة أو الفكرة مثلا فهي وإن كانت عامة في كل أمة تمتدق هذه العقيدة أو تلك الفكرة في الشرق والغرب في الشمال والجنوب

فإنها آخر الأمر خاصة بأصحاب هذه العقيدة ليس لتفريم أن يشاركهم فيها إلا إذا اتهارت معنوياتهم ، وقتلوا خصائصهم ، وصاروا إمامات لا كيان لهم .



وإن من اللهم لنا نحن المسلمين أن نعرف تاريخ أعيادنا وكيف وجدت ؟ وهل كنا فيها تابعين لغيرنا ؟ !

روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولم يومان يلعبون فيها في الجاهلية ، فقال : « إن الله تبارك وتعالى قد أبدلكم بها خيراً منها يوم الفطر ويوم النحر » وهذا الحديث واضح الدلالة في الحياة الاستقلالية التي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يربي أمته عليها حتى لا تكون تابعة لغيرها في أعيادها وأفكارها .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن — وهو بمكة — وسط مجتمع إسلامي بالمعنى الحقيقي ، بل كان للمسلمون أفراداً قليلين ذاتيين وسط المجتمع السكي للشرك ، وما كان لهم حيثذ كيان خاص يظهرون به ، بل إنهم كان فيهم من يتخفى بزعامة خوفاً من الأعداء وهرباً من الاضطهاد فلما هاجر الرسول إلى المدينة ، وأصبح له فيها الكلمة النافذة ، وصار المسلمون كثرة لما طابها وسجدوا وشعأروها ؟ وصاروا أحراراً ، فيها يأتون وما يدعون أصبح من التبعين أن يرسم لهم قائدهم ومريهم محمد صلى الله عليه وسلم طريق الحياة الحديثة ، وأصبح من الضروري أن يحفظهم من الانساج في غيرهم اندماجاً يفي شخصيتهم ، وبمعنى جامع : أخذ الرسول يكون لهم الشخصية الاستقلالية التي لا بد أن يتميزوا بها ، ولهذا كان يجب دائماً أن يتجنب المسلمون الظهور بمظهر يهود المدينة . فهو حيناً وجه المسلمين إلى إعفاء الله وحف الشارب علل لم ذلك — كجاء في بعض الروايات — بقوله : وخالفوا اليهود والنصارى ، وحيناً صام عاشوراء ، وكانت اليهود تصومه كره موافقتهم في الصوم ، وقال لئن عشت إلى قابل لأصومن تاسوعاء ، وكانت اليهود لا تصومه ، وقال للمسلمين في هذا الصدد صوموا يوم عاشوراء وخالفوا

اليهود صوموا قبله يوما وبسده يوما ، وإنما قال لم هذا حتى يكون له وللمسلمين شخصية مستقلة ، بحيث لا يظهرهم بمظهر التابع لأهل الكتاب .

وكان كثيراً ما يكره هذه المواقفة حتى قالت اليهود إن محمداً يريد ألا ينع شيئاً من أمرنا إلا خالفنا فيه .

والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد هذا القى فعله يقول عام وقاعدة شاملة فيقول « من تشبه بقوم فهو منهم » وكل هذا إنما فعله الرسول وقاله ، حرصاً منه — وهو القائد الحكيم والربي الأعظم — على تكوين شخصية مستقلة للمسلمين ، حتى لا يندمجوا في غيرهم ، وهذا وإن كان أمراً لازماً لكل أمة ، في جميع أدوار حياتها ، حفظاً لكيانها ، فهو في دور تكوينها أشد وألزم ، لأنه دور بناء وتربية ، فيجب أن تبنى على أساس متين ، وهو دور طفولة الأمة فيجب أن يربها مربوها بكل حيلة وحذر ، ويعينوها كل ما يؤدي إلى ضعف شخصيتها ، عندما تنمو ، ويعمدوا بها عن كل ما يؤثر على معنوياتها في مجرى حياتها ، وليس هناك ما هو أخطر على الأمة في دور طفولتها وتكوينها ، من أن تنهار شخصيتها وتفقد معنويتها ، وتحس ضعفها ، وتعود البنية لتيرها كالطفل تماماً .

من أجل هذا لم يترك الرسول أتباعه ، ليسيروا كما كانوا يسرون في الجاهلية ، أو يسيروا خلف اليهود ، بل خط لهم حياة جديدة بأعياد جديدة ، وقد جاء للدينة ولأهلها عيدان كما قيل : يوما النيروز وللهرجان ، وهما عيدان نباتا من البيئة الطبيعية ، حين يزدهر النبات ويمتلئ الهواء ، وقد اعتاد الناس في كثير من الأمم أن يحتفلوا بأمثال هذه الأيام ، لأنها مبدأ ربيع الحياة ، وتفتح الخير والازدهار في الأرض . فقال الرسول لأتباعه « إن الله تبارك وتعالى أبدلكم بهما خيراً منهما . يوم الفطر ويوم النحر » .

قد يظن أنه من السهل ، أن يترك الناس على ما اعتادوا الاحتفال به ، وأنه شيء تافه لا يستحق أن يهتم به الدعاة والصلحون . . . نعم قد يظن ذلك بعض الدارغين المسلمين ، ولكن العقلاء وبناء الأمم ، وأصحاب الدعوات والفكر ،

ينظرون إلى هذه النواحي نظرة لها قيمتها ، ولها ماوراءها ، إذ لابد لهم أن يصاروا على بناء الحياة الجديدة ، بمواد ومظاهر جديدة ، حتى يعيش الناس في عهدهم الجديد بعقلية جديدة وتفكير جديد ، وخطى في الحياة حديثة ، وذلك لازم لاسيما إذا كانت الحياة الجديدة ، مختلفة في أصولها وأفكارها ومبادئها عن الحياة القديمة ، ونحن نرى في أيامنا هذه مانتعله الدول ، حين تنتقل من طور إلى طور . إنها تعمل على إلغاء كل مظاهر الطور القديم البغيض ، وتخط لها مظاهر جديدة ، تذكر النفوس دائماً بالعهد الجديد .

فليس من الغريب إذن أن يلغى الرسول عليه الصلاة والسلام الاحتفال بالأعياد القديمة في مجتمعه الجديد ، ومع هذا لم يتركه بدون أعياد ، بل سد الفراغ ببدين آخرين ، يتصلان أوثق الصلات بحياة المسلم الروحية ، وفرائضه التي يتقرب بها إلى الله .

فأولها : عيد الفطر أى اليوم الذى يفطر فيه الصائمون بعد انتهاء شهر الصوم والصوم جهاد نفسى وبدنى معاً ، يجاهد الإنسان فيه نفسه ، ويابسها عما اعتادت عليه من الخوض في مسائل الناس وإيذائهم ، ويجاهد كذلك نداء بطنه الخاوية . فيمنعها عن الغذاء ، وإن أحست الجوع والعطش ، ويستمر الصائم في هذا الجهاد للزودج شهر آكاملا ، يطعم فيه الطعام للمحتاجين ، ويكف على تلاوة القرآن ، وتفهم معانيه ، والامتناع به ، والله العلى الكريم يتجلى على عباده كل يوم من أيامه ، فيغفر لهم ذنوبهم ، ويعتقهم من النار ، فكان من الحكمة الإلهية بعد الجهاد والحرمات ، طول شهر كامل ، أن يكون أول يوم يتحلل الإنسان فيه من هذا النظام ، عيداً يوسع فيه على نفسه وأولاده والفقراء من حوله ، ويفرح بما وقته الله إليه من هذا كله ... ثم يجتمع اجتماعاً عاماً مع اخوانه ، مفتتحين اليوم بعبادة جماعية شعارها ، الله أكبر ، ويستمعون إلى واحد منهم يعظمهم ويذكركم نعمة الله عليهم ، ويستخرج لهم مواطن العبر ، من أحداث العام الذى ودعوه ، ويُرْثِل نفوسهم لاستقبال عام جديد ، يتداركون فيه ما فاتهم ، ويصممون فيه أخطاهم ، ثم يتبادلون التحية والتهنئة والدعوات الطيبات . .

وهذا هو عيد الفطر ، وما سنه الله فيه من صلاة واجتماع يقول عنه الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « للصائم فرحتان يفرحهما . إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه » وقد أراد الله برحمته وبره بهباده أن يكون الفرح بهذا اليوم فرحاً عاماً شاملاً ، يدخل كل قلب ويم كل بيت ، فأمر بإخراج صدقة الفطر عن كل نفس مسلمة ، وتوزع هذه الزكاة للفقراء والمحتاجين ، حتى يتفرغوا ليوهمهم ، يفرحون فيه كبقية إخوانهم ، ولا يفكرون في قوتهم ، شأنهم في ذلك شأن السلم التني ، كل يفرح بما آتاه الله وقدره له .

وهذه حكمة الحكيم الخبير ، الذي أراد بما أمر به من زكاة ، أن يظهر للمسلمون في هذا العيد بظهر التضامن والتعاون ، حتى تسود بينهم روح المحبة ، ويتلاقوا إخواناً متوادين .

وثاني اليدين عيد النحر ، وهو عيد يقع في موسم عبادة من أعظم العبادات عند الله ، وهي الحج الذي جعله الله من عمد الإسلام ، وأركانه الخمسة ، حين تجمع الأماكن المقدسة قصاها من كل قطر ، وقد تحملوا من المشاق والتعب أشدها وأقصاها ، يلتمسون بذلك المغفرة والرضا من الله ، وحين ينتهون من الوقوف بحرفة ، ويؤدون أم شعيرة في الحج ، ويفضون من عرفات إلى الزدلفة فني ، حيث تنقضي بذلك معظم أعمال الحج ، جعل الله صباح هذا اليوم صباح عيد سعيد ، يستمر أياماً يفرح الحجاج والمسلمون جميعاً معهم بما رزقهم الله ، ووقهم إليه وبما يأملونه من فضله ومغفرته .

وحق يكون الفرح بهذا اليوم فرحاً عاماً شاملاً ، لا يتخلله أنين محزون ، ولا دمة قعير ، دعا الله للمسلمين القادمين إلى نحر الذبائح في هذا اليوم ، بعد أن يخرجوا من صلاتهم الجامعة ، ليطمعوا منها الفقراء والمحرومين ، ويكفهم ذلك السؤال ، ومشقة العمل في هذا اليوم السعيد ، وحق يشعر الفقراء بروح العطف والتعاون من جانب الأغنياء ، فتبدو الجماعة الإسلامية في مظهر قوى ، وبيان متين ، وأخوة رحيمة ترضى الله والناس .



ومن المقرر في النفوس أن مظاهر الاحتفال بالعيد عند أية أمة من الأمم يتبر مقياساً لنضجها ، ومقدار وعيها ، فإذا انطلقت الأمة في العيد من عقاليها ،

وتحلت من قيودها ، وأسرفت في إبداء فرحها ، والافتقاد لشهواتها ، وطفئت عليها الفردية ، فلم تذكر وهى في نعيمها ونشوة فرحها — فقيراً أو غنياً ، أو يتكسف دمه وتسله ، أو محتاجاً تسد حاجته وتعطيه ، إذا كانت الأمة بهذا الظاهر الفردى ، كانت أمة بدائية . لم يهذبها دين ، ولم تنم فيها تربية ، وكانت أمة كالأطفال تسودها الأثرة ، ولا تنفى إلا باللون اللامع ، وللفرقات الدوية ، والجري هنا وهناك .

أما إذا اعتبرت الأمة أعيادها فرصة كريمة لإبداء شعورها ، نحو بعضها البعض فاحتلت بها في هدوء النافلين ، وترتيب الناضجين ، وتمتعت في حدود العواطف الشريفة ، فلم تسرف في شهواتها ، وانحذت من فرحة العيد طريفاً لادخال السرور على قلوب البائسين ، والأرامل وللنكوبين ، وظهرت في هذا اليوم في مظهر الأسرة الواحدة المتأسكة . إذا بدت الأمة بهذا الشكل ، وبهذه الروح ، كان ذلك دليلاً على أى دليل على مبلغ نضجها ، ومقدار ما وصلت إليه من الوعى الاجتماعى ، والرقى الحلقى والتهديب الدينى ، وكانت الأعياد فيها منبع خير ، وموسم فرح وابتهاج للجميع .

وقد أراد لنا الإسلام أن نكون أمة ناضجة مهذبة ، فأوصانا بالحرص على الحلقى الكريم في أعيادنا خاصة ، أوصانا بمراعاة شعور الجار وأطفاله ، فلا نلبس نحن وأطفالنا الحرير اللامع ، وهم يجانبننا لا يجدون الجديد العادى ، فيكون العيد عليهم وعلى آياتهم حسرة في القلوب ، ودموعاً تنهمر على الحدود ، وأوصانا أن نراحم ، ونذكر ذوى رحمتنا ، ونجدد الروابط القوية بيننا ، وندخل السرور على عباد الله الفقراء ، وأوصانا أن ننهى ما بيننا من خصومات وأحقاد ، ونفتح قلوبنا صافية نقية ، نسمع بحبها عباد الله جميعاً . وعلمنا أن تتجه إليه سبحانه ، وقد أحيانا لهذا اليوم ، وجبانا بنعمه الكثيرة فيه — فنهل له ونكبكر ، ونذكره ذكرأ كثيراً ونشكره بكرة وأصيلا ، فلانسى في غمرات الفرح عظام النعم ، وجلال اللز ، بل تنطلق حاجرنا نرجع ما نتمر به قلوبنا : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والله الحمد .

بهذا يتجلى الله علينا بفضلته وعفوه ، وجميلة غفرته ، ويكون العيد حقاً عيداً في الأرض ، وعيداً في السماء .



قال الله تعالى .

« وَادِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحِجِّ  
يَأْتُوا لِرَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ  
يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ،  
لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ . . . »  
« سورة الحج »



هذه خواطر مرسله عن الحج ، لا تنتظر منها أن تدلك على أركان الحج وواجباته أو طريقة أدائه ، ولكنها ستأخذ بيدك إلى اللازم الصحيح ، حيث بدأ تجمع الناس حول البيت العتيق ، وتبدأ السير بك في رحلة عبر القرون ، إلى عصرنا الذي نعيش فيه الآن .

يقول علماء الاجتماع إن الإنسان الحاضر ترسب في أعماقه تجارب أجداده الأبعدين والأقربين ، وأن كل ما حصل عليه من تقدم الآن في شق مناهي الحياة للمادية والفكرية ، مبنى على جهود السابقين وأفكارهم ، ولو لم يحس الإنسان ذلك ، وبممكننا أن نطبق هذا على الأديان ، فإن كل رسالة سابقة قد بنت أساساً لأختها اللاحقة ، وهيأت لها الأفكار ، وفتحت لها العقول ، حتى إذا جاءت اللاحقة ، بنت على بعض ما خلفته زميلتها السابقة ، ولا أريد أن أتابع هذا القول في كل جزئية ، يكفي أن نتابعه في موضوع اليوم ، وهو الحج لندرى إلى أى زمن وأية رسالة يرجع أصل فريضة الحج التي فرضها الاسلام

يحدثنا القرآن عن رحلة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأهله إلى واد غير ذي زرع حيث مكة الآن ، ولم يحدثنا عن سبب هذه الرحلة ، وإن كانت هناك

مصادر أخرى ، تذكر سبيلها حين تقرر أن الثيرة التي دبت في زوجة السيدة « سارة » من السيدة « هاجر » حين ولدت له إسماعيل ، قد شئت هذه الأسرة الوادعة في فلسطين ، وحملت إبراهيم على أن يأخذ ولده وأمه هاجر إلى مكان بعيد عن السيدة سارة ليعيشا فيه ، لكن يبقى بعد ذلك تساؤل آخر لماذا اختار إبراهيم هذه البقعة النائية الجرداء ليرك فيها طفله وأمه ؟ ألم يكن هناك موضع آخر يليق بهما ؟ لقد كانت الأماكن الحصبة الآهلة بالسكان مستعدة لاستقبال هذه الأسرة الصغيرة ، ومقتضى التفكير العادى للمستقل يقضى أن يتجه إبراهيم بغلظة كبده ، إلى المكان الحصب للؤنس ، حتى يطمئن عليه ، فما الذى دفعه إذن إلى هذا المكان القفر ؟ لا نستطيع أن نقول إنها محض الصدفة ، ولا أن نقول إنها نتيجة تفكير في اختيار المكان للناسب فمكة « أوبرية فاران » كما تسميها التـسـوراة لم تكن المكان للناسب فلم يبق إذن إلا أن يكون توجيه الله المحض خضع له إبراهيم وتغذ ، وكان إبراهيم أمة قاتنا بخضع لتوجيهه ولو كان ذلك في ذبح ولده ، وإنا لنجد تصديق هذا فيما رواه البخارى قال بعد أن روى تعلق هاجر بإبراهيم عند تركه لها بمكة ، وقولها له : أين تذهب وتركنا بهذا الوادى ، الذى ليس فيه أنيس ؟ قالت له ذلك مرارا ، وهو لا يلتفت إليها فقالت أخيراً له ، آله أمرك بهذا ؟ قال نعم ! فقالت إذا لا يضيعنا<sup>(١)</sup> فان هذا الذى رواه البخارى ليتفق تمام الاتفاق مع البحث العقلى عن توجه إبراهيم لهذا المكان ، وهذا ينتهى بنا إلى أن نقول : إن الله أراد لهذا المكان أمراً هياً له أسبابه ومقدماته ، فساق إليه خليله إبراهيم . ومعه فلة كبده وأمه ، ليدعها فيه ، وليدعو الله شفقة عليهما ( ربنا إني أسكنت من ذرى بواغ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أكثده من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ) فكان الخير الذى يعيش فيه أهل هذه للنقطة ومن حولهم ، إنما هو بركة هذه الأسرة الطيبة الطاهرة ، واستجابة الله لدعاء عائلتها إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فقد تقمعت ينابيع الخير من زمزم . حين تسبغت مياهها ليرتوى إسماعيل وأمه ، ويرتوى ملايين الناس من بعدهم في هذه للنطقة القفر ،

(١) تفسير ابن كثير ج ١

فهيأ لهم سبيل الإقامة حول زعم ، ثم يوجه الله خليله إلى بناء البيت ، فيرفع قواعده مع أبنة إسماعيل ، حين شب وقوى يقولان : ( ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ) ثم يأمره بعد ذلك بدعوة الناس إلى الحج لهذا البيت الكريم ويقول له ( وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم )<sup>(١)</sup> وهكذا تتم إرادة الله ، ويصبح هذا القفر مثابة للناس وأمنا ، وتصبح للحوادث التي جرت فيه مع إبراهيم وأسرته ، ذكرى خالدة تمتد على الزمان ، ما بقي الزمان ، يعظم الله ذكرها ، فيجعلها شامرا لعبادته ، والتقرب إليه في شريعة خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وإن الفضول العلى ليجعل الإنسان دائما يتساءل : وهل كان للبيت وجود قبل عهد إبراهيم ؟ وإذا كان له ذلك فهل كان إبراهيم على علم به ، حتى أتى إلى هذه البقعة من أجله ؟ وقد شجعت الكتب بروايات ترضى هذا الفضول وتزيد ، تفنن أصحابها فيها عن قدم البيت وعن حج آدم ومن بعده من الأنبياء إليه ، وعن ارتفاعه إلى السماء في وقت الطوفان ثم نزوله مرة أخرى ، وهذه الروايات يناقض أو يمارض بعضها بعضا فهي فاسدة في تناقضها وتعارضها وفاسدة في عدم صحة أسانيدها وفاسدة في مخالفتها لظاهر القرآن<sup>(٢)</sup> .

ولكن الإنسان يحس — رغم ذلك — بأن مكان البيت كان معروفا معهودا عند إبراهيم حين جاء ببنه إلى هذه البقعة ، وأنه كان يشعر بقداسة جزء من هذا المكان الذي هاجر إليه ، وأنه من أجل هذا تحمل للشاق وجاء بأسرته ، وأسكنها فيه ، وأقرأ ، هي قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ( ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ) فالإنسان يحس من قول إبراهيم ( عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ) أن إبراهيم كان يعرف أن هنا مكانا مقدسا سماه بيت الله

(١) سورة الحج : ٢٧ .

(٢) تفسير التار الخبز الثاني .

الحرام ، وجعل الفرض من الهبة إليه أو الفائدة من إسكان أسرته بجواره ، أنهم يقيمون الصلاة ويسدون الله ، فلا بد إذن أن تقدس هذه البقعة كان معروفا على الأقل عند إبراهيم ، وأن تقدسها سابق على عهده ، لا مبتدأ من رفضه لقواعده ، لأنه حين نأجي ربه بهذا الكلام لم يكن قد رفع قواعده لأن إسماعيل كان لا يزال طفلا<sup>(١)</sup> ، وقد أعطيني قول الألوسي في شرح هذه الآية : المقصود إظهار كون ذلك الإسكان مع فقدان مبادئه لحض التقرب إلى الله تعالى ، والاتجاه إلى جواره الكريم » وقوله شرحا لما تفيد الآية « أى ما أسكنتهم بهذا الوادى البقع الحالى من كل مرتقى ومرزق إلا ليعموا الصلاة عند بيتك الحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك » وهذا الفهم للآية فهم سليم مستقيم ، لا يمكن نقضه ، أو دعوى استحالة ، فهذا قيل فيه فهو فهم للآية بجوار ما يمكن أن يفهم فيها ، وهو فهم مقدم على كل فهم آخر لها ، ويمكننى بهذا القدر أن أستغنى عن الروايات وأرجع نفسى من قدحها ، أو ردها ، إذ يكفي أن أشعر من القرآن أن حرمة هذا المكان وتقدسه ، كانت معروفة قبل أن يرفع إبراهيم قواعد البيت مع ابنه إسماعيل . ولاداعي جد هذا لأن يستبدى الفضول العلمى لأبحث هل بنته لللائكة قبل إبراهيم ؟ وهل حقيقة رفع أيام الطوفان . . . كما تقول الروايات ؟ وهل ، وهل . ؟ فإن بيان هذا وإن كان من تمام تعقب السلسلة إلى مبدأ التاريخ لكننا لا نضطر على يقين من وراء هذا البحث ، فانرجح أنفسنا إذن ، ولتقف عند هذا الحد من الفهم للقرآن . .

وقد سجل القرآن تكليف إبراهيم بالحج إلى البيت ، ودعوة الناس ليدفوا إليه من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، كما كلفه بتطهير بيته — وقد رفع قواعده — من كل دنس الشرك وغيره ، فلا يجعل للأصنام ولا لتبرها مكانا فيه بل يجعله نظيفا خالسا للطائفتين والما كفين والركع السجود لله رب العالمين ( وطهره بيق الطائفتين والما كمين والركع السجود ) وهكذا وضع إبراهيم نواة الحج إلى هذا

(١) وقد قال إبراهيم هذا الكلام ودعا ربه هذه الدعوة عند ما فارق حاجر وابنها أول مرة ( انظر حديث البخارى المذكور في القرطبي في تفسير هذه الآية ج ٩ ص ٣٦٩ طبعة دار الكتب ) .

البيت الكريم ، هو وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وتابع العرب من بعدهما الحج إلى بيت الله ، لم ينقطعوا عنه في أى عهد ، بل بقى مكان حجهم ، وموضع تقديسهم ، برغم الخلط الذى طرأ على عبادتهم ، حين أشركوا بالله ، وانجهموا إلى الأصنام ، بل إن اتجاههم للأصنام كان منبته ومبعثه — كما تقول بعض الروايات — من تعظيمهم للبيت ، حين كانوا يحملون معهم بعض أحجاره للتناثرة حوله ، ليتبركوا بها ، إذا رجعوا إلى أوطانهم ، ولتكون ذكرى البيت الذى يحبونه ويعملونه ، فأخذت هذه الحجارات المجلوبة تحت قلوبهم شيئا قشيا ، وتوارث الخلف جها عن سلفهم وزادوا عليه ، وربما خفي عليهم مبعث تعظيمها ، فظلموها لذاتها ، ثم نسى الجميع سبب تعظيمها وعكفوا عليها يظلمونها لذاتها ، لا لأنها مجلوبة من جوار البيت ، فكانت عبادة الأصنام ، فتعظيم البيت في نفوس العرب لم يفرح حتى في عهد ازدهار الشرك ، بل إنهم جعلوه مكان أصنامهم ، وأخذوا يفدون إليه كل عام تعظيلا له ، ولكن كيف كانوا يحجون ؟ وهل هناك تشابه بين حجا وحجهم ؟ وهل هناك رسل ممن جاءوا بعد إبراهيم غير رسولنا . كلهم الله بالحج ؟ وهل حج رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان العرب يحجون ، قبل أن يكلف هو وأبنته بالحج ؟ .

لم تحدثنا المصادر الموثوق بها عن رسول جاء بعد إبراهيم كلفه الله بالحج ، وتعظيم البيت مع أنه كان هناك رسل من العرب إلى العرب كشعب عليه السلام كما لم تحدثنا هذه المصادر عن البيت قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام — بل رأينا رسلا من غير العرب يتجهون لمنطقة المسجد الأقصى ويعملونه من أما كنهم للقدسة مع أنهم نسل إبراهيم ، وهذا وإن كان لا يلفت النظر كثيرا فإن سكوت هذه المصادر عن التحدث عن تعظيم البيت والحج إليه في عهد رسول من العرب إليهم كشعب يثير التساؤل ، هل كلفه الله وسكتت المصادر عن الحديث ؟ أو كان سكوتها طبيعيا لأن الله لم يكلفهم بالحج وتعظيم البيت ، على كل حال لا نجد جوابا عن هذا إلا السكوت كما سكتت المصادر ، وإن كنا نميل إلى القول بأن الله لم يكلفهم بالحج وإلا لكان ذلك قد عني بأشياء أخرى ... وكما عني بالحج نفسه في عهد إبراهيم . ومع هذا فقد استمر العرب يحجون إلى البيت منذ عرفوا الحج في عهد

إبراهيم ، وكانوا يحافظون على الحج محافظتهم على أقدس شيء عندهم ، بل كان أشرف مكة يتسابقون في خدمة الحاج الوافدين عليهم من أنحاء البلاد العربية ، وظل البيت الحرام موضع التقديس والتعظيم منذ إنشائه .

هل حج الرسول وهو في مكة ؟

ذكرت لنا روايات متعددة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حج قبل الهجرة ، كما كان العرب يعجبون ، قبل أن يؤمر بفريضة الحج في السنة السادسة بعد الهجرة ، فقد جاء في شرح اللوالب الدنية الجزء الثامن « في الترمذى من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم حج ثلاث حجج : حجتين قبل أن يهاجر ، وحجة بعد ما هاجر معها عمرة ، وعن ابن عباس قال « حج صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر ثلاث حجج أخرج به ابن ماجه والحاكم » . وقد ابن الأثير « كان عليه السلام يحج كل سنة قبل أن يهاجر » قال الحافظ « الذي لا ارباب فيه أنه لم يترك الحج وهو بمكة قط ، لأن قريشا في الجاهلية لم يكونوا يتركون الحج ، وإنما يتأخر منهم من لم يكن بمكة ، أو عاقه ضعف ، وإذا كانوا وهم على غير دين يحرصون على إقامة الحج ويرونه من مفارحهم التي استأزوا بها على غيرهم من العرب فكيف يظن أنه صلى الله عليه وسلم يتركه ؟ وقد ثبت أن جبير بن مطعم رآه صلى الله عليه وسلم في الجاهلية واقفا برفة ، كما ثبت أنه دعا قبائل العرب إلى الإسلام بمعنى ثلاث سنين متوالية » .

### الحج قبل الإسلام :

ولكن كيف كان الحج قبل الإسلام ؟ وهل هناك تشابه بين حجتنا وحجهم ؟ نعم !! فقد كان السابقون يطوفون بالبيت طوافناه !! وكان موضع تقديسهم وتعظيمهم ، كما نعتلمه وتقدسه الآن ، وكانوا كذلك يقفون بعرفات ، ويفضون منها ، ويقمون بمعى ، ويرمون الجمرات ، ويسعون بين الصفا والمروة ، فأفعالنا التي تؤديها في حجتنا الآن تكاد تكون صورة مما كان يؤديه السابقون في حجهم ، وإن اختلف عنها في الروح والجوهر .

وإذا أردنا أن نلتصق لأفعال الحج أصلا وتعليلنا من الماضى ، فإننا نجد فيه

ماريد ، فإن معظم الأنفال إنما تسجل ذكرى حادثة وقعت في الزمن السحيق « فالسعى بين الصفا واللروة إنما يسجل ذكرى سعى هاجر ، وهرولتها هنا وهناك ، باحثة عن الماء لولدها الظالم إسماعيل ، إذ كانت تجري بين الصفا واللروة ، صاعدة على كل منهما ، لعلها ترى مكان ماء تسقى ولدها ، حتى كشف الله كربتها ، وأنس غربتها ، وفرج شدتها ، وفجر لها ( زمزم ) ، فالسعى بينهما ينبغي له أن يستحضرقره وذله لله . وحاجته إليه في هداية قلبه ، وصلاح نفسه ، وغفران ذنبه ، وأن يلتجئ إلى الله عز وجل لتفريج ما به من الشدائد والقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يشته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي ، إلى حال الكمال والغفران والساد والامتقانة ، كما فعل بهاجر عليها السلام ، وقد كان العرب يسعون بين الصفا واللروة ، وكان على كل منهما صنم يتمسكون بهما ، حتى جاء الإسلام ، وكره المسلمون أن يفعلوا كما كان يفعل العرب فزل « إن الصفا واللروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » (١) .

أما الوقوف برفة : تقديم منذ إبراهيم عليه السلام ، حتى يقال إنها سميت عرفات لأن إبراهيم قال لجبريل وهو يعلم الناسك ، عند ما وصل إلى مكان الوقوف : الآن عرفت عرفت ؛ فسميت عرفات وحذا الناس من بعده حذوه في الوقوف برفة ، حتى في أيام الجاهلية الوثنية ، فمن ابن عباس رضى الله عنهما قال « كان أهل الجاهلية يقفون برفة ، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العائم على رؤوس الرجال ، دفعوا ( أى نزلوا من عرفات ) فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدفعة من عرفة ، حتى غربت الشمس ، وقد أراد لذلك أن يخالف الجاهلية ، كما صرح بذلك في خطبة له ، حيث قال عليه الصلاة والسلام « أما بعد فإن هذا اليوم الحج الأكبر ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس على رؤوس

(١) تفسير ابن كثير ملخصا - ١ ص ١٩٩ الطبعة الثانية سنة ١٩٥٤ .

الجبال كأنها عمائم الرجال وأنا ندفع قبل أن تطلع ، مخالفًا هدينا هدى أهل الشرك » فأخر الرسول الزول من عرفات إلى ما بعد التروب حتى طلوع الشمس .

وأما رمى الحجارة : فهو ذكرى انتصار إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام على الشيطان ، حين أراد أن يثنى الوالد عن أمر ربه ، ويقرر بإسماعيل حتى لا يستجيب لأبيه حين هم بذبحه ، استجابة لما رآه في المنام من الرؤيا الصادقة « يا بني إني أرى في المنام آتى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين<sup>(١)</sup> » .

فالرمي عمل رمزي تذكاري لانتصار إبراهيم وإسماعيل على الشيطان يغلد ذكرى هذا الانتصار ، ويحدد في نفوسنا العزم على التغلب على الشيطان ، كما تغلب عليه أبونا إبراهيم من قبل ، فعله إبراهيم حين طارد الشيطان بعزم وإيمان ، وفعله كل من أتى من بعده حتى الآن ، تخليدا لعمله فيجب على كل حاج أن يستشعر هذا من نفسه وهو رمي هذه الحصىات ويعزم على مخالفة الهوى والشيطان ، حتى يحظى من الله بالرحمة والرضوان .

والدبح الذي فعله أيام الحج ، إنما هو تخليد للقداء الذي نجى الله به إسماعيل من الدبح « فلما أسلما وتله للجبين وناديانه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا-إنا كذلك نجزي المحسنين إنا هذا هو البلاد المبين ، وقدينا به ذبح عظيم<sup>(٢)</sup> » فنحن ندبح شكرا لنعمة الله على إبراهيم وإسماعيل وعلينا جميعا ، وإحياء لذكرى هذه النعمة الجليلة ، فمن إسماعيل الذي أنجاه الله وفداء رجاء النسل الكريم ، الذي توجه نبينا عليه الصلاة والسلام ، للبعوث رحمة للعالمين ففي نجاة إسماعيل وفدائه ، نجاة وفداء لحاتم الأنبياء والرسلين ، ورحمة ونجاة للجنس البشري كله الذي جاءه محمد بالهداية والنور ، فعليه أن يشكر الله عليها ، ويتقرب إليه بما جعله فداء لإسماعيل ، وهو إراقة الدماء لأطعام المساكين والفقراء .

وأما الظهر الذي نظهر به حين تجرد من ملابسنا حيث لا نستتر إلا بالرداء والإزار ، فهذا شيء له في أفعال القدماء أصل ، فقد كانوا يطوفون بالبيت عرايا ،



حتى يتخلصوا حين طوافهم من الثياب التي أذنبوا فيها ، تقديساً للبيت والطواف به 1 وظل الأمر كذلك معروفاً غير منكور ، حتى جاء الإسلام وفرض كفته على البيت الحرام وآتم الله على المسلمين نعمته ، وأكل دينه فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يحد بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » ونحن الآن نتخلص من ثيابنا العادية كما كان بعض السابقين يتخلص منها ، وإن اختلف الدافع ، لكننا نراعى مع ذلك شيئاً آخر لابد منه ، وهو ستر العورة الواجب في الإسلام ، فتتخذ الإزار والرداء لهذا الغرض ، ونظهر جميعاً بمظهر واحد يتساوى فيه الثنى والفقير والملك والسوقة .

أما الطواف بالبيت الذي نعله الآن فرضاً أو سنة ، فقد كان القدماء من العرب يطوفون مثله ، منذ أن أقام إبراهيم البيت ، وكانوا يعظمونه ويقدمونه ، ويلبسون به كالحريم أمر ، ويعطون به عهودهم وموائيمهم وقصائدهم ، تأكيداً لها وتوثيقاً وتشريعاً - كما رأينا في العهد الذي كتبوه وعلقوه بالكعبة بشأن مقاطعة الرسول ومن معه في عهد الرسالة بمكة ، وكانوا يعظمون الحجر الأسود تعظيماً كاد يدفعهم إلى حرب عنيفة ، حين أرادوا وضعه في مكانه عندما جددوا بناء الكعبة فقد اختلفوا على من يرضه ويضعه يديه ، في مكانه من البناء ، كل جماعة تريد أن يكون لها هذا الشرف دون الأخرى ، حتى كادت تقوم بينهم فتنة عمية ، لولا أن اهدتوا جميعاً إلى حل . هو أن يكلوا أمر وضعه في مكانه إلى رأى أول قادم عليهم . وأراد الله أن يكون هذا القادم هو محمداً الصادق الأمين قبل بعثته . ففرحوا وسروا بهذا الحل الذي صادفه التوفيق . ولولا مكانة الحجر الأسود عندهم لما اختلفوا هذا الاختلاف على من ينال شرف وضعه . وإعادته إلى مكانه من بناء الكعبة .

ونحن الآن نعظم الحجر الأسود تعظيماً يجعلنا نبداً طوافنا به ، وقبله إذا استطعنا تكريماً لنقطة البدء في عبادة الطواف لا اعتقاداً فيه أنه يضر أو ينفع حتى لكأن كل مسلم هو عمر رضى الله عنه يقول : وقد صفت روحه وتطهرت نفسه بالتوحيد « اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا إني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

وقد أمر الله رسوله مع أمته بالتوجه في صلاتهم كذلك نحو البيت ( قول

وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره<sup>(١)</sup> » فأصبحت الصلاة لا تصح إلا بالتوجه إليه أينما كان المسلم ، وفي أية بقعة على وجه الأرض وجد ، وهذه هي القدوة العليا من التعظيم والتقديس ، التي زاد به البيت الحرام في عهد الإسلام تشريفا وتكريما وتعظيما .

وهكذا نكاد نجد أفعالنا في الحج صورة لما كان يفعله القدماء فيه ، منذ عهد إبراهيم حتى أيام الجاهلية الوثنية ، مع فارق بالطبع في روح العبادة بيننا وبين الجاهلية الوثنية ، وقد رأى المفسرون أن القرآن يشير إلى هذا عند قوله تعالى : ( الحج أشهر معلومات ) فقد قال الزمخشري في كشفه « وفيه أن الشرع لم يأت على خلاف ما عرفوه ، وإنما جاء مقررآ له » ويقول الشيخ محمد عبده في تفسير النار وقوله « معلومات » إقرار لما كان عليه العرب في الجاهلية ، من أشهر الحج لأنه منقول بالتواتر العملي من عهد إبراهيم وإسماعيل .

ويقول عند قوله تعالى ( وآتوا الحج والعمرة لله ) وقد كان الحج معروفا في الجاهلية لأنه فرض على عهد إبراهيم وإسماعيل فأثره الإسلام في الجملة ، ولكنه أزال ما أحدثوا فيه من التبريد والتكرات ، وزاد ما زاد فيه من للناسك والعبادات . ويقول عند قوله « واذكروا الله في أيام معدودات » ولم يأمر برمي الجمار لأنه من الأعمال التي كانوا يعرفونها ويعملون بها . وقد أقرهم عليها وذكر المهم الذي هو روح الدين وهو ذكر الله تعالى عند كل من تلك الأعمال »

كل هذا يؤكد ما قلته من وجود التشابه الكبير ، بين أفعالنا في الحج ، وأفعال السابقين من العرب قبل الإسلام .

#### ماذا في أعمال الحج من عبادة ؟

ولكن كثيرا ما يتساءل الإنسان : وماذا في أعمال هذه من عبادة ؟ ماذا فيها من تقرب إلى الله ؟ ما معنى أني أذهب إلى عرفات لمجرد الإقامة فيها ساعات ، آكل وأشرب وأنام ، وأشتغل بأعمال التي أريدها ، دون أن يتعمق على ذكر أو عبادة أخرى ، إن الإنسان ليكشفه أن يذهب إلى عرفة ، فيضرب خيامه ، ثم ينام ويقوم ليأكل ويصلي صلاته العادية ، التي يؤديها في أي مكان آخر ، ويكفيه كذلك أن يوجد في أي جزء من هذا المكان القسيس ، عند غروب

(١) سورة البقرة : ١٥٠ .

شمس التاسع من ذى الحجة ولو لثائق معدودة ، ثم يخادعه ، ومع ذلك « فالحج عرفة » . . ويتساءل الإنسان وماذا في هذا من نك وعادة ؟ ؟ ثم ماذا في اللييت بمنى ، هذا الوادى الضيق المحرق من عبادة ؟ وأى معنى تنهجه من الإقامة للزدحمة القاتلة في هذا المكان ؟ إنها إقامة كاقامة عرفات في الأكل والنوم . بل فيها يعود الإنسان إلى ملابسه العادية ، ويندفع الناس في مواكب مزدحمة خائفة إلى مكان رمى الجمرات ، وينهب الإنسان إليها ، ومعه حصى التقطه من للزدلفة ، لعله لا يدرى معنى التقاطه من هناك كذلك وترتفع آلاف الأيدي لتضرب هذه البناية الصغيرة القائمة ، بسبع حصيات وتنتهى بذلك الشعيرة . . ويعود الإنسان وفي نفسه علامة استفهام ضخمة عما في هذا العمل من العبادة ؟ !

ثم ما الحكمة في أن تجتمع هذه الجموع الزاخرة بين هذه الجبال المحرقة ، وفي هذه الأمكنة الضيقة ، وفي أوقات من السنة ، قد تبلغ الحرارة فيها أقصاها ويموت الآلاف من الناس من الازدحام والحرارة ، كما حدث في بعض السنين للسانية ، والناس مع ذلك لا يؤدون عبادة خاصة غير الإقامة نفسها في هذه الأمكنة ؟

ثم إذا زلنا للسعى بين الصفا والمروة قطعنا للسافة بينهما ذهابا وإيابا سبع مرات ، بين درجات الصفا ودرجات المروة فأية عبادة في هذا للسير ؟ هل المهم من هذا كله هو مجرد التذكرى ؟ .

لقد كنت قبل أن أحج أنصوّر الحج داخل إطار من الروحانية السليمة الخالصة ، ولكننى والحق يقال ، رأيت أن مشاغل الإنسان الضرورية ، وما يكتنفها من مضايقات لا بد منها في قضاء حاجاته ، واصطدامه بالناس ومتاعبهم التى لا تنتهى ، ومشاكلهم التى لا تعد ، رأيت ذلك وأكثر منه يحول بين الناس وبين كثير من هذه الروحانية ! ! وعلى فرض أننا فهمنا بعض هذه الأعمال والناسك على أنها رموز لأعمال قديمة منذ عهد إبراهيم عليه السلام ، فعلى لا تكفى وحدها في جعل هذه الأعمال شعائر ومناسك ، يترتب عليها هذا التفرائن الذى يمنحه الله للعباد ، فإذا إذن في هذه الأعمال من عبادة تطهر الإنسان من ذنوبه كيوم ولدته أمه ؟ .. كنت أتساءل دائماً ولا أستطيع أن أكتفى

فما يردده الفقهاء من أنها أمور تعبدية لا يقل لها معنى ؛ لأن الشارع لابد له من قصد وغرض يرى إليه من وراء هذه التكليفات الشاقة ، التي أمرنا بها ، نعم لابد أن الشارع يقصد إلى هدف من هذه الأعمال ، التي رتب عليها كل هذا الجزاء الضخم ، الذي لم تحظ به عبادة أخرى « فإن من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » فما هو هذا الهدف إذن ؟ لقد خرجت من حبي وتجربتي بمعنى أظن أنه هو الهدف الذي رعى إليه الإسلام ، بجوار إحياء ذكريات قديمة لسيدنا إبراهيم وولده إسماعيل ، وهو ما يصح أن يكون عنواننا طما للصبح وهو : الصبر والامتثال .

الصبر على متاعب السفر ، والانتقال للفاجئ\* من بيت الإنسان ، والراحة التي يركن إليها فيه ، والحيرات التي تحيط به . . إلى هذا المكان القفر للوحش ، الذي يتميز بصخوره الصلدة ، وحرارته المحرقة أغلب أوقات السنة . . . فإن الذي جدم للسافر من متاعب ومشاق لا يستطيع أن تعبر الكلمات عنه هنا ، وليس له إلا الصبر . . الصبر العميق . . نعم الصبر على السفر وتزاحم الناس فيه ، وتسابقهم إلى توفير الأحسن لهم ، والصبر على المخاوف التي تتلبأ الإنسان ، الصبر على الإقامة في مكة ، هذه البلدة الطيبة حقاً ، لكنها مع ذلك الضيقة بالوافدين عليها ، المختلفة بكثرتهم ، وبضبارهم ورغباتهم . . الصبر على الإقامة في أكنة لم يألفها الإنسان ، ولا يرضى بها إن كان في بلاده . الصبر على غنود الناس وأذامهم ، وتغاير معاملاتهم ، وتصادم رغباتهم ، سواء في ذلك الوافدون على مكة من الحجاج أو القيوم بها من أهلها ، الذين ينتظرون موسم الحج ليعيشوا ، أو ليثروا منه ، ويتعكفوا في الأسواق كما يشاءون !!!

ولقد كنت في كل لحظة تمر على بضائقاتها من الناس والجو المحيط بي ، ازداد فهما للسر في قوله تعالى : ( فمن فرض فهن الحج فلارث ولاسوق ولاجدال في الحج )<sup>(١)</sup> ، وازداد إيماناً وعمقاً بالحكيم الحير ، الذي خلق فسوى ، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، نفص الحج بتأكيد هذا التوبيخ البليغ ، الذي جاء في صورة النبي ، كأن ذلك يجب أن يكون أمراً واقعاً

---

(١) سورة البقرة من آية ١٩٧ .

ومقررآ في النفوس .. إن كل لحظة تمر بالإنسان في الحرج ، يحتمل أن تثار أمامه مشكلة ، أو صدام مع الناس ، ويكاد يفقد كل أعصابه من مضايقاتهم ومؤذياتهم ، فهم خليط مختلفو اللغات والطباع والمادات والرغبات ، وليسوا قلة يتعمل اختلافهم ، أو يمكن الحد من رغباتهم ، بل هم كثيرون كثرة لا تتجمع في أى مكان آخر .

والله العليم الخبير يعلم هذا جيدآ ، فوضع لهذه النفوس ، في هذه المواقف ، لجمالآ يحكمها به ، وجعل ثواب الحرج في أن يعلم الإنسان نفسه بهذا اللجام ، ويهدئ أعصابه ، حتى ليكاد يمتيتها ويدفنها ، ويتعمله ، يتعمل كل ما يترضه من عقبات ومصاعب ومضايقات ، ويصبر ، فإن للفترة للصابرين للتسامحين .. وتكون أيامه هذه تمرئآ وتدرئآ له على الصبر ، ومكلفة النفس الأمانة بالسوء حتى إذا نجح في آخر الأمر ، كان له أجر للكافرين الفائزين ، وأخذ درسآ بنفسه في حياته كلها .

والامتثال ... الامتثال لله العلى الحكيم ، الذى كلفنا أداء هذه الأعمال ، وتركنا دون أن يبين لنا في جلاء الحكمة منها ... فإن حقيقة الامتثال والخضوع تظهر في مثل هذا المجال . في الطاعة العمياء مع الثقة بالآمر ، فإن ذلك هو ميزان البعد الصالح .. لأن الأعمال التى تظهر حكمتها للعامل ، وتتضح فائدتها له ، ويعرف الثمرة التى سيحصلها من عمله .. قد يندفع إليها لاقتناعه بفائدتها الواضحة ، وأسبابها الظاهرة ، فلا تكون الطاعة فى أدائها محمضة للآمر ، لأن الأسباب والنمايات فيها كان لها نصيب كبير فى اقتناع العامل بها ، وعمله لها ، وبعبس ذلك الأعمال التى لا تظهر حكمتها أو دواعيها للعامل ظهور تلك ، فإنه يقدم عليها وهو مقتنع بها ، وقد يكون فى نفسه منها شئ ، لكنه يعملها استجابة للآمر للوثوق به ، ويتعمل فيها للشاق والصعب ، وهو لا يدرى الحكمة التى جعلته يرزأ تحت هذه الصعب ، وليس أمامه إلا شئ واحد ، جعله يقدم على ذلك كله ، وهو التماس الرضا من الآمر ، وحب الامتثال له . ومثل هذه الأعمال يمتحن بها الشخص ، ويغزبر مقدار إخلاصه ... ولذا يسميها الفقهاء أعمالا تصدية ، أى أن الدافع لها هو محض عبادة الله ، وخضوع العبد له ، دون أن يفهم الإنسان لها فوائد وأسبابا ظاهرة ملموسة ، ومن أجل هذا سميت أفعال الحرج شعائر ، لأنها صمة الإخلاص

والخضوع ، يقول سبحانه وتعالى : ( إن الصفا والبروة من شعائر الله ) وقد جاء في تفسير للنار<sup>(١)</sup> : « وأما كون للناسك والأعمال شعائر وعلامات ، فوجهه أن القيام بها علامة على الخضوع لله تعالى وعبادته إيماناً وتسليماً » ويقول : « في الأحكام التي شرعها الله نوع يسمى بالشعائر ، ومنها ما لا يسمى كذلك ، كأحكام المعاملات كافة ، لأنها شرعت لمصالح البشر ، فلها علل وأسباب ، يسهل على كل إنسان أن يفهمها ، فهذا أحد أقسام الشرائع » .

والقسم الثاني . . هو ما تعبدنا الله تعالى به ، كالصلاة على وجه مخصوص ، توكالوجه فيها إلى مكان مخصوص ، سماه الله وبينه ، مع أنه من خلقه كسائر العالم ، فهذا شيء شرعه الله وتعبدنا به ، لطلبه بأنه فيه مصلحة لنا ، ولكننا نحن لا نفهم سر ذلك تمام الفهم من كل وجه والصلاة على وجه خاص والتوجه ومثلها وإن كانا من الأمور التبعية ، التي يمتحننا الله بها ، ويظهر فيها معنى الامتثال لكنها سهلة الاحتمال على كل حال . . أما أعمال الحج فيكون الامتحان فيها أقسى ، والامتثال أظهر وأوضح .

فليس هناك من الأمور التبعية ما تبلغ للشقة فيها مبلغها في الحج ، فيه إرهاق مالى وجسمى وتنسى ، يعرفه تمام المعرفة كل من أدى فريضة الحج مهما توافر له من أدوات السهولة والتيسير . . وذائق ما فيه من متاعب ومشاق ، لا يوجد عشر معشارها في أية عبادة أخرى ،

فأية عبادة أخرى يتفق فيها الإنسان ما ينقعه في الحج ، فالمسلم قد يكون في حاجة إلى اللال ، ينقعه في أبواب أخرى من أبواب حاجاته في حياته ، ولكنه يؤثر أداء الفريضة ، ويحرم نفسه وأولاده من أشياء كانوا يحبون نهيتها . . والارهاق الجسمي يعرفه كل من كابده ، فالانتقال من بيت الإنسان ، الذي ألف الراحة فيه ، والسفر ، وهو قطعة من العذاب ، واللكث في هذا المكان الجبلي للزحمة الحارة عشرات الأيام ، والانتقال فيه من مكان إلى مكان ، وعدم تيسر سبل الراحة فيه ، وسير الإنسان أياماً وهو شبه عريان ، معرضاً للجو

وتقبلاته . . كل ذلك يكابده الإنسان في الحج ولا يرى له مثيلاً في أية عبادة أخرى .

أما الإرهاق النفسى فيبدأ من بدء الرحلة ، وفراق الأسرة والأحبة ، والتفكير في شئونهم ، ثم مصاحبة الناس ومخاطبتهم ، وهم أخلط غير منسجمة ، بل متفاوتة في الخلق والعادة والنظافة ، مما يشير ضائقات يذهب أمامها حلم الحليم ، لولا أن الله عني بالتوصية في الحج خاصة بعدم التئيب والجدال . . كل هذا يمر على حساب الإنسان وأعصابه ، فيرهق نفسه ، ويكظم غيظه ، ويتعمد ما لا يحتمل ، مما يجعله في حرب عنيفة بينه وبين نفسه الأمارة بالسوء ، القلقة المضطرب ، ولا شك أنه في هذه المركبة في حاجة إلى ذخيرة قوية وافرقة من الصبر والامتنال ، نجعله أهلاً للشفرة والجنة .

ومن أجل هذا كله قلنا إن الغاية الكبرى من الحج على ما ظهر لي إنما هي تعويد الناس على الصبر والامتنال في الأعمال والأسفار ، وفي صبر الإنسان واحتامه وامتناله يكون قبول عبادته ، وليس بفريب على الحج هذه الغاية ، فقد رأينا الأمم تنفى بترية أبنائها على الشظف والتقصف ، وتخصص لهم وقتاً ليجتمعوا فيه في معسكرات طامة ، تسودها البساطة والاعتماد على النفس ، ويدرب الشبان فيها على تحمل الشدائد ، ومجابهة الطبيعة بعواملها للتخيرة ، كما يدرّبون على الطاعة لقائدهم ، والالتقياد له دون مناقشة ، حتى لا تفرق الأمة في سبيل الجماعة ، فتضل عزائمها وتخور قواها ، وتهار لأول ضربة تسدد إليها أوشدة تصدمها .

فلا عجب إذا استظهرنا هذه الغاية من الحج ، فالإسلام دين اجتماعي يعنى بترية النفس ، وتقوية الجسم ، وتعزيز الروح الجماعية في تابعيه .

ولقد صرح القرآن بالغاية الكبرى والفائدة العملية العظمى من الصلاة ، وهي تطهير المجتمع من الفساد ، وإقامته على أسس من الفضائل ، تبث السعادة في أرجائه فقال ( ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ) والحج بما فيه من

وسائل متعددة لتهديب النفس ، وتقوية الروح ، وتنشيط الجسم ، أقرب العبادات إلى الفائدة العملية وللعانى السامية التى لسانها فيه .

### معانى أخرى كريمة :

على أن هناك معانى أخرى كريمة ، تجلّى في تربية النفوس وصقلها ، وإعدادها لتعمل رسالة الإسلام ، وهى رسالة الإنسانية الكبرى ، فهذا المظهر العام الذى يظهر به الحجاج حين يتجردون من ملابسهم ، وزيئهم للتفاوتة تفاوتهم في الثروة أو العادة ، ويلبثون إلى لباس موحد لا يظهر فيه التفاوت للعرف في الملابس العادية . . وقد كشفوا رءوسهم ، وأصبغوا ولا تفاوت بينهم ولا تمايز في مظهرهم ، فالملك كالملوك ، والأمير كالخفير ، والغنى كالفقير ، والسكل يتجه إلى الله في ضراعة يسأله التوبة وللغفرة ، ويصبح الجميع في سباق لبوغي غاية واحدة ، هى الرضا من الله ، وقبول العمل ، ومحسن التنى والقوى بهذا ذل الحاجة الى الله ، وهوان نفسه أمام جبروته ، ويستشعر معنى المساواة في هذه العبودية ، التى ضمت في رداؤها الجميع ، دون تمييز ، فتتطامن نفسه ، وتنكسر حدتها ، ومحسن في لحظات نادرة يمر به معنى الأخوة الشاملة ، التى يحرص الإسلام على غرسها في قوس أتباعه ، ومن ناحية أخرى يرى الفقير الضعيف ذل القوى القوي أمام ربه ، يتضرع إليه ، ويسأله قضاء حاجاته ، كما يسأله الفقير ، فيس في هذه الحالة معنى المساواة ، يتحقق في رحاب الحج ، فهو والتنى والقوى عبيد الله المحتاحون إليه ، الفقراء إلى رحمته ، فترفع حينئذ معنويته وتعلو في نفسه منزلته ، ويسترد فيها قيمته . فلا يذل ولا يضعف إلا لله ، وبهذا وذاك يتحقق التقارب الذى يربطه الإسلام بين تابعيه ، ليعيشوا إخوة متفاهمين متحابين .

وأشهد أننى لم أر في حياتى مظهر للمساواة يتحقق بأجل معانيه كما رأيته في الحج ، فإن كان الفقير يقف بجانب التنى في صفوف الصلاة ، فإن مظهرها مختلف تمام الاختلاف في نظافة اللباس وجودتها ونوعها ، وإن كان هناك اتفاق في الامتناع عن الطعام والشراب في السيام بين التنى والفقير ، فإن ذلك أمر سلبى لا يرى ، ولا تلمل النفس بمظهره ، أما في الحج فقد نهى الحاج عن بدنه ملابس



للتفاوتة التي تنم عن غناه وقصره ، ويراها الناس رمزاً لقيمته في المجتمع ،  
واستبدل بها لباساً خاصاً مشتركاً متحداً أو متقارباً لا يدرك تفاوته .

وهذا الإشتراك في اللباس يوحي للانسان معنى كرمته ، ويجعله يحس معنى  
الأخوة الأولى ، « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ولم أكن وأنا في قافلة الحبيب أعرف الشخص الذي أمامي إلا أنه مسلم ،  
وقد احتاج إلى الله مثلي ، فالوزير والأمير أمامي تكاديهما ، لا أميز بينهم إلا إن  
جئت إلى السؤال عن أسمائهم وعملهم وانتقلنا سوياً إلى جو آخر غير جونا الذي  
نعيش فيه ولقد كانت نفسي تتفاعل بهذه للظاهر للموضة أمامي ، أكثر مما تفاعلت  
بالمحاضرات والأحاديث والقراءات التي مرت بي طول حياتي . ولا شك أن هذا  
درس من أكبر الدروس العملية للقيادة فيما نسيه الديمقراطية التي ينشدها جميع  
الناس ولا سيما عباد الله الفقراء والضعفاء ، فهو تدريب عملي شاق على التأخي  
وللظهر للوحد والشعور للوحد ، لا يتوافر في أي مظهر آخر من العبادات الأخرى .

### هل يستفيد المسلمون ؟

ولكن هل يستفيد المسلمون في حياتهم من هذا الدرس الواقعي البليغ ؟  
إنني أقرر مع الأسف أن غالبية الحجاج من العوام وأشباههم بل وأكثر  
للتقنين لا يفتنون إلى هذه المعاني البليغة ، ولا إلى هذا الدرس العملي المفيد ، ويمرون بهذا  
المظهر الممتلئ بالمعاني الجليلة دون أن يدركوا سره ومغزاه والفائدة التي يمكن أن  
يجنوها منه !!

وكان من الممكن أن يخرج الحجاج بمائة نسمة كبرى لو عنيانا بتلقينهم  
هذه المعاني ، ولفت نظرهم إليها في دروس عامة تلقى عليهم ، ولا سيما في  
مواسم الحج ، لأنها تكون ذات تأثير قوي على نفوسهم ، إذ الأمثلة الحية التي تمر  
بهم كل لحظة ، كبيرة النفع في تربية النفوس ، وإعصارها هذه المعاني السامية ،  
التي ينطوي عليها هذا المظهر . . ولكن بما أسفرت له انعدام العناية بهذه الدروس  
في الحج ، حتى البعثات التي تضم للتقنين تتحول إلى ركود وخمول ، لا يستفيد  
الناس منها بعض ما كان يخلق على إرسائها من آمال ، وكان من الممكن استغلال  
هذا الاجتماع المائل الذي يضم مسلمين من جميع أنحاء الأرض ، لتوجيههم

التوجيه السديد ، الذى يرشد إليه الإسلام ، نعم لو نهض المسلمون والعنيون بتوجيههم لاستغلال هذا الموسم العام لتوجيه النفوس ، وهى فى هذا الجو الروحانى أكثر استجابة للتوجيهات — لنظفنا بفائدة عظيمة من هذا الاجتماع .

ومن الممكن — لتحقيق ذلك — أن تمنى كل دولة اسلامية بإيجاد مرشدين نشطين ، من علمائها الدارسين الفاضلين ، مزودين بمكبرات الصوت ليحدثوا حجاجها ، وكل من يشترك معهم فى لغتهم عن المعانى الكريمة التى تنبعث من هذا الاجتماع العظيم ، ويستغلوا الروح التى تسيطر على الحجاج ، ليلتقلوا بهم الى حياة جديدة ، من العمل الصالح ، ويفرسوا فيهم الروح الاجتماعية التى يجب أن تسودهم فى كل حياتهم ، ويحصلوا من الحج نقطة تحول فى حياة الحجاج ، حقيقة لا طأ ، وجبذا لو زودت كل دولة وعاظها بكتيبات صغيرة تتحدث عن هذه المعانى حتى تتوافر كل الوسائل لتوجيه الحجاج .

وفى مصر يستغل الأزهر ووزارة الأوقاف والشئون الاجتماعية فرصة اجتماع الناس فى اللورد من كل ناحية ويتخذ الوعاظ والمرشدون من مكبرات الصوت أداة لإيصال مواعظهم وتوجيهاتهم لأكبر عدد ممكن ، فيحدثونهم عن أدوائهم وعبيرهم وعن العلاج الكفيل بالقضاء عليها ، ويفهمونهم القضايا الدينية الصميعة فى الأولياء وكراماتهم وزياراتهم ، كما يحدثونهم عن أعمالهم ومصلحتهم ، فيعود الناس بفائدة جديدة قد اكتسبوها من اجتماعهم ، فبذا لو أمكن إيجاد هذا بصورة مكبرة فى موسم الحج .

وفى الحج معنى آخر من المعانى الكريمة ذات الأثر البعيد فى حياة المسلمين فإن اجتماعهم من جميع الأنظار ، واختلاطهم ببعض يبعث فرصة كبيرة لإيجاد التعارف والتعاون ، وتبادل للنافع بين أكبر عدد ممكن من المسلمين ، فليست هناك فرصة تتاح للمسلم ، ليجتمع بإخوان له من المسلمين . جاءوا من أقصى الأرض كفرصة الحج ، وفى رحاب البيت قبله الجميع تكون النفوس أكثر استعداداً لاستشعار معانى الأخوة والتعاون ، ومن الممكن أن يعرف المسلمون فى أية بقعة من الأرض حالة إخوانهم المسلمين فى جميع أنظار الأرض الأخرى عن طريق التلاقي والتعارف الذى يقدم

التعاون بينهم والتهوض بالمسلمين جميعاً كوحدة متماسكة ، تدفع عن نفسها كل سوء يراد بها ، نعم من الممكن ذلك لو أراداه المسلمون وسعوا إليه وهيثوا الأسباب له ، ولكن هل هذا للذي متوافر الآن في أية صورة من صوره ولو مبسطة ؟ الجواب بكل أسف بالنفي ، وذلك لأسباب يهتنا أن نذكرها حتى نقرب إلى النفوس المستعدة إمكان تلافئها .

منها : أن أكثر الحجاج من كل قطر من العوام الفقراء ، الذين لم يعرفوا هذا للذي الكريم من الحج ، والذين لا يههمهم إلا أن يروا البيت ، ويتقنوا في أماكن الشعار ، ويرضوا نزعاً دينية في نفوسهم ويرجعوا ليقل إنهم حجاج ويعجزوا هذا الشرف وسط أقوامهم . والمتقنون الذين يأتون للحج وهم قليل يتقصهم حسن التوجيه كما تتقصهم وتصعب عليهم وسائل التعارف لو أرادوه وقليل منهم من يريد ذلك أو يسعى إليه .

ومنها : اختلاف اللهجات واللهجات بين الحجاج اختلافاً يصعب معه التفاهم ، فكم التقيت بمسلمين من جنوب إفريقيا وشرقها ومن الهند وباكستان وتركيا ، وغير ذلك ، وكنت شديد الدهشة إلى التحدث معهم ، والتعرف على أحوالهم ولكن اختلاف لغاتنا ، كان العقبة الكبرى أمام ما أريد . ولعل المتابع الذي تفترض الإنسان في حجه ، تحول بينه وبين كثير من رغباته في تحقيق هذه المعاني ولقد كنت شديد الرغبة في لقاء بعض علماء البلاد الإسلامية الذين عرفت أنهم يحبون في ذلك العام ولكن ما أصابني من متاعب حال يئسني — وأنا أسف — وبين ما أريد .

ولو استقل زعماء المسلمين وموجهوهم ، فرصة اجتماع ممثلين من جميع الشعوب الإسلامية في الحج ، وعقدوا لهم مؤتمراً يتحدثون فيه عن مواضع النقص وطرق الكمال في مجتمعاتهم ، وأحاطوهم علماء بشكاية إخوانهم المسلمين والامهم في الأنظار الأخرى ، وبصروهم بما يطلب منهم « كاخوة » من للمعاونة والمساعدة أقول لو استغل الزعماء هذا لكان مكسباً ضخماً للشعوب الإسلامية وقضاياها ، ولو أن الزعماء والرؤساء أنفسهم جعلوا من موسم الحج كل عام مؤتمراً يضمهم في رحاب البيت وفي أرض الرسالة ، ليتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا ، لكان ذلك خيراً وبركة على المسلمين .

ولعل علماء الدين من جميع الأقطار ، ومن مختلف المذاهب ، هم أولى الناس بالتسابق إلى هذا الاجتماع ليتفاهوا على إزالة كثير من الخلافات للذهبية ، التي ورثها لنا التاريخ ، وأصبنا بالتفكك من أجلها ، لأن علماء الدين هم القدوة ، أو هذا هو الذي ينبغي وعليهم أن يضربوا لرجال السياسة للثل في طرح المعوى ، والاتجاه إلى ما ينفع للمسلمين ويرفع عنهم الكابوس الثقيل ، الذي ظل يشغل كاهلهم ، ويوقف ركبهم ، ويشل حركتهم ردحاً طويلاً من الزمن ، وقد دفعنى شعورى بهذا المعنى إلى التحدث مع فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتى المملكة السعودية حينما كنت أقوم بالتدريس هناك ووجدت منه أنه يشاركنى هذا الشعور ، ويتحمس له ، وخطا في سبيل تحقيق هذا المعنى خطوات لم تسر حتى نهايتها وحينما كنت بالمند لمست رغبة جارفة من علمائها في التათيم بملاء البلاد العربية ولا سيما علماء الأزهر في موسم الحج ليتحدثوا معهم في مشاكلهم ويعرفوا اتجاهاتهم ، وكأود وود معى كل غلص أن يحيا هذا المشروع ويتلاقى في موسم الحج علماء الشعوب الإسلامية والمهتمون بقضاياها في مؤتمر ضخم منظم يقدر كل عام لتوجيه الشعوب الإسلامية إلى خير السبل التي تحقق أملها وترفع شأنها ، فإن الاجتماع في هذا المكان المقدس لا يتيسر — لظروفه المادية والروحية — في أى مكان آخر وصدق الله العظيم إذ يقول : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم » .

وهذه المنافع التي يشهدونها في الحج ، لا تقف عند حصر لو أنجهوا إلى استئلال كل فرصة في هذا الاجتماع الروحاني العالى ، وأتمنى أن يوفق الله زعماء المسلمين وقادتهم وعلماءهم ليوجهوا إلى هذا المؤتمر بعض ما يوجهونه من عناية إلى اجتماع الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، فإن الاتجاه إلى الشعوب الإسلامية ، وبث روح التعاون والتآخي بينها ، هو أقوى وأجدرى على هذه الشعوب من التمس إفسافها من هذه الهبات ، التي برهنت الأيام على أنها وسيلة في يد الأمم القوية تستعين بها على هضم حقوق الشعوب الضعيفة وإن القوة التي تبعت من داخل الشعوب الإسلامية وتنظم في هذا المؤتمر الاسلامى العظيم ،

لتضيق عن الوقوف طويلاً على باب الأمم المتحدة ، ينتظرون منها ما ينتظره  
الظلماء من السراب الخداع ، فقد علمتنا الحوادث أن الأقوياء لا يسلمون  
لضعف جبهة إلا بعد أن يجبرهم على ذلك جبراً ، وأنه لا سبيل لضعيف يتنى  
الفرز بجبهة إلا أن يقوى موعده إخواناً يماضونه ، ويشدون أزره في  
إخلاص ، ولن يجد أى شعب مسلم نصيراً له كما يجد في الشعوب الإسلامية  
الأخرى ، متى أحسن توجيهها « وإن هذه أمتكم واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وإنه مما يزيدنا أملاً في المستقبل أن نرى أحد قادة المسلمين مدرّكاً تمام  
الإدراك ، للدور العظيم الذى يمكن أن يؤديه هذا المؤتمر للهوض بالمسلمين ،  
وخدمة قضاياهم ، حين نمسك بكتاب فلسفة الثورة نجد السيد الرئيس جمال  
عبد الناصر ، يولى هذا المؤتمر عناية خاصة ، وهو يضع خطته للهوض بوطنه  
الصغير ، ووطنه الإسلامى الكبير ، الذى يمتد عبر قارات ومحيطات ، يقول  
في آخر هذا الكتاب :

« ثم تبقى الدائرة الثالثة ، الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى  
قلت إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت  
الشمس إلى قبة واحدة وتهمس شفاهم الحاشمة بنفس الصلوات » .

« ولقد ازداد إيمانى بمدى الفاعلية الإيجابية التى يمكن أن ترتب على تقوية  
الرباط الإسلامى بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة  
العربية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير » .

« ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من  
العالم وصل إليها الإسلام ثم وجدتني أقول لنفسى » .

« يجب أن نتخير نظرتنا إلى الحج لا يجب أن يصبح الذهاب إلى الكعبة  
تذكراً لشخول اللجنة بعد عمر مديد فقط أو محاولة ساذجة لشراء التفران  
بعد حياة حافلة » .

« يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم  
إلى متابعة أنبائه لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً بطريقة لقراء الصحف

وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ورجال  
الرأى قيم وعلماءها في كافة أنحاء المعرفة وكتابها وملوك الصناعة فيها  
وتجارها وشبابها ليضعوا في هذا البرلمان الاسلامى العالمى خطوطا عريضة  
لسياسة بلادهم ، وتعاونها معا حتى حين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام . «  
« يجتمعون خاشعين . . ولكن أنوياء متجردين من اللطامع مستضعفين لله  
ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم حاملين بحياة أخرى . . مؤمنين أن لهم  
مكاناً تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله في هذه الحياة » ١ .

## أماكن الحج

بعد أن وصلنا إلى هذه النقطة ، وفرغنا من بحث للعانى الذى يمكن للباحث  
الفاحص أن يجدها في الحج وأعماله للتنوع ، أشعر بأن في النفس أشياء  
لا أستريح إلا إذا وصلتها بنفوس القراء ، وهذه الأشياء تدور حول أماكن  
الحج هذه وما هي عليه .

إن مكة العاصمة الروحية للمسلمين وهم مئات الملايين ، يحج إليها كل  
عام مئات الآلاف منهم وفيهم بمحمد الله أغنياء أصحاب ثروات ولهم دول  
وسلطان وإكبات وقد مر أربعة عشر قرناً تقريبا ، وللمسلمون يتدفقون  
إلى مكة ، وما حولها ، وإلى المدينة ، وكان ولا يزال منهم حكام تدفعهم عواطفهم  
الدينية إلى أداء الفريضة ، وإشباع الرغبة الدينية بزيارة هذه الأماكن المقدسة  
واعتقد أن كل مثقف من أهل البلاد أو من الوافدين عليها لابد أن يدور  
بنفسه ما دار بنفسى ، عندما شاهدت هذه الأماكن لأول مرة ، لقد انتابنى تفكير  
متمزج بالأسى كثيراً وقلت : هل كان يليق بملايين المسلمين منذ أن قامت لهم  
إمبراطورية ضمت الشرق والغرب إلى الآن أن يتركوا هذه الأماكن على حالتها ؟  
التي تراها ؟

مكة : مهوى أقدسة للمسلمين ، كيف تكون مدنهم للتوسعة في شتى دولهم  
أحسن منها حالا ، وأرقى منها تنظيماً ، وأوفر منها راحة ؟ وعرفة ومنى  
والزودلفة ؟ كيف يتركها السابقون في مئات السنين للنازية حتى تتسلمها منهم  
كما تركها الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع تغير طفيف في بعض المعالم ، لا يوفر  
تنظيماً ، ولا يجلب راحة ؟

الخلفاء الأمويون والعباسيون ومن بعدهم ، وحكام مصر وخلفاء بني عثمان ، الذين حكموا هذه الأماكن للقدسة ، ماذا فعلوا لها ، حتى يوفروا الراحة للآلاف من قاصدها كل عام ؟ يمر الإنسان بمرقة ويعني فلا يجد للساجدين من هؤلاء أترا ملموساً فيها مع شدة حاجتها للأعمال . . ويمر الإنسان بمكة ويتفدها فلا يرى هؤلاء كذلك كبير فضل في تنظيمها والرق بها ؟ !

هل يليق بالعاصمة الروحية للملايين للمسلمين على مر السنين ، أن تكون مبانيها وشوارعها على هذا للنظر ، الذي يقل عن نظائرها في المدن للتوسعة في الدول الإسلامية المختلفة ؟ !

لو أن هذه الأماكن لتغير للمسلمين لحولوها إلى جنات فيحاء ، ولجعلوا من مكة عروس العالم في نظامها ومبانيها وأناقها ، وجعلوا من مئى وعرفات جنات مرعة جذابة ، وبدلوا متاعبها إلى راحة واطمئنان ، يذهب الحاج إليها ، وكأنه يذهب إلى نزهة جسمية وروحية معاً .

ولكننى مع ذلك لا أريد أن أبحت كثيراً عن مسؤوليات اللاضنين ، فذلك بحث لا خير فيه إلا بقدر ما نستفيد منه نحن في شد عزائنا ، لنصبح أخطاء اللاضنين منا أو إهمالهم . . والذي أريد أن أقوله هنا للمسلمين جميعاً — حكماً وشعباً — وفي مقدمتهم حكام هذه البلاد للقدسة أن من الممكن أن تأخذ هذه الأماكن حظها وأن تعوضها ما فاتها في الماضي ، وإن المخترعات الحديثة وأساليب الحياة العصرية ، لتسهل علينا كثيراً عما نحب أن نعمله في هذه الأماكن وإننى برغم ما أعرفه من بعض الأعمال الإصلاحية الطيبة التى تقوم بها الحكومة السعودية منذ أن فتح الله عليها خزائن الثروة من البترول ، سواء في عرفات ، أو في مئى ، أو في مكة وللدينة فإننى أعتقد أن الإصلاحات التى أنشدها وينشدها المسلمون فوق طاقة ماله دولة إسلامية واحدة ، وللمسلمون جميعاً مسئولون عن النهوض بهذه المشروعات في قوة وتضافر ، ليجعلوا من الرحلة إلى الحج ، في هذه الأماكن رحلة عمهلة لا يتطرق إلى نفس الحاج أثناءها ما يتطرق إليه الآن من مضايقات فوق الطاقة ، ومؤذيات لا تتحملها الناس . .

إن الإنسان يخرج للحج وأول شيء يقدره أنه سيموت هناك من الحر ، دون أن يجد إسعافاً يسهفه !

وقد رأينا بوادر العمل لهذا الإسعاف من المستشفيات التي تقيمها الحكومة الآن وتنفذ كثيراً من اللوب ولكنها دون الحاجة بمراحل . فلماذا لا تساهم الدول الإسلامية في الإكثار من هذه المستشفيات ، وترسل أطباءها وعمرضها يقوموا فيها باستقبال المرضى من حاجتها ؟

لقد دخلت المستشفى الذي أعدته الحكومة السعودية بمرض معي ، أصابته ضربة الشمس وقد راعني كثرة المرضى ، وتكدس الصب تكدساً لا يمكن للأطباء والمرضى القلائل احتلاله ، وكان المرضى من كل لون وجنس ولثة يشنون ويشكون ، ولكن من ذا الذي يعرف شكواهم ؟ وإنني لا أزال لأن برغم السنين التي مرت أنلم ألماً يستولى على كل حواسي ، حيناً أتذكر منظر رأيت واشتركت فيه : امرأة وردت للمستشفى مصابة بضربة الشمس وهي في التزع الأخير لا تكلم العربية لا يعرف أحد في المستشفى اسمها أو جنسها ، والمرأة تكلم وكأنها تريد أن تفهمنا اسمها ، ومكان زملائها ، ومن أية دولة هي ، ونحن كثيرون حولها ، نحاول أن نفهم فلا نستطيع واستمرت الحال دقائق كلها لم نحس ، والمرأة تقرب من الصمت ، ونحس لهفتها على إقحامنا أحوالها ، ونحن كذلك متلهفون ، ومع ذلك أخذت إلى الراحة النهائية في هذه الحالة المحزنة ، دون أن نعرف عنها شيئاً . وصممت أناساً يشكون ويشنون والمرض بجانبهم حيران لا يعرف الشكوى ، ولا مصدر الأتني ، وماذا يعمل المرض ؟ هل من اللروض عليه أن يعرف هو والأطباء لهجات العالم الاسلامي ، وهي عشرات ؟

وهنا - في هذا الموقف المؤلم - أحسست الحاجة الماسة إلى ضرورة وجود أطباء وعمرضين من كل دولة ، لها حجاج ، حتى يقوموا على خدمة مرضاهم ، والتعرف على مرضهم والاستجابة لطلبهم !

إنني - وقد أدبت الحج مرة - أريد أن يرجع الحاج بعد رحلته بروحانية تقوى روحانيته التي أقبل بها على الحج أريد ألا يعلق بذهن الحاج أشياء منفرة عن الحج ، أريد أن نجذب إلى الحج مرات كل من تعود في حياته النظافة والمحافظة على صحته ونفسه .

ليتنا تفهم السر من الحج ، وتفهم مقدار الخفران ، الذي جعله الله للحج البرور ، حتى نحرص عليه ونصل بفضل الله إليه . . . ليتنا ! !



## النبأ

بقى علينا كذلك أن نبث مسألة الدبائح التي تنحر في منى ومكة وعرفات في موسم الحج إن الله قد فتح باباً للعاج يجبر منه بعض مايع في نسكه من نقص أو خلل وهو أن يذبح . ومن ذا الذي يتم أفعاله في الحج كما يطلب منه ؟ فلا بد إذن من الذبح ، وحتى الذي يظن أنه تم أفعاله لا تستريح نفسه إلا إذا ذبح . . . ويتم كل هذا الذبح في أيام متتابعة ، ومن مئات الآلاف من الحجاج ، لقد كان عدد الحجاج في السنة التي أدت فيها فريضة الحج حول الثلاثمائة ألف حاج من جميع الأقطار . . . وعرفت من قرب وعن تجربة أن كثيرا من الحجاج لا يكتفي بذبيحة واحدة بل يذبح ذبيحتين أو أكثر وعلى فرض أن هناك قلائل من الحجاج لا يذبحون ، فإن من الممكن أن تقول في سر ونحن آمنون من الخطأ والمبالغة إن متوسط الذبح ذبيحة لكل حاج ، ومن ذلك نستطيع أن نقول إن ما يذبح باسم الفقراء والمساكين في أيام ثلاثة لا يقل بحال من الأحوال عن ثلاثمائة ألف ذبيحة ، وإذا أردنا أن نتوسط أكثر على سيل الجدل نقول مائة ألف ذبيحة وإذا جعلنا ثمن الذبيحة في المتوسط خمسة جنيهات كان ما ينفق على الدبائح نصف مليون من الجنيهات إن لم يزد عن ذلك .

هذا حساب بسيط التزمنا فيه المؤكد جدا من الأرقام ، حتى لا يتهنأ أحد بالمبالغة في التقدير وإن ضخامة المبلغ الذي ينفق في هذا السيل يوجب علينا أن نحرص على وصوله إلى أيدي أربابه من المستحقين — حتى تتحقق حكمة الشارع من الذبح في هذه الأيام . . . وإن كان بعض الناس يقول إن المهم أن نذبح ونزريق السماء وكفى . . . فإني لا أتفق معه في هذا وأرى أن الشارع الحكيم لا يبدفنا دفعا إلى مجرد إراقة السماء دون أن يكون القرض من ذلك إطعام المحتاجين مع امتثال أمر الله في الذبح .

فلى هذا تنسأل : هل يوجد من المحتاجين من يمتص مائة ألف ذبيحة تذبح لتؤكل في ثلاثة أيام . . . ؟ العقل يحيل ذلك . . . والواقع يؤيد هذه الاستعالة فقد رأينا آلافا من الدبائح تلقى في القضاء ؛ والحرارة تبلغ ذروتها ، فتفسد

وتعفن في سرعة ؛ فيضطر السملون إلى إهالة التراب عليها ، حتى لا تؤذى الآلاف من الناس برائحتها ، وما يتولد فيها من جرائم ومضار ، وهكذا تشهد مئات الآلاف من الجنيات بهال عليها التراب في ساعات معدودات ، ويحرم منها للسملون : الدافع الذي يدفعها ثمنا لذيعة ، وغيره الذي لم تصل إلى يده ، لأنه غير موجود في هذا المكان ليستطيع استغلالها . وتكرر هذه الحالة للؤسفة كل عام وتذهب مئات الآلاف من الجنيات سدى .. كأننا ندقها تحت التراب بأيدينا ، تحرياً إلى الله !! وما كان الله وهو الخير ليرضى منا بهذا التصرف الذي لا يتفق مع العقل ولا مع للصحة ، وإنما يتعالف مع السفة والتبذير ، وإضاعة للمال فيما لا فائدة فيه . . إن نفس الانسان لتثور كلما رأت هذه الآلاف تذهب مع الرياح كل عام ؛ ويأسى لهذه الثروة الهائلة التي تضيع ، دون أن تنتفع بها أى انتفاع كان ، مع أنها كافية لإقامة مشروعات ضخمة ؛ وإصلاحات واسعة يرى المسلمين في أشد الحاجة إليها ؛ ولا سيما في البلاد للقدسة ؛ بل نفس المرافق في هذه البلاد في ميسس الحاجة إلى مال تقوم عليه كما سبق أن تحدثنا عن ذلك . . فهل يتفق مع هذا أن ندفن مئات الآلاف كل عام تحت التراب !! اعتقد أن الله لا يتعبنا بهذا الوضع ولا بهذه الصورة . . ولقد كان الدبح معقولاً يوم أن كان للسملون محدودين ، وحولهم قراء يمكنهم أن تمتصوا هذه التبايح أما وقد كثر للسملون وكثر الحجاج وسيكثرون كثرة هائلة كلما تيسرت سبل الحج ؛ حتى تصل هذه الأرقام التي ذكرناها إلى أضعاها ؛ فهل يعقل أن تبقى الحال على ما هي عليه الآن ؟! نكتفي بأن ندبح ونرى تحت الشمس ، ليأخذ الفقراء ربع الكبة للذبوة أو أقل . ثم يترك الباقي للتعفن والفساد . . ولا ينتفع به أحد !! أظن أن هذا الوضع لا يرضى به إنسان عاقل يدرك شيئاً من حكم الشرع في كل أحكامه وتكليفاته . .

إذن فما هو الحل . . . ؟

يظهر أمامنا حلان لهذه المشكلة . .

أما أولها : فهو أن تتحلل من ضرورة الدبح ، ونكيف أعمالنا حسب ما نراه من للصحة ، فإذا رأينا أن هناك قراء في حاجة إلى ذبح ذبنا ، وإذا

رأينا حالة تشبه هذه الحالة التي وصفنا ، تركنا الدقيق وتصدقنا بالمال . . أعطينا  
فقيراً إن وجد ، أو وضعناه في صندوق بعد ذلك يصرف منه طوال العام على  
فقراء الحرمين .

وأما ثاني الحليين : فهو أن نقيم مصنعاً لتجفيف هذه اللحوم الكثيرة ،  
والاستفاد بجلودها وعظفاتها ، وننتفع بهذه اللحوم المحفوظة طوال العام أو نبيعها  
وننتفع بثمرها ، حيث نوزعه على المحتاجين . . وهذا الحل يقوم على ضرورة  
النمك بظاهر ما أمرنا به الشارع من الدقيق اعتباراً بأن الدقيق وإبراقه السماء  
تقرب إلى الله ، ولولم نجد من الفقراء من يأكل ما نذبحه . . . لأن القربى هي  
الدقيق ، ولودفناه بعد ذلك تحت التراب ! ! وحجة هذا الرأي ظاهرة فهي تقوم  
على الوقوف عند نص الشارع . أما هذه الحالة الطارئة من كثرة الدقيق فيمكن  
للمسلمين تنظيمها ، لو أنشأوا مصنعاً لتعبئة اللحوم في علب تحفظها ، ثم نوزع  
منها على الفقراء ، أو نبيعها ونوزع ثمنها عليهم . ثم يدكرون دوافع أخرى  
للتمسك بالدقيق ، منها : أنها تذكر بحادث إبراهيم مع ابنه اسماعيل عليهما الصلاة  
والسلام ، ومنها سر اقتصادي آخر وهو استهلاك عدد كبير من اللواشى التي تنتجها  
البلاد تيسيراً لهم ، وتحقيقاً لدعوة إبراهيم عليه السلام : « ربنا إني أسكنت من  
ذريق بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من  
الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » ومع أن البلاد العربية  
الآن تستورد حاجتها من اللحوم مما تسقط معه هذه الحجة فإننا لا نقف عند ذلك ،  
بل نقول إننا لم نمنع الدقيق ، وسوف يستمر قائماً لمن شاء أن يذبح ، وكل ما فعله  
هو أن نفتح باب الخيار للعاج ، إن رأى للصحة في الدقيق ذبح وإن كانت الحال كما هي  
الآن اتجه إلى المال . يدفعه إلى فقير أو يضعه في صندوق الفقراء وللصحة العامة  
في هذا التخير ظاهرة واضحة ، لأنها ستعفظ لنا مئات الآلاف من الجنيتات  
تنتفعها في صالح المسلمين ، بدلا من أن ندفعها تحت التراب مختارين ، وللصحة  
العامة . . لها في توجيه التنريع ميزان أى ميزان ، فلقد رأينا عمر رضى الله عنه  
يقف حقا للؤلؤة قلوبهم في الصفقات ، لأنه رأى أن مصلحة المسلمين هي عدم  
الدفع لهم ، بعد أن قوى شأن المسلمين ، وأصبحوا في غير حاجة لتأليف جماعة

من الناس ، مع أن القرآن نص في صراحة على أنهم يأخذون ، وهناك أمثلة كثيرة مشابهة لهذا — لا داعي لإيرادها كلها — في رعاية الصلعة في أحكام السابقين ، لكننا نحب أن نذكر مثلاً واحداً قريب الشبه جداً من حالتنا التي نبينها ، لأنه في موضوع أخذ القيمة في الزكاة بدلاً من عين كانت هي الأصل ، والزكاة من أركان الإسلام التي تعبدنا الله بها .

كان معاذ بن جبل رضى الله عنه والياً على اليمن وتصرف في الزكاة التي كان يجيها تصرفاً استهدف فيه الصلعة العامة ، جاء في جامع الأصول ج ٥ ص ٣٤٥ حديث ورد في البخارى قال : « قال معاذ لأهل اليمن اتوني بعرض ثياب خيس<sup>(١)</sup> أو ليس في الصدقة مكان الشعر والقدرة ، أهون عليكم ، وخير لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة » أخرجه البخارى .

فهذا معاذ رضى الله عنه ، من أقرب الصحابة وأحبهم لرسول الله ، وأتقهم لدينه ، يتصرف هذا التصرف ، وأمامه أحاديث تنص على أخذ أشياء بعينها تركها وأخذ بدلاً هذه العروض من النسيج ملبوساً أو غير ملبوس ، وقد نص هذا الحديث للروى عنه على أنه أخذ هذا النسيج في الزكاة بدل الشعر والقدرة ، وصرح بأن السبب في هذا إنما هو مراعاة مصلحة الدافع والمدفوع له « أهون عليكم وخير لأصحاب رسول الله بالمدينة » فمراعاة مصلحة الطرفين هي السبب في أخذ القيمة من النسيج بدلاً من الشعر والقدرة المنصوص عليهما .

وقد أقر معاذ على هذا التصرف ، ولم يعب عليه أحد ، ولم يقل له : لماذا تركت ما أمامك من النصوص ، وتصرفت بأخذ القيمة ؟ لم يقل له أحد هذا ، لأن الصلعة فيها ذهب إليه ظاهرة واضحة ، ولم يخرج في تصرفه عن توخي المنفعة سواء للدافع أو للمستحقين للصدقة وهي زكاة الزرع الواجبة .

فتحن إذا جئنا الآن ورأينا وجه الضرر البالغ في التدبج على الصورة التي تراها الآن . ولعلنا لا مانع من أن ندفع قيمة الهدى إلى الفقراء لأن القيمة أتت لهم ، لأننا حين ندفع القيمة تتفادى نفسها وتبذيراً وأضراراً أخرى تترتب على تعفن

---

(١) ومنه ثياب صفيقة . وروى خيس باليزومناه ثياب مما طولها خمسة أذرع . اهـ هامش الصفحة نفسها باختصار .

الدبائح ... و.... و... إلخ . إذا قلنا هذا لم نكن بيدين عن القصد والاعتدال ، ويكون تصرفنا هذا شبيهاً بتصرف معاذ في أخذ القيمة مع وجود النص أمامه على الحبوب ، وللصلحة في تصرفنا قد تكون أظهر وأوضح من للصلحة التي رآها معاذ فقد استهدف هو التسهيل على الدافعين نعم مجرد التسهيل . كما رأى أن أهل المدينة قد يكونون أشد حاجة إلى الملابس ، أشد حاجة . . . مع أنه كان من الممكن على الدافع أن يشتري بضمن الأقمشة شعيراً أو ذرة ويدفعها لمعاذ إن كان قد تصرف فيما عنده من حبوب . ومع أن الدرة كذلك نافع لأهل المدينة ؛ لكن معاذاً أحب الأحسن يعني لم تكن هناك ضرورة ملجئة لمعاذ رضى الله عنه جعلته يتصرف هذا التصرف ، بل كان هناك استعسان وتفضيل . مع أن في كل خير . فلجهد أرجحية الخير في ناحية اختارها وأخذ القيمة .. مع وجود النص على العين .

وفي حالتنا هذه في الحج نجد الضرورة واضحة ظاهرة وملحة في دفع القيمة لأنه ليس أمامنا شيان تفاضل بينهما أيهما يزيد خيراً على الآخر بل هناك ناحية فيها ضرر بالغ وتضييع أموال باهظة ، وناحية أخرى فيها منفعة وحفظ أموال فأيهما نختار ؟ أظن أن الأمر واضح وظاهر .

يقول الواقفون مع النص : إن العيب فينا لأنه يمكن أن ننظم طريقة نتنعم بواسطتها بهذه الأموال ؛ ويقترحون إنشاء مصنع لحفظ هذه اللحوم كاللحوم التي تأتينا من الخارج ، وبذلك نمنعها من التلف ونستطيع توزيعها على الفقراء طول السنة أو نبيحها ونوزع ثمنها على الفقراء .

وعلى فرض التسليم بنفع هذا المشروع . . لماذا نعمل إلى أن يتم ؟ . . هل ترك الأموال تذهب كما تذهب الآن هباء ؟ . . وإذا قالوا فلتذهب كما ذهبت في الماضي حتى نقيم هذا المصنع ؛ قلنا لهم تعالوا بنا إذن تناقش فكرة المصنع الذي تعلقون عليه ألسكم ، إن المصنع سيستقبل في ظرف أيام قليلة عشرات الآلاف من الدبائح قد تصل إلى مائة ألف وقد تزيد بازدياد عدد الحجاج تبعاً لتسهيل طرقه فهل يستطيع مصنع أن يقوم في هذه الأيام القليلة بصنع هذه اللحوم للسكسة وتعبئتها في علب ؟ وإذا لم يستطع فهل يعد ثلاثيات كبيرة للمحافظة عليها حتى يبيحها ، ولم تكون مساحة هذه الثلاثيات ، ولم تتكلف ، وإلى مق

تستطيع هذه التلاجات أن تحفظ هذه اللعوم للكسدة فيها ؟ وكم من الآلات والعمال يجب توافرها لمعالجة هذا العمل الضخم ؟ وإلى متى يستمر هذا العمل ؟ هل يستمر طول السنة ؟ وهذا بعيد لأنه غير ممكن عملياً ، أو يستمر شهراً أو شهرين ، وحينئذ يتعطل العمال وتقف الآلات بقية السنة ، وهل نكون ملازمين حينئذ بأجور العمال وللوظفين طوال السنة كي يعملوا معنا هذه الأسابيع أو الشهور ؟ وكم يتكلف كل ذلك من الأموال ؟ وهل نستطيع بعد أن تنفق على المصنع وموظفيه وعماله ولوازمه هذه النفقات أن نجد فائضاً من دخل للمصنع نوزعه على أربابه ومستحقه الأولين ، وهم الفقراء الذين أقمنا هذا المصنع من أجلهم ، وإذا بقي شيء فما قيمته إذن ؟ هل نستطيع أن نقول إن حق الفقراء وصل إليهم كله أو نصفه أو ثلثه ؟ ؟ إنني أشك في هذا لأنني أعتقد أن مصاريف هذا المصنع ستمتص ثمن كل ما يصنعه تقريباً ، ويكون مثلاً في هذا تماماً مثل ما جرى في بعض الأوقاف التي وقفت على مساجد وأعمال خيرية فامتص الموظفون والشرفون على هذه الأوقاف كل إنتاجها أو أغلبه وأخذوه ماهيات وأجوراً ونفقات ، ولم يبق شيء للجهات الأصلية التي وقفت عليها . ١١ .

وإذا سلمنا جدلاً بأنه سيكون هناك ربح من هذه العملية يوزع على الفقراء فالنتيجة أن اللانمين لدفع القيمة أقروا بمجاوز بيع هذه اللعوم وإعطاء قيمتها للفقراء . ١١ . وأعتقد أن هذا لف متعب ثم رجوع إلى فكرة دفع القيمة آخر الأمر وعلى رأى التل المسمى المعروف « ودنك مينن يا جفا » . إذا أجزنا أن نبيع هذه اللعوم للصنوعة في المصنع ونعطى ثمنها للفقراء ، فلماذا نلف ونودور ؟ لماذا لا نفتح الباب لدفع القيمة من أول الطريق ؟ ونوفر على الفقراء ما أخذ من حقهم تكلفة للعمال والمصنع والتعبئة . . الخ .

إننا بعد أن نصفي أرباح المصنع ونسدد مصاريفه قد لا نجد شيئاً نعطيه للفقير وإذا وجدنا شيئاً فهو تافه وقليل على كل حال . . لأن اللديعة التي أشرتها بخمسة جنيهات وأدفعها للمصنع ليحفظها ويبيعها في علب لتباع لا يمكن بحال أن تصفى أرباحاً بخمسة جنيهات لأنها ستتحمل مصاريف صنعها . . وثنم البيع معروف في الأسواق من الآن . . وتكون النتيجة أن الخمسة الجنيهات التي

دفعنا ثمننا للذبيحة لن يصل منها شيء للفقير وإن وصل شيء فهو قليل على كل حال .

وكان من الأولى أن أدفعها من أول الطريق لصندوق الفقراء حتى توزع كلها عليهم أو تقام بها مشروعات خيرية إصلاحية ترفع من شأن المسلمين .

إنني أدعو كل متحمس لفكرة المصنع أن يدرسها عمليا ويسأل نفسه هذه الأسئلة التي أوردناها ولقد كنت من قبل أقول مثل قولهم لكني أمام هذه الصعوبات وأمام امتصاص مصاريف المصنع لمعلم إنتاجه إن لم يكن كلها في رأيي ثم أمام ما رأيته من تصرف السابقين الأولين رضوان الله عليهم في مواقف مشابهة لموقفنا هذا رأيت أن الأمر يستلزم منا أن نتسكّر وأن نفتتح باب الحوار بين القيمة والذبح لكل حاج ليختار المناسب الأصلح .

بقيت للمتمسكين بالذبح نقطة لأسميها حبة .. وإلا أعطيتها فوق قيمتها ؛ فهم يقولون إن العرب يعيشون على رعي الأغنام والإبل ويعتبر الحليب موعدا لهم لبيع مواشيهم وإلا بارت لأنهم لا يستطيعون تصديرها وهي فوق حاجتهم من الاستهلاك فلو فتحنا باب القيمة كسدت مواشيهم ، ولقد قلت : إن هذه ليست حبة ولكنها من المبررات وهي لا تقف أمام الواقع لأن العرب هناك الآن يتمددون على استيراد أكثر ما يذبحونه من الحبيشة والصومال وإريتريا والسودان والشام وليس في بلادهم ما يكفيهم ويسد حاجتهم الآن نظرا لارتفاع مستوى المعيشة وكثرة الذبح وقلة الأمطار وشيوع الجذب . . فهذه العملية — أعني عملية الذبح — لا تهدي — إنما تروج أهالي هذه البلاد التي تمد العرب بالأغنام .

ثم هم يقولون كذلك إن الله يتعدنا بإراقة الدم ، والله سبحانه وتعالى أن يتعد عباده بما يشاء ، بما يدركون حكمته وبما لا يدركون وأنا أسلم لهم بهذا من الناحية العامة ، لكني لا أسلم لهم أن التبعّد هو مجرد إراقة الدم وكفى ، لأنني أفهم أن الذبح نفسه وسيلة لمعنى آخر يتجلى في غير ذلك من الصدقات والأنصيات والكفارات ، وهو انتفاع الناس من الفقراء المحتاجين بذلك ، لأن الصدقة والأنصية والذبح في الحجب إخراج مال من يد إلى يد أخرى بقصد

الاستماع لا بقصد الاهدار فنحن ندرك الحكمة من الذبيح في الحج ، كما ندرکہا في الأنبياء ، كما ندرکہا في الصدقات الواجبة وغير الواجبة ولا نقل أن يتعبنا الله بإهدار مئات الآلاف من الجنيات وحرمان الناس منها مجرد أنه يريد منا إراقة الدم غسب ولا شيء بعد ذلك . فالذبيح في الحج يشبه الكفارات في اليمين والظهار والقتل وغيرها . . تكفير عن خطأ أو بدل عن متعة يتعمله الشخص القادر في ماله لينفع عباد الله المحتاجين فالنفع عنصر هام أو هو العنصر الهام في الموضوع فإذا لم يتحقق فكيف نقول إننا فطنا بما علينا ؟ لا . . قد يكون كلامهم في عبادة بدنية خالصة يؤديها الإنسان فهو يقوم بها ولو لم يدرك مغزاها لأنه هو سيعمل النفع منها لنفسه ثوابا عن هذا الخضوع وليس هناك طرف ثان يفقد نفعه من هذه العبادة البدنية كالصلاة وعدد الركعات وتحديد الأوقات في الصلاة لكنه في الذبيح . . . لأنه إذا جاز للإنسان أن يفهم أعمال الحج الأخرى أنها مجرد أعمال تعبدية فلا يجوز له أن يفهم في الذبيح كذلك لأن الفرض واضح بين وله نظائر — كما قلت — في الأنبياء والصدقات والكفارات فلا بد إذن من انتفاع آخرين من الذبيح . . . فإذا لم يتحقق كما نرى الآن فقد قعدنا العنصر الهام فيما يراد من الذبيح (١) .

وليس هناك إنسان يقول مثلا : إننا إذا لم نجد من نعطي الصدقة أو الكفارة أو الأنبياء رمتها أو دفناها في الأرض ونكون بذلك قد أدينا ما علينا ۱۱۱ .

ثم لم أخيرا تساؤل . . . هم يقولون : لو أننا تصرفنا وأجزنا إعطاء القيمة يكون معنى ذلك جواز حرية التصرف في النصوص ؟ ونحن نقول : وما رأيكم فيما فعل عمر رضي الله عنه في حرمان اللؤلؤة قلوبهم من الصدقات مع أن القرآن قد نص على إعطائهم ؟؟ وما رأيكم فيما فعل معاذ من التصرف في الصدقة من أخذ النسيج مكان الدرّة والشعر مع وجود النص أمامه ۱۲۴ . وفي موضوعات أخرى تصرف الصحابة فيها في النصوص الواردة فيها . . فهل منع النص من أن يتصرف عمر أو معاذ

(١) انظر كتاب تاريخ الفقه للدكتور محمد يوسف موسى



أو غيرها حسب ما يراه من المصلحة ؟ ! فلنا نريد أن نطلق الأمور  
تجري بدون ضابط ولا رابط حتى يقال إن الأمر سيؤدي إلى هجر  
النصوص ، ومع ذلك فنحن أمام ضرورة وحالة حثارة ومثقلة للأموال فكيف  
تنصرف فيها ؟

وبعد : فهذا رأى أعرضه على القراء للتمحيص ولا أنصّب له إن لم أجد الحق  
في جانبه ، لأنه يهمني أن نصل إلى الحق والخير دون تمصب ، ولعلنى بذلك  
أكون قد فتحت باباً لأهل العلم ينفذون منه إلى البحث وتقرير الصواب . إن أريد  
إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

## ١٠ - الحجرة

أوالصالح بيوت  
العقيدة والعاطفة



قال تعالى : ( إِلَّا تَنْصُرُوهُ  
فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَجَهُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ  
إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ  
لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ  
مَعَنَا ) .

سورة التوبة ٤٠

إذا كان المجاهدون وأصحاب الدعوات الإصلاحية يوطدون أنفسهم دائماً  
-- وهم في مستهل طريقهم -- على تحمل للصاعب والشقات وتقبل للتاعب والصدمات.  
فإن آخر شيء يفكرون فيه أن يدفعوا بمن جهادهم وبلائهم في سبيل فكرتهم  
وبلدكم تكرر الناس لم .. حتى يضطروهم لتأدية وطنهم الذي يجاهدون من أجل  
سعادته ، وأن تمتد إليهم الألسنة والأيدى بالسوء -- أيدي الذين يرجون إسعادهم --  
حتى يحاولهم على الفرار من وطنهم الحبيب ناجين بأنفسهم ومعهم إيمانهم وفكرتهم  
التي تؤنسهم في غربتهم وتزاملهم في وحشتهم وفراق الوطن أفدح شيء تتعلمه .  
نفس : الفراق الذي يرغم الإنسان عليه ، وينزع به من بين أحبابه ثم لا يدري  
هل يعود إليه ؟ ومتى وكيف ؟ إن نفوس المسلمين حساسة جياشة دائماً بمواطنها  
نحو الأرض التي نشأوا فيها والصحاب الذين زاملوهم في عهد الصبا وملاعب  
الطفولة ، وهم أشد الناس حباً ووفاء لكل شيء اتصل بحياتهم ، وأثر في نفوسهم  
التي احتضنتهم ، والملاعب التي وسعتهم ، والأقارب الذين نشأ على حبهم وعطفهم  
والزملاء الذين تنهوا نفوسهم إليهم ، ويختلس الأوقات وينتهيها ليقضى سمره معهم .

ما أحب ذكريات الصبا والشباب إلى الإنسان ! وما أصدقها بنفسه ، وأقربها

إلى قلبه ! إنه ليحن إليها دائماً ، ويركن قلبه إلى مواطنها كل وقت إنها جزء من نفس الإنسان وروحه ، فهل يفرط فيها راضياً ؟

إن اللوعة القاتلة لنفس الإنسان أن يرى نفسه مطروداً من ديار أحبها وأخلص لها ، وعاش من أجلها ، واتسع قلبه لها وأمسى وأصبح يفكر فيها ويرجو الخير لها . وإذا أحس الإنسان العادي هذا . . فإن نفوس المصلحين أشد إحساساً وإرهاقاً . فيجب إذا نحن تحدثنا عن هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، أن نستجمع عواطفنا ، ونستشعر من داخل أنفسنا ، قياساً مكبراً على مشاعرنا ، ذلك الجور الذي عاش فيه الرسول ومحبيه وهم يفكرون في الخروج من وطنهم ، فرارا بدنيهم وفكرتهم ، ثم هذه اللحظات الفاصلة في حياتهم ، وهم يتربصون الفرص ، ويتحينون الظلام ، وخالو الأزقة والطرقات من المارين ، لا يهجموا على أعدائهم ويقضوا على منافسيهم ، حتى يغلو الجولهم في بلدهم ، بل ليخرجوا ويهربوا من وطنهم ، ويقتطعوا أنفسهم من بلدهم إلى بلاد لا يعرفونها ، ولا يدرون كيف يصيرهم فيها ؟؟؟

إنها لحظات قاتية مريرة لاتصلحها إلا نفس مؤمنة .. عميقة الإيمان ، ترجو الخير من خلال الحزن ، وقيا وراء الأهل والأحبة والوطن !!

إنني لأتصور هؤلاء المؤمنين وهم ينزعون أنفسهم انزعاعاً من بلادهم . وهم يفارقون عتبة دارهم ، وهم ينقلون خطاهم ثقيلة في حارتهم ، وهم يلقون النظرة الأخيرة على متاعهم وأموالهم ، وفقدت أكبادهم على أحبباء أو آباء رحماء ، أو إخوة أوفياء ، بل وهم ينظرون إلى أحجار دارهم ومحال أسماهم ، وأمكنة تجارتهم ، وإلى دور أصدقائهم ، ينظرون إلى كل ذلك اختلاساً في ظلمات الليل البهيم ويودون أن يودعوه ويقبلوه ولكنهم لا يريدون أن يثيروا حولهم ضجة أو ينفخوا لهم حساً فينفلتوا إلى خارج مكة ، وكلما باعدت بينها وبينهم الخطوات أداروا وجوههم نحوها حنيناً إليها ، حتى إذا حجبنا ألبالاب عن عيونهم ساروا في طريقهم إلى مخرجهم وبلدهم لا يفارق خيالهم يستعرضون في شريط طويل أطوار حياتهم التي قضوها في رحابها وحوادثهم التي شغلوا بها هذه الحياة . ويذكرون محمداً ودعوته وكيف معوه لأول مرة وكيف أقبلوا على دعوته وآمنوا بها ثم عملوا العذاب سنين طوالاً

من أجلها ، ثم هم الآن يتحملون أقصى مرحلة من المذاب في سبيلها ويسجلون نهاية هذا الشريط من حياتهم فيها بهذه الخطوات الضئيلة القاسية ، ثم يطوون كل ذلك حيناً ويفكرون في المستقبل . في البلد التي سيعلمون بها ، كيف هي ؟ وكيف يعيشون فيها .. وليس معهم مال يعتمدون عليه بعد أن تركوه وراءهم في مكة ؟ وكيف ستكون دعوتهم في رحابها ؟ يفكرون في المستقبل . وللمستقبل غيب ، لكن لا بد من تخيُّق حبيب ، واستشفاف شيء مما وراء هذه الحجب ، على قدر ما يظن الإنسان على الأقل . لو أنهم كانوا على صداقة مع إخوانهم في المدينة من قبل .. لوجدوا أطمئناناً كثيراً في قلوبهم . ولو كان معهم مال يعتمدون عليه .. لحفف قليلاً أو كثيراً من أعبائهم وأزال عنهم شيئاً من عنائهم وهمومهم ، لكن لا هذا ولا ذلك . ولا شيء معهم إلا إيمان قوى غلاب ، هو كل زادهم وأنعم به من زاد فإن خير الزاد التقوى ، ولا يرقون في المدينة إلا أناساً آمنوا كل أعنائهم فانصلت القلوب وتعارفت قبل أن تتقابل الأشباح ، وما أقوى هذا الاتصال وهذا التعارف . إنها أخوة في الله تفوق أخوة الدم والسب ، وتعلم على كل صلة في هذه الحياة ، ويأمن الإنسان بها نوائب الدهر ومفاجآت الأيام . وهل هناك ما هو أقوى من أخوة الفكرة والدين ؟ إنها ارتباط روحي يقهر كل ما يصادفه في الحياة من ماديات ، ويستخرها له ، ويسلو على الدنيا ومصاعبها ومصائبها ، ويرفرف بنسماته الحلوة على الأجباب للتآلفين ، ليعيشوا بنعمة الله إخواناً متعنين وهكذا كان . كان الإيمان وصلة القلوب ، جمعها في رحابه ، وأظلمها برحمته ، فنعمو بشدائد الحياة ، كما ينعم للترفون الفارغين بترفهم وفراغهم ، بل وأحلى وأعذب ، ولذا لم يفكر المهاجرون كثيراً في عنت الحياة للقلبة .. بجوار إخوانهم الأنصار ، كان كل همهم أن يجدوا الحرية لهم ولدعوتهم ، وليس هذا بالأمر العسير في نظرهم ، لكن الوطن الحبيب لا يفارق خيالهم . وهل يمكن ؟ هل يمكن بمجرد انتزاع أنفسنا من بين جدران قهرا عنا ، وبمجرد اختفائه عن عيوننا .. أن ننساه ؟ وكيف ؟ وهل يمكن أن نهمل ماضينا في لحظة لحظات ، أو في شهور أو سنين ؟ هل يمكن أن نتطع جزءاً من ذهننا ونزى به ، ونتركه بجوار جدران الوطن الذي تركناه كارهين ؟ إن ذلك غير ممكن وهو فوق طاقة البشر . فليسكر المهاجرون في وطنهم كما يشاءون ، ما في ذلك من ضير عليهم ،

فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وإن ذلك هو الوفاء والحب الطبيعي له ، وتصر نفوسهم اللوعة لفراقه ، فلما دفع ذلك من حيلة . وإنما الحركة لابد منها ، يتحملها المهاجرون ، ويحتازونها راضين ، قانعين بحب الله ورسوله ، عوضا عن كل ما خلفوه وراءهم ، بل عوضا عن كل ما في الحياة من عزيز وحبيب أليسوا يقرءون الكتاب ؟ أليسوا هم المخاطبين بقول الله : ( قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله فترهبوا . . حتى يأتي الله بأمره ) .

إنها آية فاصلة ، كان لابد منها وسط الحركة النفسية الهائلة التي تخوض غمارها نفوس المؤمنين في مكة والذين لابد لهم أن يهاجروا لتقطع على بعض المترددين ترددهم ، وتقضى على وسوستهم ؛ وتطمئن للمؤمنين حين تضع الدنيا بما فيها في كفة وتضع الهجرة إيمانا وإخلاصا لله ورسوله في كفة أخرى . وهل يبقى بعد ذلك تردد في نفوس المؤمنين ؟ لقد آثروا الله ورسوله وهاجروا وتركوا الدنيا ومتاعها في مكة وقالوا : « بل الله ورسوله أحب إلينا » لكنهم على كل حال لا يلسون وطنهم الأول وليسوا مطالبين بذلك فقد بقيت ذكراهم تقضى مضاجعهم حتى بعد أن استقروا بالمدينة فينشد بلال الشعر ، تشوقا إلى مكة وأسمارها وجبالها فيقول :

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة بفتح وحولى إذخر وجليل  
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يدون لى شامة وطفيل  
نفخ ومجنة وشامة وطفيل أسماء أما كن وجبال بمكة وما حولها .

وتفيض نفس أبي بكر كذلك بالحنين إليها ، ويحس الرسول في نفسه ونفوس أصحابه هذا الحنين الطبيعي ، ويرى فيه عاملا من عوامل التعب والإرهاق النفسي . فينتبه إلى ربه وسط هذه اللوعة من الحنين واللوعة ويدعوه ويقول : « اللهم أحبب إلينا للدينة حبا مكة أو أشد » وهو دعاء يثير في النفس شق المواطن ، ويملؤها إشفاقا وعطفا وتقديرا نحو هؤلاء الذين ضحوا براحتهم وبكل شيء أحبوه - منذ صباهم - في سبيل فكرتهم وعقيدتهم وصور للمجاهدين الذين أتوا بعدهم .. فداحة التضحية التي ضربها لهم مثلا عاليا سيد المجاهدين وصحبه الأبرار

ليستصنروا بعد ذلك كل جهاد يذلونه ، وكل تضحية يقدمونها . . . لكن :  
هل كانت الهجرة للمدينة هي التجربة الوحيدة في حياة الرسول ومحابته الأبرار ؟  
أو أن هناك تجارب أخرى مريرة اجتازوها قبل هذه الهجرة الأخيرة ؟ ؟

### الهجرة إلى الحبشة<sup>(١)</sup>

لم تكن الهجرة للمدينة هي التجربة الوحيدة التي مرت بالرسول ومحابته الأبرار ، بل كانت هناك تجارب أخرى مريرة ، في الحبشة والطفائف لعلها كانت أمر وأسى من الهجرة للمدينة ، وهل في ذلك شك ؟

لقد كانوا عربا لم يخرجوا إلا قليلا من نطاقهم المحدود في جزيرتهم وربما لم يرا أكثرهم البحر طوال حياتهم لكنهم أمام أمر من قائدهم ليهاجروا إلى الحبشة وأين تكون الحبشة هذه ؟ وكيف يذهبون إليها ؟ إنها في الشاطئ الآخر ولا بد من ركوب البحر للوصول إليها وسيجدون فيها أناسا لم يعرفوهم ولم يألفوهم من قبل ليسوا من جنسهم ولا هم يتكلمون بلغتهم ولا يدينون بدينهم وليس لهم بهم من صلة . إلا أنهم يؤمنون بيسى . وكتابه الإنجيل وهي صلة قد تبدو واهية في أيامنا هذه لكنها في وسط موجة الشرك والكفر بالآديان والكتب السماوية حينذاك كانت صلة قوية ؟ لأنهم جميعا أهل كتاب منزل من السماء وهذه الصلة التي اعتمد عليها الرسول ومحابته حين اتجهوا للحبشة ، هي التي أحسوها في نفوسهم .. يوم أن انتصر الفرس على الروم وكان انتصارا يحل في طياته انتصار عباد النار المجرس على المسيحيين أهل الإنجيل ، فتأثر أهل القرآن لهزيمة إخوانهم للسيحيين كما فرح عباد الأصنام بانتصار إخوانهم عباد النار ، وتحدثت المجالس في مكة بهذا وذاك ، ووجد المسلمون في نفوسهم غيظا من شماتة الكفار في هزيمة الروم ،

---

(٢) كان عدد المهاجرين أولا عشرة رجال وخمس نسوة . وكانت أول هجرة من مكة وكان منهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله (ص) وبقى مع الرسول في مكة عدد قليل ولما عدوا بإسلام عمر طاهوا لكنهم رأوا قسوة فريش على المسلمين لا تزال كما هي فرجع بعضهم للحبشة ولما حاصر المشركون الرسول وقومه ، وأدخلهم المشركون الرسول جميع المسلمين أن يهاجروا للهجرة فهاجر معظمهم وكانوا ٨٣ رجلا و ١٨ امرأة .

نصار أبو بكر الهادى، وتصحب للروم وراهن على انتصارهم ، وكان من أثر ذلك كله أن أنزل الله قرآنا يسجل هذه الروح ، ويؤيد تحمس المسلمين لإخواتهم الروم ويزيل من نفوسهم المرارة التي أحسوها لهزيمة إخوانهم ويبشرهم بالانتصار والغلبة لمن تحمسوا لهم ، فيقول الله في مفتتح سورة صميت باسم الروم ( الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد . وبومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ) .

فسجلت هذه الآيات اليناث .. الصلة الروحية القوية والعلاقة السليمة الطبيعية التي بين أهل القرآن وأهل الإنجيل . وهي صلة الحب والتعاون بينهم ، ولولم يكونوا على تعارف ، وسبق هذه الآيات شاهد صدق خالط على روح المسلمين الطيبة ، نحو إخوانهم للسيحين .

وهذه الروح هي التي دفعتهم إلى التوجه نحو الحبشة ، برغم أنهم لم يكونوا على تعارف فيها ملك لا يظلم ، ولا بد أنه سيعمى للمسلمين من مطاردتهم ، بحكم الصلة التي بينه وبينهم .

لكن : هل تراها كذلك من جانب النجاشي وأعدائه ؟ هل يحسون نحو المسلمين ما يحسه المسلمون نحوهم ؟ ذلك أمر يعرف عند نزولهم بالحبشة ، وإلى أن ينزلوا ويصلبوا ، ستظل الوسواس تستولى على نفوسهم ، وبقي مع ذلك أمامهم مصاعب ، لا يمكن تجاهلها ، فهم سيركبون البحر ، وربما يكون أكثرهم لم يروه من قبل ، وهم سيقبلون على أناس ليست لهم بهم صلة الجنس أو اللبس أو اللغة ، وقد تركوا الرسول وراهم في مكة وتلك كلها — لعمرى — مخاوف ومصاعب لا يتغلب عليها إلا الإيمان الراسخ العميق بالرسول وتوجيهه .

وإذا نحن وازنا بين الحالتين: الحالة التي هاجر المسلمون فيها وحدهم للحبشة، والتي هاجروا فيها مع الرسول للمدينة ، وجدنا أن الهجرة الأولى للحبشة كانت أمر وأقصى على من هاجر من المسلمين، مافى ذلك من ريب. فقد عرفت الظروف

الصعبة التي اكتسفت هجرتهم للحبشة ، وهي ظروف لم تتوافر كلها عند هجرتهم للمدينة ، إذ أنهم سيهاجرون إلى بلد من جزيرتهم على كل حال ، وإلى إخوان لهم في المجلس والقامة . ثم إلى ماهو أكثر من هذا ، إلى إخوان لهم في الدين ، عرفوا رجالاً منهم أثناء يعة العقبة .

فهم إذن لم يهاجروا إلا بعد يعة الرسول وأهل المدينة الذين أقسموا على مناصرتهم وعلى حرب الأسود والأبيض من الناس في سيلهم ، فحينما يتوجهون للمدينة يتوجهون مطمئنين إلى أنهم سيلقون أحبة ، يفتدوهم بالغالى مما يملكون ، وهم يحسون أنهم مقبلون على بلد يكثر فيه إخوانهم ، وتلتبس فيه دعوتهم التي ظلت حبيسة بمكة ثلاث عشرة سنة .

فالمرارة التي أحسها المسلمون ، وهم مهاجرون للحبشة لم يحسوا مثلها تماماً حين هاجروا للمدينة .

وكانت هذه هي التجربة الأولى للمسلمين تحملوها صابرين ، واغتربوا في بلاد الحبشة ، مستظلين بحماية النجاشى . حتى عاد بعضهم لوطنهم الأول ، ومكنوا به مدة حتى آن أوان الهجرة الأخيرة للمدينة وبقي أكثرهم في الحبشة حتى رجعوا للمدينة بعد هجرة الرسول إليها

وهناك تجربة أكثر مرارة من هذه وتلك مرت بالرسول صلى الله عليه وسلم وحده وكانت هجرة أيضاً . كانت هجرة للطائف سماها بعض اللؤرخين رحلة ، لأن الرسول كان يرجو منها أن ينصره الله بأهل الطائف ويتخذهم أنصاراً لدعوته ، كما اتخذ أهل المدينة — فيما بعد — أنصاراً له ، وهذه الرحلة أو هذه الهجرة التي تحملها الرسول وحده . أعتقد أنها تفوق في مرارتها وقسوتها الهجرة للحبشة والمدينة معاً .

ومع ذلك تمر كتب السيرة عليها مروراً طابراً ، مما جعل كثيراً من المسلمين القارئین لها يفهمون أن هذه الرحلة كانت من الرحلات السهلة الهينة ، ويعتقدون أنها كانت رحلة إلى ضاحية من ضواحي مكة ، مع أنها كانت أنسى رحلة وأشقها على رسول الله ، وأشهد أنني كنت ممن يفهمون هذا الفهم الذي وجدته عند كثير



من التفتين ، حتى ذهبت إلى مكة عام ١٩٥١م وتقرر أن يكون عمل في الطائف ،  
وكنت إلى تلك اللحظة أعتقد أنها على بعد سير من مكة ، ولكن بعض العارفين  
أخذ يطيني فكرة عنها ، فصرفت منه أن السيارة تقطع إليها من مكة ما يقرب  
من ١٥٠ كيلو متراً فذهشت وتساءلت : وهل قطع الرسول عليه الصلاة والسلام  
هذا الطريق الذي تقطعه الآن ؟ إننا كنا نظن أنه ذهب إليها وعاد منها في يوم  
أو في ضحاه قال : إن الرسول قطع للمسافة إلى الطائف من طريق أخصر من هذا  
قليلاً ، ولا تسير فيه السيارات الآن وهو ما يقرب من مائة كيلو متراً ، يقطعه  
الناس اليوم سيراً على الأقدام أو ركوباً على الدواب . قلت : إنها مسافة طويلة  
جداً عما كنا نظن ، وإنها لرحلة شاقة ومتعبة لا بد أنها أخذت أياماً قاسية من  
حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم رجعت إلى كتب السيرة ، فوجدت ابن هشام يقول عن هذه الرحلة :  
« ولما هلك أبو طالب — بعد وفاة خديجة — نالت قريش من رسول الله صلى الله  
عليه وسلم . من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول  
الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، وللمنة بهم من  
قومه ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده » .

إذن كان الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة في أزمة نفسية ، وكان في شدة  
بلغت أوجها بعد أن قد التصيرين : الزوجة التي كانت تتلقاه في البيت بصدر  
حنون ، وقلب شفيق ، فزِيلَ عن نفسه المحبة للثقة كثيراً من الهم والتعب .  
ثم تبعها الهم ، الذي كانت تخشاه قريش ، فتمنع عن عهد — كارهة — كثيراً  
من سفاهتها . فوجد الرسول نفسه بعد ما في أتون انقذت ناره وتشعب لهيبه ،  
وأصبح بمكة ، وقد انطلق عليه سفهاؤها ، وتناولوه بالإيذاء والاعتداء ، فإذا  
رجع إلى بيته وجد الحزن يحيم على جوانبه ، فتور في نفسه ذكرى الزوج الوفاة ..  
فتمتلئ من الهم ، وتفيض عينه من الحزن ، ويبحث حوله عن نصير في الخارج ،  
أو مواس في الداخل فيعز عليه النصير واللواصي ، ويفكر في الدعوة التي حملة  
الله أماتها — وهل يفكر إلا فيها — ويحاول أن يجد لها متنفساً بعد أن ضيق  
القرشيون عليه الخناق ، ولم تعد مكة بيئة صالحة لنشر دعوته ، فإلى أين يذهب ؟

وقد بلغ الأمر انتهاءه ؟ وفكر الرسول فرجد أن في الجنوب الشرقى من مكة قوما من ثقيف ، يقطنون « الطائف » وبينهم وبين قريش عداة ، ربما يساعد على احتضانهم دعوته ، وهم ان استجابوا كانوا نعم المون والنصير .

ولا بد أن الرسول مرت به حالة من التفكير العميق ، في هذه الرحلة وتأنجها ، وإن الإنسان ليتصور الحالة النفسية التي كان الرسول يمر بها في هذه الآونة : كيف يذهب ؟ وهل يستجيب له هذا الحى من العرب ، بعد هذا السفر الطويل ؟ ان هذا هو الأمل . . ولكن كيف يكون موقفه ان تنكروا له ؟ ثم كيف تكون عودته إلى مكة حينئذ ؟ وماذا يفعل الشامتون ؟ لابد أن الرسول قد فكر في هذا كله ، ومرت بنفسه قترات من الأمل الشرق له ودعوته حيناً ، ويتصور المستقبل باسم الإسلام فتبسط أسارير وجهه . وتشرق جنبات نفسه : وحيناً تمر به صور اليأس من استجابتهم . ومن النتائج المرة التي تتبع إعراضهم ، قتمتلى نفسه هما وحزنا ، وخوفا من هذا المستقبل القاتم . . ولكن : هل يستسلم لهذا الجانب الظلم ، ويقعد خوفاً من إعراضهم . ومن النتائج للؤلؤة التي توتب عليه ؟ كلا .. إنه عليه الصلاة والسلام لا يترك فرصة أمامه لدعوته إلا انتهزها ، وليكن بعد ذلك ما يكون من مصاعب ومشاق ، فكل شيء يهون احتاله في سبيل دعوة التوحيد .

وجاء الوقت المحدد ، ففرج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الطائف وحده وبدأ رحلة المشاق والمتاعب ، ليس معه أحد إلا ربه ، الذي يراه ويحفظه .

لقد تصورت الرسول سائراً بين الجبال ، يحمل عبء الدعوة ، وهو ينقل خطاه ، صاعداً فوق الجبال ، وهابطاً منها ، تصورته حيناً كنت أنظر حولى من السيارة التي تهب الأرض نهياً إلى الطائف .

نعم تصورته عليه الصلاة والسلام وحيداً ، يقطع هذه المسافة تحت ثقلين من ثعب النفس ، وقلب الجسم ، كنت إذا رأيت عربياً يسير هنالك ، في بطن الجبل ، يعلو ويهبط ، قلت : ألم يكن الرسول ترضه الجبال كهذا الرجل ؟ كان يسير في الشمس المحرقة ، وفي ظلمات الليل البهيم ، لا يؤنسه شيء الا تفكيره في ربه ، واتصاله بخالقه وحارمه .

من كان يظن حين يراه وتذاك أنه يحمل أمانة ربه ؟ ومن كان يظن حين ينظر إليه ، أن ينظر إلى المثل الأعلى للإنسانية . إلى الرجل الذى اختاره الله ليبلغ رسالة السماء ويكون خاتم الأنبياء ؟ من كان يظن وهو ينظر إلى هذا الرجل العربى — كأى عربى — ضمنه هذه الجبال — أنه ينظر إلى الرجل الذى سيهر العالم بأسره ، وأن لفظ الخلود سيتقن بمبادئه واسمه ؟

من كان يفكر بمن رآه ، أن هذا الرجل سيجذب لللايين إليه وإلى دعوته ، وأن هذه اللايين من خارج الجزيرة ستؤمن به ، قائدا ومنقذا وشفيعا ؟

من كان يفكر أن هذا الرجل العربى الذى يسير وحيدا فى فيافي الجزيرة القاحلة ، سيعبى موتاه ، ويجعلها مهوى الأكلة فى جميع أنحاء العالم ، ويجعل لقها التى حاصرتها الجبال فلم تخرج إلى ما وراءها . لمة عالية خالدة تتعصب لها حول وشعوب ، وتطرق الجامعات الدولية ، وتبعثها موجات الأثير من كل ناحية ، وتصبح بفضل لمة شعوب ، ولسان حضارات ؟ نعم من كان يظن ، حين ينظر إلى هذا الذى يسير مثقلا بالهموم أنه سيفعل كل هذا ؟ .

كانت هذه خواطر مرت بى سريعا ، سرعة السيارة التى كنت أركبها ، وقلت لا أشك فى أن كل من رآه مر عليه كأى عربى يمر عليه بالليل والنهار ، ولم يكن يعلم أية نفس يحمل هذا الرجل ، ولا أية رسالة يؤديها .

قطع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المسافة الطويلة للتعب ، ولاشك أن الأمل كان يدفعه فى كل خطوة من خطواته ، الأمل فى أفق جديد لدعوته ، ولاشك كذلك أنه كان مع هذا الأمل شيء غير قليل من الخوف ، الخوف من الفشل .

كان الرسول يؤمل أن تنضم إليه تضيف وتنصر دعوته ضد أعدائه وأعدائها ، بعد أن عز عليه التصير فيهم ، ولكن هذا الأمل كثيرا ما كان يخفى أمام عوامل القلق والخوف من إغراضهم وصدودهم ، وهذه حالة لم تمر بحياة الرسول قبل ذلك ولا بعده ، فقد كان يمرض نفسه على القبائل فى موسم الحج ، ولكنه لم يتكلف سفرا كهذا السفر ، ولم يلجأ مع ذلك إلى أعداء قريش كالجأ هذه المرة وقد سافر بعد ذلك إلى المدينة . ولكنه لم يخرج إليها إلا بعد أن اطمأن إلى

مركزه فيها ، وأرسل طلابه يملكون أهلها الإسلام ، فكانوا محل الرعاية والعناية  
ومكث مدة تكونت فيها جماعة إسلامية تفوق أمحابه بمكة ، فلم يكن إذن حين  
سافر للدينة محل خوف ، أو قلق من الصير المجهول ، ولكنه كان مطمئناً إليها ،  
عازماً على الإقامة فيها .

وأقبل الرسول عليه الصلاة والسلام على الطائف وعمد إلى نفر من ثقيف  
هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم وهم إخوة ثلاثة ، أقبل عليهم الرسول ونفسه  
متجه إلى الله أن يهديهم سواء السبيل ويهدي بهم من وراءهم من قومهم ،  
ولكن قلوبهم كانت مغلفة وتوسمهم كانت متكبرة ، حتى ليقول له أحدهم في  
سخرة واستهزاء ، وكأنما عز عليه وهو السيد الكبير أن يرى هذا القرشي اليتيم  
رسولاً من الله ، يدعو إلى هذا الأمر العظيم فيقول له « أما وجد الله أحداً  
يرسله غيرك » كأنما ظن أن الرسالة تتبع الجاه واللال ، فأما أنها ملك وسلطان ،  
وقد جهل المرور أن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وكانت هذه تمة سائلة في  
الناس حينئذ حكاها القرآن ورد عليها حين قال : ( وقالوا لولا نزل هذا القرآن  
على رجل من القرنين عظيم ، أم يقسمون رحمة ربك ؟ ) وكان هذا الرد من الثقيفي  
الكبير الذي يحمل كل معاني الاستخفاف والاستعلاء صنعة لآمال الرسول عليه  
الصلاة والسلام في القوم وصدق الله العظيم ( إنك لا تهدي من أحببت ولكن  
الله يهدي من يشاء ) ، ( لو أنفق ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم  
ولكن الله ألفت بينهم ) .

وكانت نتيجة مريرة على نفسه العظيمة ، فقد قطع الأمل الطويلة والأمل  
يحدوه ، ومن ورائه قريش ، لابد أنها ستقرب في لحظة أمر هذه الرحلة ، بعد أن  
تعلم بها ، وهي تتوق إلى فشلها ، حتى تسمت كما تحلوها النجاة وتزداد في عتوها  
والرسول عليه الصلاة والسلام يحس كل هذا ويقدره ، حتى لنجدته يقول لهؤلاء  
الثلاثة للتكبريين ، من ثقيف بعد أن يش منهم « إذ فعلتم ما فعلتم فما كنتموا  
عني » وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذرم « يحرقهم »  
عليه .

إن الرسول قد لقي إعراضاً وصدوداً من كثيرين قبل ذلك ، ولكنه ما كان يحسب لأى إعراض سابق ما حسبه لهذا الإعراض ، كان يدعو الناس فى موسم الحج ، ووراء الصادون عن دعوته ينفرون الناس منه ، وما كان يقيم لهم وزناً ولا حساباً ، أما هذه المرة ، فتختلف ظروفها وأوضاعها .

لقد ترك مكة حزناً لفقد الصيرين ، واشتداد الإيذاء عليه ، وسافر طويلاً إلى أعداء قريش ، والتجأ اليهم لعلهم يضمون إليه ، ويدخلون فى دينه ، ولكنهم لم يستجيبوا فلماذا تفعل قريش إذن ؟ وما مبلغ فرحها وشماتها ؟ إنهم لاشك سيشتتون ، وسيزدادون عليه جراً ، ومن هنا كان حزن الرسول وخوفه من إذاعة الخبر .

كل المصائب قد تمر على القى وتكون غير شامة الأعداء

وهو قد لجأ إلى أعداء قريش يستعين بهم وهذه ناحية أخرى تؤثر فى نفوسهم وتلهب حماسهم لإيذاء الرسول . وما كان يقيب عن الرسول كل هذا ، فطلب منهم أن يكتموا هذا الأمر حتى لا تشتد عليه عواصف العدوان فى مكة .

أما القوم من عتيف فقد عصفت بهم نزواتهم ، ولم يكونوا رجالاً كرماء فى خصومتهم ، حتى هذا الأمر البسيط الذى طلبه الرسول منهم لم يستجيبوا له ، ولم يكتموا الخبر ، ويتركوا الرسول يرحل من حيث أتى ، بل لجوا فى خصومتهم ، ولجئوا إلى السفاسف . ونزلوا إلى الدرك الأسفل من الخصومة ، ولعبت بهم أهواؤهم وأحقادهم فأغروا به سفاهم وعبيدم يسونه ويسعون به حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة .

فذاك نفسى وما أملك وكل المسلمين يا رسول الله . . . إننا نرى الصبية فى هذه الأيام يجتمعون حول رجل غريب الأطوار ، يماكسونه ويشاغبونه ، فتأخذنا الشفقة عليه ، ونحبه من عبث الصبيان ، وهؤلاء الرعماء ينفرون بك السفهاء والصبية ، وقد كنت تؤمل لهم الخير ، وترجوهم منهم ، كيف كانت حالة الرسول فى هذه اللعظة الرهية من حياته ؟ وإلى أى حد بلغ الألم والأسى ؟ إن أمره قد اشتهر ، ومنظره وسط السفهاء والصبية قد عرف ، وما هى ذى الأسفار تنهال عليه ، وتسيل الدم من قدميه !!

إن الإنسان المادى لغير نفسه من هذا النظر . نعم . . وإن الألم ليقزع  
نفسه ويستصرها كما تصورت الرسول ، يتجمع عليه هؤلاء الأشتياء ،  
ويطاردونه بالسباب والحجارة . فكيف إذن كان ألم الرسول عليه الصلاة  
والسلام فى هذا الموقف ؟ .

لقد زاد من آلامه النفسية ، أنه حين لجأ إلى ظل سور بستان فى جنوب  
الطائف أن كان هذا البستان لعبة وشية ابنى ربيعة ، وهما من ألد أعدائه ،  
وقد كانا فى بستانهما يشاهدان هذا النظر للألم ، وهما بلا شك قد انفرجت  
أساريهما ، وفرحا لهذا الذى يلقاه عذ ، والرسول بلا شك يحس هذا منهما .

وإنه ليشق على كل نفس أن تعرض للمهانة والإيذاء ، ولكنه يشق عليها  
أكثر وتصيبها مرارة تملأ جوانبها ، أن يشاهد أعداؤه هذا العدوان ، ويقفوا  
على بعد مترجرين ، نعم إنها مرارة ، لا مرارة أشد منها ، تلك التى تعرض لها  
رسول الله أكرم الخلق على الله .

من أجل هذا وجدنا الرسول فى هذا الموقف وحده ، من بين مواقفه  
العديدة الشديدة يتجه إلى الله فى حزن وألم يشق للرأى ، ويناجيه هذه للنجاة  
التي تهز لها قلوبنا ، وتهمر منا دموعنا ، كما ممناها أو قرأناها ، وتصورنا  
الرسول يتحرك قلبه قبل أن يتحرك لسانه بهذه للنجاة « اللهم إليك أشكو ضعف  
قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ،  
وأنت ربى إلى من تسكنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ،  
إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . . أعوذ  
بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من  
أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتي حتى ترضى ، ولا حول  
ولا قوة إلا بك » .

هذه هى الشكوى التى ما شكهاها الرسول فى موقف غير هذا الموقف صورت  
بواعث الألم فى نفسه ، كما أبانت لنا عن بواعث الاطمئنان وقوة الإيمان ،  
والتجرد عن كل ما فى الدنيا ، والاتصال بالله وحده مالك للكل ذى الجلال  
والإكرام ، وكان الشاعر يترجم عنها وهو يقول :

فيا ليت ما بيني وبينك عامر ويبقى وبين العالين خراب  
 إذا صبح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب  
 ولعل مما يصور تماما حالة الرسول النفسية ، وما لحقه من سفهاء الطائف ،  
 هذا العطف الذى تحرك فى نفس كل من هذين العاتين من كفار مكة ،  
 وهما فى بستانهما بالطائف . .

لقد استدرهما هذا للنظر للؤلؤ حين التبعاً الرسول إلى ظل الحائط ، يجلس  
 فيه ، ويستريح من عناء للطاردة ، والتنف بالحبارة وينظر إلى السماء تسيل  
 من عبه ، أقول استدر هذا كله عطف هذين الجبارين فأرسلا إليه غلامهما  
 « عداس » بشئ من العنب ، فلا شك إذن أن ما لحق الرسول كان من  
 الشدة بحيث طغى على العدوات والحزازات والخلافات ، ولا يكون ذلك إلا حين  
 يبلغ الأمر أشده ، ويجاوز حده .

نم لقد كان كذلك ، وكان هذا هو الذى يث فى نفس الرسول هذه  
 الكلمات الحزينة التى يملؤها الأسى ، كما يملؤها الإيمان فى وقت واحد  
 « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. » .

ولقد كان الرجل الوحيد الذى استقادم هذه الرحلة الشاقة هو «عداس»  
 السلام للملوك لابن ربيعة ، الذى حمل قطف العنب إلى الرسول ، وجلس  
 بجانبه ، وهو يتناوله . فكانت جلسة مباركة حملت الإيمان إلى قلبه ،  
 فأمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . وفى غمرة الحزن والأسى ، وبعد للتأجاة الحزينة  
 للؤمنة ، تمتد أسباب السماء إلى الأرض ، ويرسل الله جبريل إلى صفيه وعبد  
 محمد يقول له « إن الله قد أمرنى أن أطيعك فى قولك لما صنعوه معك » وكان هذا  
 تنويها من الله أعطاه لرسوله ومصطفاه ، ليفعل فى هؤلاء اللثام ما يشاء ، ويرد  
 على صنيعهم القبيح بما يريد ، وعهد فى سورة غضبه وفى غمرة حزنه وألمه ، وكل  
 انتقام يريد أن مقبول ، وكل عذاب يصبه على رؤوس السفهاء قصاص  
 غير منكور .

ولكن عمداً الرسول يرتفع بإنسانيته فوق مستوى البشرية ، وينسى آلامه وأحزانه ، وما فعله القضيون به ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، ثم يطلب من الله الهداية لهم ، ويقول « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ويسبب جبريل لهذا الخلق الرباني ويقول له « صدق من سماك الرؤف الرحيم » نعم . اليس هو القاتل أيضاً للقرشين عند فتح مكة وقد ناله من أذى ما ناله « اذهبوا فأنتم الطلقاء » صلى الله وسلم على سيد البشر والمرسلين .

بعد هذا أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يفكر في الرجوع إلى مكة . لقد تركها مؤملاً ألا يرجع إليها هكذا فقد كان يظن أنه سيجد في الطائف البيئة الصالحة لدعوته ، ولكنه اضطر للرجوع إليها على عجل دون أن يتحقق شيء من آماله ... فكيف يرجع إليها ؟ ...

لابد أن الأخبار السيئة التي حدثت له في الطائف قد سبقت إلى مكة ، ولابد أنهم الآن يروحون ويحيثون ويجلسون في ندواتهم يتحدثون في شماعة عما أصاب عمداً في الطائف على يد تعيف ، ولابد أن قلوبهم قد ازدادت جراءة عليه . سيفتتون بلا شك في إيذائه والتكيد به بعد الفشل الذي أصابه ، وليس له الآن بمكة العم الذي كان يحبه ، ولا الزوجة التي كانت تواسيه ... يارباه.. أي موقف هذا ؟ وأي نفس تحتمله إلا إذا كانت نفس رسول ؟ !

لقد كانت للمسافة الطويلة بين مكة والطائف سهلة السير على الرسول حين كان الأمل يخفف عنه متاعها ويقرب له أطوالها .

كان الأمل يؤنسه في وحشته ، وينير له الطريق في ظلام الليل البهيم ، ويذل له الصخر في وسط الجبال العاتيات وشعابها ، كان ذلك وهو مقبل على الطائف .. ولكنه الآن وبعد هذا اللقاء للتجهم ، والإيذاء للؤم ، والرجوع الفاشل .. كيف يقطع هذا الطريق ؟ وكيف يتحمل متاعه ؟ إن كل خطوة يخطوها نحو مكة تقربه من الجور الكره ، وتدنّي منه الوجوه العابسة والأبداى الطويلة للؤذية ، إنه يتصور أمامه وجوه الشامتة تحيط به ، وعلى شفاههم بسات السخريّة والاستهزاء ، ويتوقع أن يخرج إليه السفهاء ، يقابلونه في مداخل مكة ، يبادرونه



بما يكره أن يلقاه ، وليس في السليين من يستطيع عنه دفاعا ، وليس في عصيته من يقوم مقام عمه أبي طالب ، فكيف كان الرسول يسير قافلا إلى مكة ؟ وكيف تحمل مشقة سير هذه العشرات من الأميال وهو متقل بالهم والحزن والتعبير فيها مضى ، وفيها هو مقبل عليه ؟ وهل هناك دواء لهذا الموقف إلا الإيمان الراسخ .. الإيمان الذي يتغلغل في أعماق النفس فتعاقبه على الرواسي الشائعات ، ونهزأ بالعوادي والنايات ؟ وهل كانت هناك نفس تحمل من الإيمان ما كانت تتحلى به نفس محمد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهكذا سار الرسول من الطائف إلى مكة متحلا بالهموم والأحزان ، حتى إذا كان على أبوابها أشفق على نفسه ، وعلى الدعوة التي يحمل أمتها من الترتيبين الشامتين ، وبحث عن رجل معتدل بحميه من شر هؤلاء التعمسين لإيذائه ، ويدفع عنه العاصفة التي تنتظره في مكة ، ووجد غايته في الطعم بن عدى بن نوفل ابن عبد مناف ، فأرسل إليه يخبره أنه سيدخل مكة ، في حمايته وجواره . . .

وتحركت في نفس الطعم بن عدى أخلاق العرب ونجدهم ، وشهامتهم في حماية المستعير بهم ، فأجابه إلى ما طلب وأخذ لهذا الأمر عده ، لم يكن يغني عليه مقدار خمس للكيين لإيذاء محمد . فتسلح هو وبنوه وتوجهوا مع الرسول إلى الطائف لحمايته ، واحترم الشركون العرب عهد الطعم لمحمد ، ووقفوا بيضا ، وهم تملظون ، ويتعرقون غيظا أن لم يستطيعوا أن يشفوا غليلهم من محمد في هذه الفرصة اللواتية .

وكانت نتيجة هذه الرحلة ما ترى من ازدياد الألم في نفس الرسول ، وتجرو للشركيين عليه حتى اضطر أن يدخل مكة في حماية للطعم . وما أشدها على النفس من مرارة ، ألا يستطيع الإنسان دخول بلده إلا في حماية رجل يخالفه في فكرته وعقيدته .. وبعد أن يتلس هو هذه الحماية ويرجوها منه .

### الطائف . . . والمدينة . . .

ختمت رحلة الرسول إلى الطائف هذا الحتام الحزين ، وسجل رجال من الطائف فترة من تاريخها ، كلما تذكرها أتباع محمد تذكروها في ألم محض ،

ممزوج بالغيظ ولقت هؤلاء الذين آذوا الرسول ، وألجئوه إلى هذه الشكوى التي لم يشكها طول حياته ، ولا تزال كلمة « الطائف » مقترنة في أذهان المسلمين إلى يومنا هذا ، وإلى ما شاء الله ، بهذا الحادث للرفق في حياة الرسول ، حتى ليكاد المسلمون ينسون ما قاساه الرسول في مكة ، طول الإثني عشر عاماً بجانب ما لقيه في يوم واحد من أهل الطائف ...

وهكذا يكون التاريخ يكتبه أفراد قليلون بأعمالهم بلادهم ، فيظل عالقاً بها لا يمكن محوه . ويكون له أثره في مستقبل بلادهم ، فإما سعادة وعزة ورفعة ، وإما هوة وذكري مؤلمة . . .

لقد كانت فرصة ساقها الله لأهل الطائف أن يحموا محمداً ودعوته . ومن يدري ؛ لعلهم لو ضلوا لظل الرسول معهم ، واختارهم أنصاراً ، واختار الطائف وطناً جديداً فيه الحياة وفيه المات . .

أرايت إذن .. المستقبل الزاهر باسم الحيد . الذي كان ينتظر الطائف ، فأضاعه هؤلاء الثلاثة الشامتون للتكبرون . . ولكن هكذا إرادة الله . . . إنه جل شأنه كان يدخر هذا المجد لرجال آخرين ، ولبلد آخر ، كان يدخره لأهل يثرب « المهديين » ويدخره لهذه البلدة البسيطة التي تقع وسط الجبال قائمة بالحصار للضروب عليها من هذه الرواسي ، لتصبح فيما بعد « المدينة » التي تهلوا إليها قلوب الملايين من المسلمين ، في شتى أنحاء الأرض ، وفي كل زمان ، إلى أن تقوم الساعة ، يتذكرها كل مسلم بقلبه ، ويذكرها بلسانه كل يوم ، بعد أن عجزها الله في كتابه ، واختارها حبيبه دار الحياة والمات بعد أن نصره أهلها وحموه ، وبذلوا كل غال ونفيس لسيهم في سبيل رضاه ، ورضا الله الذي أرسله ، وحماية الدعوة الخالدة التي أرادها الله هداية ورحمة للعالمين . .

وبينا تزهر المدينة على بلاد العالم كله بما ضمته من جسد أكرم الخلق على الله ، ومن كرام الصحابة ، والتابعين الأبرار ، وتراثهم الخالد ، وبما شع منها من نور أضاء العالم كله ، وبما سطرته في التاريخ من أمجاد ، وبما يند عليها كل عام من آلاف المسلمين ، مقبلين عليها في خشوع وابتهاال . بينا المدينة تزهر بذلك كله ، تنزوي الطائف على ربوة عالية في قلب الجزيرة ، تتلمس أساليب الحياة والشهرة ،

بعد أن فاتها قطار المجد والخلود والشهرة من قديم . وفي جنوبها على حافة بستان .  
من بساينها يقوم بناء صغير مهمل يطلق عليه « مسجد عداس » أقيم أخيراً —  
على ما يبدو — في المكان الذي جلس فيه الرسول ، حيث جاءه عداس بقطف  
العنب وهو مسجد حزين ، كالكذرى التي يبعثها في النفس حين تراه . . .

وهكذا تسعد المدن وتشقى ، بما يقدمه لها أهلها من أعمال ، ورحم الله الأبرار  
من الرعيل الأول من أهل المدينة الذين خطوا خطواتهم الويدة الحذرة في القيل  
اليوم ، على جبال مكة ، وبين شعابها ليلتقوا بمحمد ، وليعقدوا معه يعة العبة .  
ويغطوا بذلك لهم ، ولدينتهم ، وللإسلام ، مجدداً وسودداً ، سيطر يشمل صفحات  
التاريخ ، ما دام كتابه مفتوحاً في هذه الحياة ، وسيظل يملأ القلوب ما دامت .  
هناك قلوب تهفو إلى رسول الله . . « ولدار الآخرة خير ولنعم دار للتقين » .

ونحن إذا قارنا بين هذه الهجرات الثلاث هجرة الرسول للطائف ، وهجرة  
الصعابة للعبشة وهجرتهم جميعاً فيما بعد للمدينة . وجدنا أن أشدها مرارة وأسوأها  
نتيجة هي الهجرة للطائف ، ما في ذلك من نزاع .

ومع ذلك لم يحفل بها المؤرخون . ولم يبرزوها الإبراز الذي تستحقه ، بل مروا  
عليها مروراً سريعاً . ولعل ذلك راجع إلى عدم تعرض القرآن لها ، كما لم يتعرض  
لهجرة الحبشة كذلك ، كما أنه يرجع لاعتبار عمر رضى الله عنه هجرة للمدينة بدءاً  
للتاريخ الإسلامى ، إعتباراً للتأريج الطيبة ، والأمر الحسن ، الذي ترتب على هجرة  
للمدينة . فإن دعوة الإسلام بعدها شقت لها آفاقاً جديدة ، ودخلت في طور جديد ،  
وخطت خطوات واسعة نحو الانتشار والقوة ، حتى تعدت شبه الجزيرة ودانت .  
بها أم كثيرة وأصبح لها في كل مكان أنصار وأعوان .

وكان ذلك كله بفضل أهل المدينة ، والهجرة إليهم . لكن لو أردنا أن نضع  
الآلام مقياساً لعظم الهجرة وبدء التاريخ ، لكانت الهجرة للطائف هي أولى .  
الهجرات بالاعتبار ، وتأتى بعدها الهجرة للعبشة . ثم تأتى الهجرة للمدينة في المرتبة  
الثالثة ، لأن الهجرة للمدينة لم تكنفها الصعاب التي اكتنفت الآخرين ،

وما حصل للرسول في الطائف ، حصل عكسه تماماً في المدينة ، فيها أحاط  
الناس به لكن لا يضربوه ، ويؤذوه ، كما حدث في الطائف ، بل يستقروا به ،  
ويعظموه ويفتحوا له قلوبهم ويوتهم ، ويحج فيهم الأنصار المخلصين لدعوته ،  
الذين يذلون المال والدم في سبيلها . . . والذين يحملون مشعل الإسلام فيما بعد  
إلى القارات التي حولهم فيضيئونها بنوره ويهيئون لهم سعادة الدنيا والآخرة بهداه .  
ومع ذلك فإننا لا ننسى مطلقاً تلك الآلام التي أترعت بها نفس الرسول  
وأصحابه ، في الطائف أو في الحبشة ، بل نضعها دائماً أمامنا مثلاً عالية ضخمة ، لما  
يتعلمه المجاهدون ويذبلونه في سبيل فكرتهم وعقيدتهم . .

وصل الله على سيد المجاهدين ، وصحابته المؤمنين الصابرين ومن اهتدى بهديهم  
وجاهد في الله جهادهم « أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة  
ورزق كريم » .

## ١١ - بين الأمس واليوم



« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا  
قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ  
مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ  
وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ  
وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

( سورة المجادلة ) .

كلما قرأت آية من آيات القرآن الكريم ، التي تتحدث عن الناقضين وتصرفاتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذتني رعدة نفسية ، واستولى على إشفاق غريب ، وبصدر هذا الإشفاق ، وهذه الرعدة في نفسى أتى أجد كثيراً من هذه التصرفات ، التي دمع الله بها هذا الصنف من الناس ، وتوعدهم من أجلها بالعذاب الشديد الدائم ، والتي أخرجت هؤلاء عن الإسلام ، وجعلتهم من أخطر أعدائه عليه ، أجد هذه التصرفات تتخلل اليوم في أوساطنا الإسلامية وتشرب بها نفوس كثير ممن ينسبون إلى الإسلام في الشرق والغرب وفي كل أمة من أممه ١١٩ فأتساءل هل عرف هؤلاء موقفهم وحدود أمانهم من الإسلام ١١١ ؟

الذي لا أشك فيه أن كثيراً من هؤلاء أو كلهم لا يدرون حقيقة موقفهم من الإسلام ولا يظنون أنه بعيد عنهم ، بل يعتقدون أن عملهم وتصرفهم لا يعدو أن يكون تصرفاً شخصياً بعيداً عن أن يتناوله الإسلام ويتناولهم بهذا الحكم الحازم ، حتى إننا ل نراهم إذا سمعوا القرآن مرة يتحدث عن الناقضين يحملون ويشتمون ، ويرثون لحال هؤلاء المجانين للساكين ١١ وربما حدثوك في جرأته عن الناقضين وخسهم وخطرهم على مجتمعاتهم ، وكأن الناقضين لفظة تاريخية لم يبد

للدولها وجود ١١ وكأنهم وقف على من كانوا في عهد الرسول فلا يمكن أن يتكرر وجودهم في المجتمعات بعد ذلك ! !

لقد كانت ثلاثة هذه الآيات والبحث في أسباب نزولها تدعوني دائماً إلى للمقارنة بين الوضع في البيئة الإسلامية الأولى التي كانت تنبت فيها هذه التصرفات وتستدعي نزول هذه الآيات ، وبين وضع المسلمين الحالي فأجد الشبه قوياً بين الوضعين ، بين تصرفات السابقين من المنافقين والقدماء ، وبين تصرفات كثير من أبناء الإسلام الكبار منهم والصغار الآن .

فلقد كان الإسلام بالمدينة يحوطه الأعداء داخل للمدينة وخارجها يترصون به الدوائر ، والرسول والمخلصون معه يحاولون — جاهدين — تثبيت دعائم الإسلام وإرساء تعاليمه الجديدة ودفع السهام التي توجه إليه من أعدائه ، ومن حوله للترصون الذين يتلصسون للعائب والسقطات ، بل يخلقونها خلقاً ويبحثون عن الثغرات لينفذوا منها إلى أغراضهم الخبيثة ، وينفثون منها مومهم القاتلة ، وكان هؤلاء الأعداء يجدون في بعض المسلمين طابوراً خامساً بينهم ويساعدون على الوصول إلى أغراضهم ليرفقا صفوف المسلمين ، ويفتوا من عضدهم ، ويهنوا من عزائمهم ، ويبنوا فيهم الشكوك ، والإسلام غرض طرى ، والمجتمع الإسلامي في بده تكوينه ، وكل هذا يؤثر فيه ، ويترك في نفوس المسلمين صداة . .

هؤلاء الصنف من المسلمين معام الله منافقين ، وهم قوم وجدوا في المسلمين شيئاً من القوة والحماسة لدينهم ، فلم يستطيعوا أن يقفوا أمامهم في جرأة وصراحة ويقولوا رأيهم المكبوت ويواجهوا الرسول برفضهم لنكرته وعقيدته وحكمه ، لأنهم يخشون أن يتألم من ذلك أذى في أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، أو تفوتهم مصلحة يحرصون عليها ، فبادروا بالانضمام للمسلمين وهتوا بهتافهم — لا إله إلا الله محمد رسول الله — والتفوا حول الرسول بالمسجد يصلون معه ويصومون ويحضررون مجلسه ودرسه ، ويشاركون المسلمين في كل شيء من شواهرهم ، حتى أنهم ليخرجون أحياناً للحرب في صفوف المسلمين المخلصين ! !

اليوم بعد هذا مسلمين ؟ نعم إنهم كذلك في ظاهر الأمر لا يتقصم شيء

من الظاهر لكن كل هذا لم يجد نقما عند الله لأنه كان يتقصم أمم عنصر في الإسلام وفي تكوين السلم ، وهو عنصر الإخلاص للفكرة التي هتفوا بشعارها وأعلنوا أنهم من أتباعها . . وبذلك انقصوا بروحهم وأمانهم عن السلمين ، واتجهوا لإخلاصهم إلى أعداء الإسلام ، فحاشوا مع السلمين بأجسادهم ولسانهم ، وعاشوا مع أعدائهم بقلوبهم وأفكارهم وإخلاصهم وأمانهم فهم ( إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ) وإذا أحسوا شيئا يهدد مظهرهم ومركزهم بين السلمين جاءوا إلى الرسول يقولون ( نشهد أنك لرسول الله — والله يعلم أنك لرسوله — والله يشهد إن للناقضين لكاذبون ) فإذا خلوا بأعداء الإسلام أذاعوا لم أسرار السلمين ، وهونوا من شأنهم ، وطمعوا في دينهم ، وأغروا بهم أعداءهم ، وتعاونوا معهم سرأ على السلمين ، يشجعونهم على حربهم والفتك بهم ، فإذا اضطرتهم الظروف للخروج في صفوف السلمين المحاربين خرجوا معهم — ولكن بروحهم هذه الخبيثة — فيشيعون الرعب فيهم ويثبون الحلل والخوف في صفوفهم ، ويمثلون معهم مهمة الطابور الخامس بلغة العصر الحديث .

هكذا كان للناقضون بل كانوا أكثر من هذا وأشد ، ولعلك يد هذا العرض تهفو تنسك إلى معرفة بعض الآيات التي تصف أحوال هؤلاء لتعرف إلى أي حد تنطبق هذه الآيات على كثير من أبناء السلمين الآن ، ولاسيا الذين يتولون شئون الحكم فيهم ، وتنفعل تنسك كما انفعلت نفس حين تقرأها .

إذن فافقأ معى هذه الآية التي أختارها لك من سورة المجادلة ( ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ، ويخلفون على الكذب وهم يعلمون ) فهذه الآية تشير إلى قوم من السلمين انطلقت حناجرهم تهتف بشهادة التوحيد وتلو كتاب الله وتنفعل أفعال السلمين لكنهم — كما قلت — عاشوا بأرواحهم وإخلاصهم مع قوم آخرين غضب الله عليهم ، وهم اليهود الذين ناصبوا الرسول العداء في المدينة وتألبوا عليه وألبوا معهم للشركين وترجصوا به صلى الله عليه وسلم وبالسلمين الدوائر حتى حاولوا أن يقتلوه ويستريحوا منه ويخلص لهم جو للمدينة كما كانت من قبل هجرة الرسول إليها ، هؤلاء للسلمون

الذين تراموا على أقدام اليهود ، واتخذوهم أحابيا وأنصارا ، وأعطوهم أسرار للمسلمين ، وتعاونوا معهم ، وكانوا في أعمالهم وسلوكهم صورة سيئة للمسلم للتعاون في عقيدته ، للضغنى بها في سبيل شهواته وماله ، هؤلاء الذين ظهروا بالدينة في الأوساط الإسلامية ، واندججوا مع الجماعة للسلمة بحجة أنهم مسلمون ، لم يرض الله أن يتركهم هكذا يلوثون الجماعة الإسلامية ، ويضربون أسوأ المثل للإسلام ، وهو في أمس الحاجة للقدوة الحسنة والسلم للثالى ، ففضحهم وأنزل في شأنهم قرآنا ، يلفت النظر إليهم ، ويسبب الرسول وكل مخاطب من أحوالهم الشائنة ، وسيرتهم الخبيثة للعوجة ، حين ماثلوا قوما من اليهود غضب الله عليهم ، وهم ليسوا من اليهود ، حتى يتصباوا لهم ويتعاونوا معهم ، ويعطوهم أسرار للمسلمين ويجرؤوهم عليهم وهم يفعلهم هذا انسلخوا من الإسلام والمسلمين فصاروا مذبيين ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ولكنهم مع ذلك يخلفون حين يواجهون بهذه التهم ويصرون على أنهم برءاء وأنهم من المسلمين المخلصين ، يحاولون بذلك أن يبقوا على مراكرهم وصلاتهم الطيبة مع المسلمين حتى لا ينجسوا في أنفسهم ومالهم ولكن هيات . فقد أعلن الله حالهم . وكشف أعمالهم وبين جزاءهم ( أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون ) .

ولئن كان الوحي قد انقطع الآن ، فقد ترك لنا البيان القاطع ، والدلائل الواضحة في شأن هؤلاء المسلمين ، الذين يلعبون بمصالح بلادهم وإخوانهم ، ويرضون أن يكونوا مطية للعدو ، يصل على أكتافهم إلى أغراضه ، وذلك البيان موجود فيما نقرؤه صباح مساء ، من آيات الله الحكيمة التي تحكى حالهم وتبين مصيرهم ..

« اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين ، لن تنفى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يوم ينعهم الله جيماً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ، استعوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » (١) .

(١) الآيات من أواخر سورة المجادلة ..



ومن قبل جعل الله الشدائد والحروب ، ميزاناً توزن به قيم الرجال ، وتبين معادهم ويميز به خبيثهم وطيبهم ، وكانت تلك التصفية ، من حكم الله العالية فيها أصاب المسلمين من بلاء وشدة ، وهزيمة يوم أحد ، وستظل كذلك في كل مجتمع قل أو أكثر ، فعد الشدائد يتجلى الإخلاص ، وتظهر الرجولة والبطولة وستظل هذه الآية شاهداً قوياً لهذه الحكمة العالية ، ( ما كان الله ليناً للؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء )<sup>(١)</sup>.

حقاً فالقرآن هدى وشفاء ، لمن يتناوله ويتدبره ، ويسير حسب رسمه القدي رسمه ، فما ترك ناحية إلا عاجلها ، ولا مشكلة إلا تناولها ، وألقى عليها من ضوئه وهدهاء ما يير الطريق للساكنين ويحلى العبرة للمؤمنين .

لقد قننت نظري هذه الآية الكرمة ( لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم )<sup>(٢)</sup> وبحثت عن سبب نزولها القدي يكشف لنا عن معناها ، ويبين هدفها ومغزاها ، فوجدت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود يوماً عن شيء مما في التوراة ، فكتموه الحق ، وأخبروه بخلافه وأروء أنهم قد صدقوه ، ومنوا عليه بذلك ، وفرحوا بما فعلوا ، فأطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم<sup>(٣)</sup> .

فوقفت معجبا دهشاً أمام هذه الآية التي عاجلت داء قديما تمكن في يهود المدينة ، وأباح لهم أن يفرروا بالرسول حين سألهم عن شيء في توراتهم ، وهم قراؤها وحفظتها ، فأجابوه بغير الحق ، ودلسوا عليه ، وهم في ظاهرهم جادون ، يطنون أنهم قد أظهروا الحق ، وأجابوا الرسول بالصحيح من التوراة ، ولم يكتفوا بهذا التدليس ، بل راحوا يمتنون ، ويقولون في زهو إن الرسول سألهم عن شيء

(١) سورة آل عمران .

(٢) سورة آل عمران .

(٣) تفسير الكشاف .

في توراتهم ، فأجابوه إجابة صحيحة ، وكأنهم يحمدون أنفسهم ، ويظهرون للمسلمين جميل ما صنعوا ، وجسن ما فعلوا ، حتى يحمدهم الرسول والمسلمون ويشكروهم على فعلهم ..

والرسول عليه الصلاة والسلام بشر ، لا يعلم الغيب إلا أن يعلمه الله إياه والله هو الحق ، وهو غيور على الحق أن يطمسه هؤلاء ، وغيور على رسوله أن يشرروا به ، ويزوروا عليه ويخدعوه . فأُزل هذه الآية الكرعة تنعى عليهم فعلتهم الشنيعة . وتبين أن جزاء هؤلاء الفرورين الخادعين إنما هو العذاب الأليم ..

## ١٢ - كيف نقدم الإسلام؟

قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ  
حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »<sup>(١)</sup>



### كيف نقدم الإسلام ؟ ؟

سؤال قد يبدو غريبا ، لاسيما عند العلماء الذين يقومون على فهم الدين ، وحماية تعاليمه ، وبثها في نفوس الناس ، ولكنه ليس بغير عند من يتطلب للفرقة الحققة للإسلام ، ويريد الاهتداء إلى النبع الروحي الذي استقى منه العرب ، فأحيا نفوسهم ، وخلقهم خلقا جديدا ، وجعل منهم أمة تملئ على التاريخ ما تشاء من أحداث وأعمال ، حتى نستعيد نحن كذلك هذا المجد على نفس الأوس التي قام عليها . . .

نعم نريد الاهتداء ، فكلنا يدعى الإسلام ، ومع ذلك نجد أنفسنا بعيدين كثيرا عن العزة التي تليق بالإسلام والسلمين ، فمن أين إذن جاءت هذه الهوة ؟ الهوة التي باعدت بيننا وبين ما نأمل ، مما كتبه الله للسلمين ؟ — هل ضللتنا الطريق السلمية ؟ أو أن الطريق الذي كان سلميا في الماضي لم يعد سلميا في الحاضر ؟ أسئلة تتوارد على الأذهان ، وتشير أنواعا من الشكوك عند الذين لم يتحصنوا ضد هذه الشكوك بفهم سليم لدينهم . . ولكن الفاهمين يعلمون جيدا مصدر هذه الللل ، ويضعون أصابعهم على موطن الداء ، وهو عدم فهم السلمين لدينهم الفهم السلمية الذي يبتون عليه حاضرم العظيم .

(١) سورة الرعد .

إنه الناس الآن لفي أشد الحيرة من أمر دينهم ، ويتساءلون عمن يأخذون عنه الدين بعد أن اختلف القوامون عليه في فهمه ، وتصوره تصورا نأى به عن طبيعته ، وأبعد به عن قصده ، وخلق أنواعا من الحجب على هدايته .

فهناك قوم يصورون الدين صلاة وصوما فيألفون في أمرها ، ويتخذون الصلاة عنوانا وحيدا على السلم ، ثم هم بعد ذلك لا يبالون بأى مظهر أو تعليم آخر من تعاليم الإسلام ، فهم يسارعون إلى الصلاة ، ويحرصون على أدائها في تبتل ، يشبه تبتل الصالحين ، فإذا خرجوا إلى عملهم ، لم يظهر عليهم أثر من آثار عبادتهم فهم في معاملتهم للناس كذبايون غشاشون ، يسارعون إلى التمر مسارعهم لأداء الصلاة ، ولا يلتفتون بالا إلى قول الحكيم الخبير ( فويل للصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم براءون ويعنون للماعون ) ولا إلى قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه « من غشنا فليس منا » وهؤلاء أمورا مثل للمصلين ، وأصبح دعاية للمتدينين ، استعاضوا منه السابقون وعلمنا الله في قرآنه أن ندعوه حتى لا نكون منهم ( ربنا لا تجعلنا قننة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ) .

وهناك جماعة من السلميين يننون بليس للرقعات ، يكثرزون الأذكار ، ويمسكون للسايح الطويلة ، ورساؤون اللهي ، ويضخمون العائم ويحولونها الوانا شقي ، يطلبون رزقهم باسم الدين ، وينتظرون عيشهم من أيدي الحسنين ، ويفرضون على أتباعهم ضرائب أو عادات يعيشون عليها ، وإذا سألتهم ماذا يعملون ؟ لم يجدوا جوابا إلا أنهم هداة مرشدون !! وربما قالوا لك : متوكلون ، والرزق على الله مضمون

وهناك قوم يفهمون أن الإسلام مظهر لا روح .. فهم ينفذون بعض تعاليمه ، ويحولون البعض الآخر ، وقد يحتكون إليه في بعض المعاملات ، ولكنهم يهملون الجوانب الاجتماعية الروحية في الإسلام ، فهم مثلا يغيب عنهم أن السلم مشلول عن أخيه ، وأن الدولة يجب عليها حماية الضعفاء والمساكين ، والمجزؤ والمسنين ، وأن الإسلام لا يجوز أن يموت بعض أبنائه من التهمة ، في حين يموت إخوة لهم من الجوع والحرمان !!

وهناك قوم يفهمون الإسلام على أنه لاصلة له بنظم الحياة السياسية والاقتصادية ، فهم يريدونه على أن يعيش في الحاربي منعزلا عن ركب الحياة غير متدخل في تنظيمها ولا توجيهها ، فإذا تكلم عالم في شأن الحرية للمسلمين ، ومناهضة التاميين والمستعمرين ، قالوا عالم خرج عن الحد ، وليس له إلا المنع والصد ، واتهموه بالتدخل فيما لا يعنيه !!

وهناك قوم من المسلمين يفهمون أن الإسلام إنما أمر بالعبادات لتصفية النفوس ، وتقوم الأخلاق ، ثم يدعون أنهم قوم صفت تقوسهم واستقامت أخلاقهم ، فهم من أجل ذلك غير مزمين بهذه العبادات !!

ومن المؤلم أن نجد كلا من هؤلاء يدعى أنه هو الذي يفهم الإسلام ، وأنه أبر أبناءه به . وأحرصهم عليه ، ثم يتقص من شأن الآخرين !! وهم جميعاً في هذا كالعميان الذين أمسك كل واحد منهم بجزء من القيل ، فصور له حسه الناقص أن القيل هو الجزء الذي لمسه يديه ، ثم أنكر على غيره ما يقول :

وكل يدعى وصلا يلبي وليل لا تفرلهم بذناكا

لقد غاب عن هؤلاء جميعاً أن الإسلام دين روحى إجتاعى إصلاحى ، قد جمع للحياة أسلمتها ، وأراد أن يكون المسلم أعموداً طياً في هذه الحياة ، طياً في نفسه وفكره ، طياً مع من حوله من أفراد أسرته ، طياً في معاملته للناس . ومن أجل هذا وجهه إلى كل ما يصلح شأنه ويقوم خلقه ، ويهيء له عيشة سعيدة في الدنيا ، وضياً مقياً في الآخرة ، فهو إن أمره بالعبادات فإنما يريد منها أن تكون وسيلة لإصلاح خلقه ، وتقوم معوجه ، وتهذيب سلوكه ، حتى يعيش سعيداً مع من حوله ، وهو حين يأمر بفضيلة من الفضائل إنما يريد سعادة الناس ، ومن أجل هذا تنبه كل تعليماته عبادة أو معاملة إلى هذه الغاية السليمة ، ونحن نقول عبادة ومعاملة مجارة للتقسيم الفقهي وإلا فكل عمل يقوم به الإنسان بنية خالصة هو عبادة لله ، مهما كان نوع هذا العمل ، والله يطلب من الإنسان أن يخلص له في صنعة إخلاصه له في صلاته ، ولا يقبل الله صلاة عامل غشاش . أو تاجر كذوب أو موظف خائن ، أو حاكم ظالم ، فالإخلاص لله لا يتجزأ ، وهو روح تلازم الإنسان في كل عمل من أعماله ، فتنبه إليه وتعبده فيها كأنك تراه

فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، ثم هو لا يرضى منك بالبطالة والكل ، ودعوى الفضل والقربى إلى الله ورسوله بدون عمل ، كما لا يرضى منك أن تصنع التقوى وتسرف في الدين المكذوب وتعنى بناحية من الدين ، وتهمل ناحية أخرى وتدعى التخلق بخلق الإسلام في عمل ، ثم تتحلل منه في عمل آخر ، أو تظاهر أمام الناس بالخلق والمحافظة على مظاهر الدين ثم إذا خلوت إلى نفسك سبقت الشريرين وفعلت فعل العصاة المذنبين » ونحسى الناس والله أحق أن نخشاه .

والله لا يرضى عن التشقى ولا عن التطلّع والتشدد ، فإن اللبث لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى ، كما لا يرضى منا أن نعطي التواقة والبسائط ، مانعطينه للجوابات وعظام الأمور ، بل نضع كل شيء في موضعه ، ونقيس كل أمر بحماسة ، فلا نقول ولا نهمل ، بل نكون وسطا ، وتأخذ الدين على أنه إصلاح ، وتهذيب ، وتقويم وإسعاد ، لأعلى أنه « فلاحه » نعى فيها إذا عيننا بالبذرة دون أن ننظر إلى الثمرة ، علينا أن نفهم أن الله لا ينظر إلى صورنا ، ولكن ينظر إلى قلوبنا وإخلاصنا في أعمالنا ، وأنه بمقدار ما نحب الخير للناس يحبنا الله « وليغفوا » وليصفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » وبمقدار إخلاصنا في عملنا يعطينا من ثوابه ، ويصدق علينا من نعمائه ، وهكذا . فالدين روح وعمل ، روح تشمل الناس جميعا ، وتسهم جميعا ، وعمل على هدى هذه الروح ، وفي نطاقها وتوجيهها .

فليُنظر المسلمون إذن إلى مكانهم الآن من دينهم وتعاليمه ، وليعلموا أنه ليس منا من بات شعبان وجاره جائع ١١ .

ليس من المسلمين من لم يشعر بشعور أخيه ، ليس منهم من يظلم ، أو يقر ظلما ، أو يفتش أو يساعد على غش ، أو يحسب أو يقر احتكارا ، ليقنعهم هو على حساب أقوات إخوانه المسلمين ، ليس منهم ، وإن ادعى أنه مرعدهم وحاميهم ، وواعظهم ومربيهم .

ليس من المسلمين هذا الصنف الكل المتعطل ، الذي ينتظر من الناس أن يعطوه ، وهو قادر على الكسب والعمل ١١ .

ليس منهم هؤلاء الذين يريدون أن يعصروا الإسلام داخل عماريب للساجد ،

وعملوا بينه وبين اختصاصه في تنظيم الحياة ، في كل شأن من شئونها ، في البيت والشارع وللدرسة ومجلس الحكم ، مدعين أنه نزل لزمان وآناس غيرنا وغير زماننا .

ليس من المسلمين الذين يدعون حسن الخلق ، وبلوغ الأرب ، من جلال الأدب ، ثم يتعلم من العمل فقد كان الرسول مثالا في حسن الخلق ، أدبه ربه وأثنى عليه أكمل ثناء وقال له ( وإنك لعل خلق عظيم ) ومع ذلك كان أكثر الناس عبادة لله ، وخوفا منه ، كان صواما قواما ، وكان أكثرهم شكرا وعملا لله ، صلى حتى تورم قدماءه ، وكان يصوم حتى يظن أنه لا يطر ، قال له صحابته : ما حاجتك إلى العمل ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال لهم : « أفلا أكون عبدا شكورا » وقال لهم « إن أقربكم لله وأخوفكم منه أنا » . ولقد حرص عليه الصلاة والسلام على أن يفهم صحابته أن الإسلام كل لا يتجزأ ، وأن الجنة ليست للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراون ويمعنون للماعون ، وليست للصائمين الذين لا يتركون قول الزور والعمل به ، وليست للذين يقرءون القرآن ويهللون العمل به ، وليست للذين يبايعون في الباطة ويؤذون الناس بأعمالهم وألسنتهم ، وليست للكسالى للتعدين الذين يتخذون من التعبد صناعة ، ويتظنون من غيرهم أن يطعمهم .

حرص الرسول على هذا وأكثر منه ، مما يخلق المجتمع السعيد ، وألقى في نفوس المؤمنين ان العزة لله ولرسوله ولهم ، وأنهمهم أن العزة لا تنال بتلاوة القرآن ، والقعود عن العمل به ، ولا بالكثرة من الأذكار والتسمة والحوقة مع إهمال الأعمال ، وإساءة الأخلاق .

فليت للمسلمين القوامين على الدين يفهمون الطريق الصحيح للعمل به ، وليت الذين يمكنون على الدنيا يعرفون أن الخلق الإسلامي هو طريقهم إلى الدنيا التي يريدونها ، وإلى الآخرة أيضا ، ليتنا جميعا تناسى الخلاف حول اتافه من الأمور ، ونعنى بلب الدين وثمرته ، حق نصلح من ذات أنفسنا ونسعد في دنيانا وآخرتنا .

أخى المسلم : لعلك تقول معنى الآن إن المسلمين في حاجة الى تعبئة خلقية  
واعية ، تقوم على الفهم الصحيح لمعاني الدين وتعليماته ، وأهدافه وغاياته ،  
وجينئذ نستبشر خيرا بمستقبلهم . وتعود الدنيا من جديد لتقف على بابهم ( إن الله  
لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) فادع الله معنى أن يرزقنا الفهم  
الصحيح لدينه ، ويهبنا القدرة والعزم ، لنعمل بما تعلم ، ويهديننا إلى الحق وإلى  
صراط مستقيم .



# ١٣ - سنة الله في رمي الأمم



يقول كثير من الناس إن هناك موجة من الإلحاد تنتشر بين الناس بمناسبة وصول (جابرين) إلى الفضاء ، وإذا صح هذا فلا شك أن سيده هو الجهل بالإسلام وكتابه المجيد ، فقل وصول (جابرين) مثل أي اكتشاف علمي آخر هو استغلال لما خلق الله في السموات والأرض من أشياء توصل العلماء بتفكيرهم وبجهودهم إلى الوصول إليها ، فاستعانوا بها على الوصول إلى طبقات الفضاء ، أو قل الأصوات والصور عبر الأثير إلى مسافات بعيدة ، وما توصل إليه العلماء الآن من إدراك خواص المخلوقات واستغلال علمهم على الوجه الذي نراه ، هو جزء يسير جداً مما أودعه الله في هذا الكون من أسرار وعجائب وخواص . .

وكل اكتشاف علمي يجب أن ننظر إليه من وجهين : من ناحية العقل الإنساني الذي خلقه الله وهبأه لهذا الإدراك الواسع ، وذلك له طريق اكتشاف بعض مافي الكون من أسرار ، ومن ناحية الخواص التي خلقها الله في الأشياء والتي أدت إدراك بعضهم إلى تسخير مافي الكون للإنسان ، ومن خلال هذه النظرية المزدوجة يجب أن تمنو جباهنا خالق الكون القدير الذي (خلق لكم مافي الأرض جميعاً) لا أن نخلق فينا موجة من الشك والإلحاد .

والسألة ليست مسألة الاكتشاف في ذاته ، ولكن مسألة العقل والتفكير الذي يتناول به الإنسان النظر إلى هذا الاكتشاف .

فإذا كان عقل الإنسان مستقياً ، وتفكيره سليماً ، وروحه متقبلة للنظر إلى هذه الاكتشافات نظرة للتأمل في خالقها ، وخالق موادها الأصلية ومودع الأسرار والخواص فيها ، أمكن أن يصل الإنسان بذلك إلى غاية الإيمان والخضوع للخالق ، ولكن إذا كان التفكير مختلاً والقلب مريضاً نظر إلى هذه الأشياء نظرة مريضة فلم يدرك ما فيها من أسرار ، ولا من وراءها من خالق قوى قدير ، ويصدق فيه قول الشاعر الذي يصور هذه الحالة أبديع تصوير فيقول :

ومن يك ذا قم مر مريض يحمد مرآ به للساء الزلالا  
والله سبحانه وتعالى يقول : ( قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ) .

ذلك لأن الناس في نظرتهم للأشياء جد مختلفين ، يرون الوردة الجلية ، ولكن نتيجة رؤيتهم لها تختلف ، فمنهم من لا يهجه إلا ظواهرها ورائحتها ، ومنهم من يمر عليها ولا يهجه شيء فيها ، ومنهم من يفكر فيها وراء ظاهرها ورائحتها ، في الذي أبدعها ونسقها ، وأودع فيها طيب الرائحة وجمال اللون ، فيصل من خلال هذا التفكير إلى الإيمان بالبدع الخالق القوى القادر ، ولهذا نجد القرآن يعرض أمامنا في آيات كثيرة مظاهر كونية في السموات والأرض ، في النبات والحيوان والإنسان نفسه ، ويلفت نظرنا إلى ما فيها من أسرار ، ويدعونا إلى التعمق في دراستها ، والوصول من خلال هذه النظرة الفاحصة إلى الإيمان بالخالق ، وهذا هو الطريق الذي سلكه كثير من العلماء الغربيين ، ووصلوا بواسطته إلى الإيمان بالله ، بعد غلوهم في الجحود والإلحاد حتى «دارون» نفسه نجده يقول : « إني أرى أن الأحياء التي عاشت على هذه الأرض جميعها من سورة واحدة أولية ، تنفع فيها الخالق نسمة الحياة »<sup>(١)</sup> فيعترف بوجود الخالق للبدع . . ومن خلال دعوة القرآن إلى التعمق في دراسة الكون ،

---

(١) كتاب « الإسلام والمبادئ » المستوردة ، ص ٤٩ .

حوزه للذين يعمرون عليه ، دون أن يعوا أسرارهم ، تنهم عناية الإسلام بالعلم بكل صورته والوأنه ، وترجييه بكل ما يتبعه العلماء من دراسات واكتشافات . بهذه الروح فهم المسلمون الأول دينهم وقرأتهم واندفخوا في مجال العلم يحققون أكبر قدر من السبق العلمى الذى تعترف به كل المحافل العلمية ، والذى قامت عليه نهضة العرب معتقدين أن عملهم فى هذا المجال العلمى ، إنما هو استجابة لدعوة القرآن إلى النظر والتأمل والبحث والتفكير .

قد كان عمر بن الحسام يقرأ كتاب المجسطى فى الرياضات السماوية لبطليموس على أستاذة الأبهري ، فدخل عليهما بعض الفقهاء فقال لهما : ما الذى تقرأانه ؟ فقال الأبهري : أفسر آية من القرآن هى قوله تعالى : ( أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج<sup>(١)</sup> ) وعلق الفخر الرازى من أئمة علماء التفسير على هذا فقال : « ولقد صدق الأبهري فيما قال : فإن كل من كان أكثر توغلا فى بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله وعظمته » فالدراسة العميقة المستفيضة للكون مما يدعو إليه القرآن ، وكل ما يصل إليه الدارسون من نتائج علمية محققة لا يمكن أن يقتضى مع ما جاء به القرآن ، بل يؤيد آياته ودعوته أما أن بعض الناس ينترون بالقول التى وصلت إلى هذه الاكتشافات ، ويعفون عند هذا الحد ، فذلك من قصور فى تفكيرهم ، ومرض فى قلوبهم ، وغرور استولى على نفوسهم ، فالقل من خلقه ؟ والطبيعة من أبدعها ، وأودع فيها أسرارها ؟ .

والوصول إلى الفضاء ، أو إلى للريخ أو غيره لا يصادم أى نص فى القرآن أو الحديث ، بل ربما كان من مقتضيات دعوة القرآن إلى العلم والتعمق فى دراسة الكون وأسرارهم وتفسيرها لبعض آياته كما يقول الأبهري ، ولو أن المسلمين ظلوا يفهمون القرآن كما فهمه السابقون ، ظلّت موجة العلم التى بدأها أسلافنا فى يدنا ، وكنا أولى من غيرنا بهذا السبق العلمى الذى ترى غيرنا قد وصل إليه .

حقيقة قد يغلط الأمر على بعض الناس ويظنون أن هناك تعارضا بين وصول

---

(١) راجع كتاب « الاسلام واليادى المستوردة » للكاتب قسلى : الاسلام واللم المسلمون واللم

جاجارين إلى الفضاء وبين ما ورد في النصوص الدينية من كلمة السموات ، واختراق الرسول صلى الله عليه وسلم للسموات السبع ، وصعوده إلى مدرجة للنتهى الخ . . .

وهذا الاختلاط لا يرجع منشؤه إلى نفس النصوص الدينية ، ولكن إلى فهم بعض الناس لها ، فكثير منهم من يفهم أن السماء هى هذه القبة الزرقاء التى نراها ، والتى رآها جاجارين على غير ما تراها ونحن على ظهر الأرض .. والسماء فى الفنة هى كل ما علاك ، ولكن حين ندخل فى نطاق تحديد السموات السبع التى ذكرها القرآن لا يمكن لنا تحديدها بأنها هى هذه القبة الزرقاء ولا هذه الأفلاك السبعة ، لأنها أصبحت أكثر من سبع الآن ، فمن الخطأ تحديد السموات بأنها هى التى تكون المجموعة الشمسية ، ولماذا لا تكون السموات التى تحدث عنها القرآن ، وجاءت الأحاديث تخبرنا بأن الرسول اخترقها ، هى فوق كل ما نعرف من عالم الكواكب ، وهل يمكن لعالم يحترم نفسه وعقله والعلم الذى يمثله أن يقطع بعدم وجود شيء وراء ما وصلنا إليه بواسطة للكبريات النظرية . ( التلسكوبات ) فى كل يوم يظهر جديد ، وقد يصل العلماء إلى اختراع مكبرات نظرية ذات أبعاد أقوى مما نعرفه الآن فتكتشف لنا من عالم السماء مالا نعرفه الآن .

وقطعا لا يمكن الادعاء بأن ما نصل إليه فى المستقبل هو غاية حدود هذا الكون ، وإلا كان هذا الادعاء نفسه دليل الجهل والقصور لدعيه ولو بلغ من العلم ما بلغ . . . وصدق الله إذ يقول ( وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ) فهذه القضية القرآنية يمكن تطبيقها علينا معها بلغنا مع العلم ، فالإشكالات التى تنصورها لا تنتج من نفس النصوص الدينية ، ولكن من بعض الأفهام السطحية أو السامية لها ، وهذا بالطبع لا يتعمل وزره الدين ، ولكن يتعمله الذين يتخطبون فى الفهم ، ويدعون الإحاطة والعلم بتحديد لمعانى الكلمات والدلالات ، ثم يجدون أنفسهم قد اصطلموا بنتيجة غرورهم وادعاءاتهم ، ونحن لا نطلب من القرآن أن يحددنا فى توصيل عن خواص الأشياء فلم يأت لهذا الترض ، لأنه كتاب هداية يكتفى بلفت الأنظار والعقول إلى بعض مظاهر الكون وأسراره لتتهدى بهذه النظرة العاقلة الفاصلة للمخالق جبل وعلا .

ولهذا لا يمكن لما قل أن يعيب عليه أنه لم يتحدث عن هذه الخواص ولم يعلمها الناس ، والقرآن مع ذلك لم يسد للناقد على الباحثين بل فتحها أمامهم ، ودعاهم إلى النظر فيها ، ودعاهم في حماس إلى استعمال عقولهم لتتوصل إلى أسرار الكون ، ومن الجهول الفاضح الذي يقع فيه القاصرون والمترورون أن الإنسان حين يبحث ويصل إلى بعض هذه الأسرار يأتي هؤلاء ويرتبون عليه نتيجة عكسية لما أراده الله جل وعلا من دعوتهم للبحث ، ويقولون وصل فلان ، واخترع فلان ولا بأس بأن يصل هذا ويخترع ذاك فكأنهم ينوصون في البحر الذي أوجده الله لهم ويسبحون فيه ، ولم يخلقوا جديدا ، ولكنهم استخرجوا بعض ما فيه ، والذي لم يستخرجوه أكثر مما عرفوه واستخرجوه وكان الأولى — كما قلت — لو استقام تفكير الناس أن يهديهم هذا التفكير إلى الإيمان العميق ، كما حصل لبعض العلماء الذين وصلوا عن طريق بحوثهم العلمية إلى الإيمان . . . الإيمان بالراسخ بالله .

إن كثيرا من الأبحاث العلمية الحديثة قد أضافت توكيدا جديدا لنفوس المؤمنين بالقضايا الدينية . . . فقد ورد مثلا في الآيات التي تصف مظاهر القيامة من تفتت الجبال وصيرورتها كالصوف للنفوس ، ونسفا نسفا من أمكنتها ، ومن خيلان البحار وفوراتها على شواطئها ، ورد من ذلك ما كان العقل يقف أمامه جامدا ، والقلب يؤمن به مسلما ، ولكن جاءت القنبلة الذرية وغيرها من القنابل المدمرة التي عرفنا كثيرا من آثارها قهرت لنا فهم هذه الآيات ، ولم يأت العلماء الذين اخترعوا هذه القنابل وعرفوا الخصائص التي قامت عليها بمجدد لم يكن موجودا ، وإنما استفادوا للوجود وما فيه من خصائص على صورة خاصة ، فوجدت لهم القوة الهائلة المدمرة .

وهل يصعب على الله الذي خلق هذه الخصائص أن يحولها نفس التحويل ، الذي توصل إليه العلماء وأقوى منه ، فينتج عنه ما تحدثت عنه آيات القيامة وانتهاء هذا العالم ؟

وكان كثير من الجاحدين — ولا يزالون — يشككون في إسرائ الرسول وسيره ليلا من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس ، والروج به إلى الرحلة القدسية السابوية ، والعودة في نفس الليلة إلى مكانه في مكة ، تشكك

للتشككون في هذه القضية حتى زالت إيمان بعض ضعاف النفوس ، وحملت بعض للفكرين على الجزم بأنها كانت رحلة روحية لاجسدية ، استكثارا منهم أن تتم هذه الرحلة الجسدية في ليلة واحدة وفي طريقه ما موهو الفضاء ، وانعدام خصائص الحياة فيه مما ترتبه على معلوماتهم القاصرة وبنوا عليه استعالة الرحلة الجسدية ، ولكن جاءت رحلة لرجل الفضاء ودوران الأقمار الصناعية وغيرها مما يتصل بهذا الإنتاج العلمي ، فغربت للمتشككين القضية التي شكوا فيها .

فإذا كان الإنسان — وهو الإنسان الذي لم يؤت من العلم إلا القليل — استطاع أن يصنع هذه الرحلة في وقت قصير ويجهاد الآن للوصول إلى أكثر مما حققه ، فهل يبقى مجال للشك في قدرة الله على الإسراء بالرسول والعروج به إسراء وعروجا جسديا لا روحيا ؟

إن كثيرا من الأبحاث العلمية والاكتشافات الحديثة تلاقحت مع كثير من التصور والقضايا الدينية وأيديتها ، وكان الفضل للنصوص الدينية التي سبقت هذه الأبحاث بقرون ، ولم يكن لدى الرسول صلى الله عليه وسلم أى استعداد شخصي للوصول إلى تفرير هذه القضايا وهذه الحقائق . . فأصبح من المؤكد اليقيني أنها هابطة عليه من العليم الخبير وهذه هي النتيجة التي يجب أن يصل إليها كل فكر سليم . وهنا نهتف ونرحب كسلمين بالعلم الذي يخدم قضية الإيمان ولا يعارضها ويعقق قول الله ( سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . . أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ) .

بقى بعد ذلك شيء ، كثيرا ما يدور في النفوس ويقلقها أو يحولها عن الحق ويوجد فيها بلبلة يود المخلصون أن يتخلصوا منها ، وينطلق للناقون الدين في قلوبهم مرض فيشكفون بها ، ويدعون التفلسف على حساب الإيمان . وقد سمعت بنفسى كثيرا من هذه التساؤلات والتفلسفات .

يقولون إن روسيا للامعة التي لا تؤمن بدين ولا بإله استطاعت علماءؤها أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه غيرهم من المؤمنين بالإله والأديان على اختلافها ، ألا يتبرهنحاجهم هذا دليلا على قوة فكرتهم وسلامة اتجاههم الإلهادي ؟

وهنا نقول إن كثرة العلم عند إنسان لم تكن في يوم من الأيام مقياسا لسلامة خلقه وصحة سلوكه وفكره ، كما أن العلم لم يكن في يوم من الأيام دافعا مطردا إلى الخلق القويم ، والسلوك المستقيم ، والإيمان الراسخ ، مثله مثل اللال وكثرته في يد بعض الناس أو الأمم ، فلم يكثر في أيدي الأغنياء لأنهم على قدر من الإيمان والخلق القويم يفوق ما عند غيرهم ، كما أنه لم يدفع أصحابه ويعلمهم على الخلق القويم والإيمان الراسخ عن أغنامهم .

فلا يمكننا إذن أن نأخذ من غزارة العلم أو كثرة اللال عند بعض الناس أو الجماعات دليلا حتميا على صفاء نفوسهم وصحة عقيدتهم .

واعتقد أن هذا أمر مسلم به .

وتأتى بعد هذا قضية أخرى متصلة بها لا بد أن نعرفها .

وهي أن القوة والسلطة والتلبة في هذه الحياة تابعة لناموس إلهي ، ومنته رباية ، وضعها الله للخلق ، وهي في متناول كل إنسان ، سواء كان مؤمنا بالله إيمانا حليا ، أو معوجا غلطاً ، أو لا يؤمن بالله مطلقاً ، فهو طريق ، عدة السير فيه ، الخلق وللعاملة الطيبة ، والأخذ بالأسباب ، والجهد للبدول ، وكل من سار فيه متسلحا بجدته ، سار إلى نهايته في نجاح ، ووصل إلى قمته ، والقمة هنا هي اللال — القوة — التلبة — السيطرة — إلى آخر ما نعتبره من زينة الحياة ومظاهرها القوية ، وهذا يتحقق بصورة أوضح في الجماعات لأن مجال التطبيق الكامل للطرد لسنة الله في هذه الدنيا هو حقل الجماعات والأمم ، لا حقل الأفراد ، فكل أمة ألزمت طريق الفضائل الاجتماعية من التعاون والتناصح ، والأخذ بالأسباب ، وحسن للعاملة ، وإتقان الصنعة ، والجد في العمل . والتكامل بالعلم ، كل أمة تسير على هذه الفضائل يؤتيها الله العزة والسيادة ولو لم تكن تؤمن بدين « ومن يرد ثواب الدنيا تؤته منها » .

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتهم قليلا ، ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ) فهذه الآيات وأمثالها كثيرة ، تكفي أن الدنيا ميدان مفتوح للجميع

يأكل منها البر والفاجر ، ويسيطر على خيراتها للؤمن وغير المؤمن وكل أمة تستجنب طريق هذه الفضائل فتعرج في سلوكها ، وتتقاطع وتنش ، وتتعارب فيها بينها ، وتهمل العقل والعلم ، والأخذ بالأسباب فصل يسلكها إلى النهاية الأليمة الأليمة ، وإلى الدلة والامتنانة التي قررها الله لأمتها ( سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ) .

هذه سنة الله في هذه الحياة التي لم تبدل على مر التاريخ ولن تبدل .

غاية ما هناك يمتاز للمؤمن بالله إيمانا عميقا سليما ، الذين يعملون الصالحات ، ويحبسون الفضائل التي دعاهم إليها الإيمان ، يمتاز هؤلاء عن غيرهم في الدنيا براحة نفسية تلعب دائما من الإيمان ، ويمتازون في الآخرة بجنات تجري من تحتها الأنهار ، ورضوان من الله أكبر .

وإذا نظرنا إلى التاريخ نجد ينطق في جلاء بصدق هذه القاعدة على الأمم جميعا كان دينها ، تقوى الأمة حين تأخذ بهذه الفضائل الاجتماعية ، ولو لم تكن مؤمنة بدين ، وتضعف حين تهمل الأخذ بهذه الفضائل ولو كانت تدعى الإيمان بدين لأن إيمانها حينئذ إيمان شكلي لم يتعد للظاهر .

وسنة الله هذه التي نلصقها في وضوح في حياة الأمم السابقة ، يمكن أن نطبقها ونحن مطمئنون على الحاضر والمستقبل .

ونخرج من كل هذا بنتيجة واضحة يجب أن يفهمها كل إنسان : وهي أن مظاهر العلم والتفكير واللال والقوة والغلبة في هذه الحياة لا يمكن أن تكون دليلا على سلامة الفكرة وصحة العقيدة .

ولقد هزم الرسول وضرب وجرح في غزوة أحد ، ولم يكن ذلك إلا لأن بعض أصحابه أهملوا تعاليمه في التكيف الحربي ، وتركوا مواقفهم التي أمرهم ألا يروحوها ، فأهملوا الأخذ بالأسباب فأصابهم الهزيمة . . ولم يكن ذلك لأن هؤلاء كانوا ضعاف الإيمان ، أو أن الرسول كذلك أو ترك شيئا مما أمره الله به . ولكن لأن الرماة لم يتبعوا سنة الله في نظام الحرب ، فتروا مواقفهم التي اتزها للشركون وعلموا ردوس المسلمين وظهرهم وأزلقوا بهم الهزيمة .



ويوم حنين وللسلمون كثرة ، أصابهم القُرور والتواكل فانهزموا ، وكان معهم الرسول ، وكان ذلك تطبيقاً لسنة الله في كل من يتسرب القُرور إلى نفسه ، ويهمل الأخذ بالأسباب .

ونحن للمسلمين الآن نملاً للساجد وتلو القرآن وتعلم ، ولكن لا يتعدى ذلك للظاهر الشككية ، أما النضائل الاجتماعية التي أمرنا بها القرآن ، وأما الأخذ بالأسباب التي أرشدنا إليها القرآن فقد أهملناه ، فأصابنا سنة الله . . ذلك بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .  
ونخرج من هذا كله بنتيجتين :

الأولى : أن كل بحث واختراع علمي إنما هو اكتشافات لبعض مظاهر القدرة التي أودعها الله في هذا الكون ، وهو يخدم الدين ويؤيده إلا عند المعاندین والذين في قلوبهم مرض .

والثانية : أن القوة والعلية في الدنيا في جميع مظاهرها . تابعة لناموس إلهي ، ومقاييس قائمة على فضائل اجتماعية ، وقواعد عامة للسلوك ، دعا إليها الإسلام ، لا على مجرد الفكرة الهندسية وسلامتها أو فسادها ومن هنا لا يصح أن نعتبر قوة أمة وغلبتها وتفوقها على غيرها علمياً أو صناعياً أو عسكرياً دليلاً على سلامة فكرتها عن الدين وإن كان دليلاً على سلامة سلوكها ، ووقائع تاريخ الأمم في الماضي شاهد صدق على هذه القاعدة أو على هذه السنة الإلهية .

وبناء على هذا — كما يقول رجال القانون — لا يمكن أن نعتبر تفوق روسيا دليلاً على صحة مبادئها الإلحادية ، أو أن نعتبر ضعف المسلمين الآن دليلاً على فساد المبادئ الإسلامية ، ولكن يمكن أن نقول إن تفوق روسيا دليل على أنها أخذت بالأسباب التي جعلها الله وسيلة للتفوق في الدنيا ، وضعف المسلمين دليل على أنهم أهملوا الأخذ بالأسباب ، وتركوا أعمالهم دينهم التي تهيء لهم التفوق والعلية والسلطان ( سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ) .

١٤ - الدعوة إلى

الله  
بالحسنى

قال تعالى :

« أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ  
بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ  
الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي  
هِيَ أَحْسَنُ » ..



« سورة النحل »

هذا التوجيه الحكيم الذي يدعونا إليه القرآن ، إنما هو توجيه الخالق الخبير  
بنفسيات خلقه ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، يعرف سبحانه ما يثير  
النفوس ، حتى تبلغ أقصى غايتها في الثورة ، كما يعرف الطريق إلى إطفاء هذه  
الثورة . . . وقد أرسل رسله أطباء النفوس البشرية المريضة ، فكان لابد أن  
يصيرون بموضع الدواء ، وطرق العلاج والدواء ، ويرشدكم إلى الطريقة للثلى التي  
يصلون بها إلى أعماق النفوس ، حتى يمسوا فيها مكامن الخير - إن كان فيها  
خير - ولهذا تجمد سبحانه يوجههم إلى إحسان القول ، وبسط الحجة للناس  
في تواضع ولين ، ورحمة وشفقة ، لأن الله يعلم أن هذه هي الطريقة للفضلة  
واللائع ، والتأثير على النفوس ، وجذب القلوب إلى الدامى ، ولو بالعطف إن لم  
تستجيب له بالإيمان .

ولو راجعنا أساليب الدعوة التي سلكها كل رسول مع قومه - بما قصه  
علينا القرآن - لوجدنا الدعوات جميعها تصطبغ بهذه الصبغة الربانية ، وتسلك  
هذا السبيل للهدى الذي اختاره الله لرسله كي يتبعوا به ، ويكونوا قدوة فيه  
لدعاة من بعدهم ، وقد صاغهم الله فطراً سليمة ، ونفوساً حكيمة ، يؤثرون الكلمة  
الليينة على الكلمة الحشنة وينفذون إلى النفوس من الطرق السليمة ، التي أرشدكم

الله إلى سلوكها ، فما رأينا من الكافرين برسائهم ، من يعيهم بحقوة الخلق أو شنؤذ الطبع ، أو فظاظة القلب ، وكان هذا كله من الضروري لرجال جلعهم الله قنوة خلقه وسفراده إليهم ، وهداتهم للخير في الدنيا والآخرة .

وسدق الله العظيم الذى يقول لصنوة خلقه ، وخاتم رسله ، ممتناً عليه ، ومذكراً له ما صاغه عليه من رقة القلب ، ولين الجانب ( ولو كنت فظاً غليظ القلب لاتنصوا من حولك ) (١) . ومن للفيد في هذا المقام أن نستعرض سويأ بعض ماقصه علينا القرآن الكريم من الأساليب التى سلكها رسل الله الكرام ، في دعوة أقوامهم إلى فكرتهم ودعوتهم ، لأننا سنجد فيها حسن العرض ، وهدوء الطبع ، واختيار الألفاظ للثورة ، والمجادلة بالحسنى ، كما تدعو آية سورة النحل ، يقول الله تعالى ( كذبت قوم نوح للرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ) ( كذبت عاد للرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ) ويقول ( كذبت عمود للرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ) وهكذا مع لوط وشعيب ، فكان كل منهم عليهم الصلاة والسلام يمرض فكرته على قومه في هذا الأسلوب للهنذب الهادئ. الذين ( ألا تتقون إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ) .

وما كان يخرج الرسول منهم عن هدوته وخلقه ، ولا عن الطريقة للثلى في دعوته حتى حين يشتد به الأمر ، ويطبق منهم العنف والتهديد — فكان يتجه حينئذ إلى ربه يناجيه ، وما وجدنا منهم رداً متجهماً على تهديد أو وعيد ، فإذا قالوا لنوح ( لئن لم تنته يانوح لتكون من المرجومين ) لم يخلط معهم في القول، بل اتجه إلى الله يقول ( رب إن قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتناً ونجنى ومن معى من المؤمنين ) وإذا قال قوم لوط له ( لئن لم تنته يالوط لتكون من المخرجين ) . رد عليهم لوط رداً هو النجاة في اللطف والسعة وقال لهم ( إني لسلطكم من القالين ، رب نجنى وأهلى بما يعملون ) وإذا استمر شعيب عليه السلام يناقش قومه ، ويحاول أن يجذبهم إليه ويقول لهم ( ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهماكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله ) ويذكرهم

---

(١) سورة آل عمران .

بما أصاب من قبلهم من قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، لم يجد رداً من قومه على هذا اللين والوادعة إلا أن يقولوا له في تعنت واستعلاء ( يا شعيب ما تقفه كثيراً بما تقول ، وإننا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بمزئز ) ورغم هذا التحيي والتخير والتهديد ، يقول لهم شعيب في أدب زينه به ربه فلا يتخلى عنه حتى في أشد المواقف ( يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط ) .

وهكذا نجد هذه الصورة المتكررة من الأسلوب للمذهب في عرض الفكرة ، وفي المناقشة مهما اشتدت ، وعلى الصورة اللاتقة بالداعي ، وبربه الذي رياه واصطفاه ، وبالدعوة الكريمة التي يدعو إليها ، والتي تقوم أولاً ما تقوم على العرض والاعتناع والقبول .

ولعل أبرز مثل للدعوة الكريمة في الأسلوب للمذهب ، ما تجده في قصة موسى وفرعون ، فقد أرشد الله موسى وأخاه هرون ، حين أرسلهما إلى فرعون ، الذي طغى وبغى في الأرض بنير الحق حتى قال لأتباعه : أنا ربكم الأعلى ، أرعدهما الله إلى هذا الأدب وإلى هذه الحطة القويمة فقال لهما ( إنهما إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً لنا لعله يندكر أو يخشى ) ففي الوقت الذي يصف فيه فرعون بالطغيان والفساد ، والتكبر في الأرض بنير الحق ، يأمر رسوله أن يسلكا معه طريق الحكمة والوعظة الحسنة ، ويختارا الطريق للذهب ، والكلام اللين الذي يمكن أن يصل إلى قراة النفوس ، ويلمس ما قد يكون فيها من نواحي الاستعداد ، وكان هذا هو الأليق برسل الله ، كي يكون عملهم فيما بعد قدوة حسنة للدعاة وإن لم يصل إلى قلب هذا الطاغية

وإذا تتبعنا بعد ذلك الطريقة العملية التي تتخذ بها موسى عليه السلام وصية ربه نجد الأدب الرباني ، والحكمة البالغة في دعوته لفرعون ، فحين يترك فرعون للين عليه بالترية والرعاية ، ويأخذ في مساءله عن ربه في هزم وسخرية . يحجبه موسى هذه الأجوبة التوجيهية بنض النظر عن شتائمه ، اقرأ معنى قوله تعالى ( قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون ) فيستهزئ فرعون من هذا الجواب ،

ويدعو إلى السخرية به ، ولكن موسى يستمر يتحدث عن ربه ، ويقول ( قال ربكم ورب آبائكم الأولين ) ويرد عليه فرعون ( قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ) فيتهمه فرعون بالمجنون ، ومع ذلك يستمر موسى في كلامه ، دون أن يلقى بالا إلى هذه الشتائم ، ( قال رب للشرق والغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ) وما كان لموسى وهو مشغول بمهمة تبليغ الدعوة أن تصرفه عنها هذه الشتائم ، وهذا السباب ، فإن ذلك كلام لا يضره ، ولهذا أهمله وركز كل اهتمامه في ذكر ربه رب السموات والأرض رب الخلق ورب الشرق والغرب .

وحين تضايق فرعون من جواب موسى واستمراره في ذكر ربه بهذا الوضع ، لجأ إلى التهديد والوعيد وقال له ( لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ) وأنت تعرف مصيرهم فأجابه موسى في هدوء وأدب ( أولو جنتك بشئ مبين ؟ ) وكان هذا الأسلوب الهادئ ، هو الذي جر فرعون إلى مناظرته حين جمع السحرة أجمعين فكانت النتيجة أن هؤلاء الذين جلبهم ليستعين بهم ، خروا ساجدين لرب العالمين رب موسى وهرون ، وصاروا أمام قومهم أول المؤمنين وتخلخلت بذلك صفوف فرعون ، وخارت نوعا ما عزائمه ، وإن بقي على دينه وعناده .

هذه القصة قصة الأدب الرفيع في الدعوة إلى الله ، مهما بالغ للدعوة في جبروته وعناده ، وهي أعلى مثل وأعظم قدوة للدعاة في كل زمان ومكان ، وبوجه أخص للدعاة الناصحين ، حين ينصحون إخوانهم في الدين ، وشركاءهم في القيدة ، فإذا كان الله قد اختار هذه الطريقة اللينة للمهذبة في حجاج موسى لفرعون الطاغية ، فلأن تتبعها في مناقشاتنا ونصائحنا ومحاجاتنا نحن المسلمين بضنا مع بعض أولى والأزم .

وفي توجيه الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته للناس إلى الإسلام خير قدوة للداعين من أمته ، وهو نفس التوجيه الذي وجه رسله جميعا إليه من قبل يقول الله لرسوله « أذع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي

هي أحسن ) ويقول ( ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ) ثم يقول في آية مدنية ( لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ) قد اختار له ربه بهذه الآيات أن يسلك في دعوة المخالفين سبيل الحكمة والسداد ، ويختار للناسبات والأوقات والألفاظ ، ويدخل الى نفوسهم باللين من القول ، وللؤثر من النصع والتوجيه ، ولا يُلظّض معهم حين يجادلهم ، بل يتلقى الحجة القوية ، ويسوقها لهم في بساطة وجه ، وحلاوة لسان ، فإنه إن لم يكسبهم في صف المؤمنين المستجيبين لله وللرسول ، فلا شك أنه سترك في نفوسهم أرا طيا من عنوبة لسانه ، وطيب خلقه .

ولقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما يتوالى عليه سيل الإيذاء والاضطهاد ، ومع ذلك لم ترخصا من خصومه ، يأخذ عليه أنه كان جاف الطبع ، سيء المناقشة ، بل قالوا عنه من شدة جاذبيته لمحدثيه ، وتأثيره على نفوسهم محلو كلامه ، ورقة حديثه ، وبما يتلوه من القرآن ، قالوا عنه إنه ساحر مبين ، وحين أخذ هرقل قيصر الروم يسأل أبا سفيان عن محمد صلى الله عليه وسلم وكان لا يزال مخالفا له ، لم يجد أبا سفيان منمزا في رسول الله ، وما كان أشد رغبته في أن يجرحه أمام هرقل ، ولكنه برغم أمعه لم يقل عنه إلا ما يزينه ، ويرفع من شأنه ، « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

وبرغم ما تدعوا إليه هذه الآية وأمثالها ، من حسن الخلق في المناقشة ، وسلوك سبيل الحكمة واللوعة الحسنة ، وهي كلها فضائل قيمة — برغم هذا نجد بعض المفسرين يقولون : إنها منسوخة بآية السيف أى بالآية التي تدعو إلى القتال — وأنا لا أرى رأى هؤلاء ، لأن معنى كلامهم أن الدعوة إلى الإسلام بالحكمة واللوعة الحسنة ، وسلوك الحجة الواضحة في المناقشة والاقناع ، قد بطل كل ذلك وحل محله السيف ، فأصبح هو الطريق لدعوة الناس إلى سبيل الله ، وهذا غير مستساغ ، ولا معقول ، فليس معنى الأمر بالقتال أن تمتشق الحسام لكل مخالف ، تهوى به على رأسه ، ولو كان مسلما ، موادعا ، بل لابد أن ندعو إلى الله ونسلك الطرق الحكيمة في الدعوة ونسوق الحجة الواضحة على ما ندعوا إليه .

أما السيف الذي أمرت الآية باستعماله فلرجل مخالف معاند ، لج في عناده ولجأ إلى القوة ليعترض سبيل الدعوة ، ويؤذى إخواننا للدين ، السيف لهذا فقط لا لكل مخالف ، وتكون القوة حيثئذ لتأديب المعتدين مقابلة للقوة بالقوة ، وللسيئة بالسيئة ( وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تمتدوا إن الله لا يحب للمتدين ) وليس مما يشرف الإسلام ، ولا للتنسبين إليه أن يقال إن الدعوة إليه بالحكمة والحسنى وبالدليل الواضح قد بطلت ، وحل محلها القوة .

نعم ليس هذا مما يزين الإسلام . ويرفع من شأنه ولكن يزينه أنه يتحد الحجة الصادقة في أسلوب عف حسن ، وسيلة أولى لإقناع المخالفين ، ولا يرضى حتى بالكلام الحشن الضليظ في الدعوة ، بن السيف والدفع ، نعم هذا هو ما يشرف الإسلام بين الدعوات ، لأنه الطريق الطبيعي لكل دعوة وفكرة في أى عصر من عصورها ، عصر ضعفها أو عصر قوتها ، فلا يستثنى داع مطلقا وفي أى وقت عن أن يتزود بخير الطرق ، وحسن الخلق ، في دعوته إلى فكرته ومبادئه ، مهما كان وراءه من القوى التي تسنده ، وقد أصبح للدعاة الآن مدارس تقوم بتبنيهم وإعدادهم وتسلحهم لا بالسيف بل بالطرق السامية الآلية القائمة على أحدث ما عرف من نظريات في علم النفس كي يعرفوا للدخل السهلة إلى نفوس الناس . ويتجنبوا المزالق التي تعكس عليهم مقاصدهم .

فهل يعقل — وقد وصل الناس إلى هذا بتكريمهم — أن ينهى الله الخبير بالنفوس عن استعمال الدين والحكمة في دعوتها إلى الدين ؟ هل يعقل بعد أن تفنن الناس في إعداد الدعاة وتهيتهم أن تقول : لا داعي لهذا كله فقد أبطلته آية أخرى وشرعت محله شريعة السيف والدفع ؟ .

يكفى أن نستشير في هذا المجال بقول الله تعالى لرسوله ( ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفصوا من حولك ) فقد امتن الله على رسوله بأنه الآن جانبه ، ورقق قلبه ، وجعله عذب اللفظ ، سهل التحدث والتخاطب ، حتى كان ذلك سببا لتجمع الناس حوله وحبه لهم . وقد رأينا الشعر يتعرض لهذه التقطة ويدلى برأيه ودفاعه ، فهذا شوقي رحمه الله يقول في قصيدته « نهج البردة » :

قالوا غزوت ورسل الله ما بشوا    قتل نفس ولا جاءوا لسفك دم  
جهل وتضليل أحلام وسفطة    نحت بالسيف بعد الفتح بالقلم  
لما آتى لك عفوا كل ذى حسب    تكفل السيف بالجبال والعمم  
والشر إن تلقه بالخير ضقت به    ذرعا وإن تلقه بالشر ينصم

وفي البيت الأخير يضع شوقي نظرية الإسلام في معاملة مخالفه ، فإن أثاروا الشر واعتدوا على المسلمين ، قابلهم المسلمون بالمثل ، وتكفل السيف بهم ، لأن هذا هو الفواء المناسب ، وإن سالونا سالنهم ، وعشنا معهم في أمان وسلام .

« وبعد » فهل نغفلن إلى هذا كله عن الدعاة إلى الله ، لقد تسلمنا مقاليد الدعوة إليه بعد رسله ، وأصبحتنا قوامين على دعوته ، فمن واجبتنا إذن أن نتخلق بأخلاقهم . ونسلك الطرق التي سلكها رسله في الدعوة إليه ، وأن نكون في وعظنا ونصحتنا ومناقشاتنا مثالا طيبة للدعاة فننصح في شفقة وهدوء ونوجه في لين ويسر ، ولا نجبه الفرد بمعايه أمام الناس ، فربما يدفعه ذلك إلى العناد . بل ننصحه في خفاء فإن ذلك أجدى عليه وعلى الدعوة .

وعلينا كذلك أن نضع كل شيء في موضعه وأن نزن الأمور كما هي بميزان الحكمة فلا نبالغ في الأمر اليسير ، ولا نفرط في الأمر العظيم ولا نرفع السنة وللدنوب إلى مكان الواجب ولا نزل الواجب إلى مكان السنة والدنوب .

وعلينا كذلك ألا تمسك بالقشور وتترك اللباب ونهمل أهم ناحية في الإصلاح ، وهي إصلاح الخلق وعلاج النفس وحسن توجيهها .

إن كثيراً من الوعاظ والناصحين قد يكون سببا في تنفير الناس من الدين وخروجهم عن الطريق المستقيم ، لا كراهة في الدين ، ولكن كراهة في الداعين إليه وللدين حمايته لأنهم لم يدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، إن العصاة الخارجين عن الطريق القويم ، هم مرضى النفوس ، والواعظون الناصحون هم الأطباء والأساة فليهم أن يترقوا بمرضاهم ، ويعطوهم من الدواء



ما يناسب حالهم ، ويداوى أمراضهم ، ويشقى أسقامهم ، حتى يجدوهم أخيرا بجانبهم أصحاب النفوس أقوياء الروح أعضاء صالحين عاملين .

وقد روى عن أسامة بن زيد مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا ينبغي لأحد أن يأمر بالمعروف حتى يكون فيه ثلاث خصال يكون علما بما يأمر ، علما بما ينهى رفيقا فيما يأمر رفيقا فيما ينهى » وصدق الله العظيم الحكيم في توجيهه لرسوله الكريم ( ادع إلى سبيل ربك بالحكمة وللوعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين ) .

## ١٥ - الوعد الحق

قال تعالى :  
« وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ  
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا » .  
( سورة النساء )



ترتفع أصوات كثير من المسلمين في هذه الأيام ، ويتساءلون عن أثر الوعد  
الكرم الذي وعدهم الله في القرآن ، وكتب على نفسه أن يصرم ويحقق  
العزة لهم ولا يجعل للكافرين سبيلا عليهم ، وهم يرددون قوله في كل وقت  
( والله العزة لرسوله وللمؤمنين ) وقوله تعالى ( ولن يجعل الله للكافرين  
على المؤمنين سبيلا ) وينظرون إلى حالتهم التسة ، ووقعهم في غباب الدول  
للتعمرة غير المسلة ، ويقارنون ذلك بما تلقوه هذه الآيات في آذانهم ، وتصبه  
في قلوبهم ثم يتصيحون : أين العزة التي كتبها الله لنا ؟ وأين هو وعد الله ؟  
وهؤلاء للتسائلون الذين يبحثون عن وعد الله ، ويتظاهرون بالجد في البحث عن  
العزة ، وحسب القلية ، هؤلاء في حاجة إلى أن نسألهم : من أنتم أيها للتسائلون  
في نظر الدين ؟ وهل تعرفون مكانكم الذي تفقون فيه من تعالجه ؟ قريون أنتم  
أم يبيدون ، هل أنتم حقيقة مؤمنون ؟ .

فإذا لم يثروا على تسمية المؤمن في قلوبهم ، ولا على اتساق مجتمعهم مع روح  
الإسلام وتعالجه ، فليس من حقهم أن يتصيحوا حيث يشاءون ويقولوا : أين العزة التي  
كتبها الله لنا ؟ ؟ ؟

إن العزة ليست عطاء ، ولا مائدة تنزل عليهم من السماء ، ولكنها ثمرة  
مجهود عاق من الأعمال ، التي تركز على الإخلاص ، وتلبث من الإيمان ،

وفي سبيل تحقيقها وجه الله المسلمين إلى العمل للثمر الثمن ، في كل فرع من فروع الحياة ، وجعل العمل في الحقل والصنع والشارع والديوان جهاداً في سبيل الله ، « مق أخلص العامل النية في الوقت الذي كره إليهم البطالة والكسل حتى يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه » « لأن يأخذ أحدكم حبله فيستطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ولم ينظر نظرة رضا أو عطف لهؤلاء الذين يتقطعون للعبادة ، تاركين الساهمة في النشاط الحيوي للمسلمين ، ظانين أن ذلك هو الطريق الأمثل في الإسلام ، لكسب رضا الله ، بل فضل عليهم هؤلاء العاملين الكادحين في عمارة الكون : القائمين بخدمة أنفسهم ومجتمعهم ، فمن أنس رضى الله عنه قال : « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فإنا الصائم ومنا المفطر ، قال فزلنا منزلاً في يوم حار أكثرنا ظلاً صاحب الكساء ، فإنا من يتقى الشمس يده قال : فسقط الصوم ، وقام للمفطرون ، فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ، فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ذهب للمفطرون اليوم بالأجر كله » .

وهكذا يذبح الرسول أمته إلى العمل المثمر ، ويغذيهم عن التواكل ، ويرخص لهم في ترك العبادة التي تعجزهم عن السعي والعمل لعبارة السكون ، وأكثر من هذا دلالة على هذه الروح الإسلامية للقدرة للعمل ، ما روى عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه ، قد مدح جماعة أمامه أخاً لم بأنه يصوم النهار ويقوم الليل ويقطع للعبادة ، فسأله الرسول عمن يطعمه ويسقيه قالوا كنا يارسول الله قال : كلكم خير منه .

أرأيت بعد هذا — أيها السلم الباحث عن العزة أكثر من هذا دلالة على تقدير الإسلام للعاملين وعنايته بأن يكون أتباعه مبرزين في كل ناحية من نواحي الحياة فلا يكون فهم عاطل ، ولا كل على غيره ؟ ١ .

فهل حقق المسلمون المتصايحون هذا المعنى في تقوسهم ، وفي أعمالهم ، وهل عملوا على أن يكون المجتمع الإسلامي خلية دموية على العمل ، لا يعرف البطالة أو الكسل ، أو أن الأمر على عكس ذلك ؟ ١ .

لقد كان عمر رضى الله عنه يضرب بدرته هؤلاء القاعدين التواكلين الذين

يعيشون كلا على غيرهم ، شعورا منه بمقدار خطرهم على مجتمعاتهم ، وخوفا من أن تسرب هذه الروح العاجزة إلى الأكثرية من المسلمين ، فيصبوا أمة واهنة ضيعة ، تقع فريسة سهلة مستساغة للعاملين المجهدين من الأمم .

والله حين كتب العزة للمؤمنين ووعدهم بإياها أراد بهم العاملين المخلصين الذين جمعوا بين صحة العقيدة وجودة العمل ووصفهم في كتابه بأنهم ( الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ) ولم يرد بهم هؤلاء القوالين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، بل رسم في صراحة ووضوح طريقة تحقيق وعده وبين من هم هؤلاء للعودون ، وذلك في قوله عز من قائل ( وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قباهم ، ولنمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ) فالوعد إنما هو للمؤمنين العاملين أعمالا صالحة متقنة ، القائمين بما عهد إليهم بأمانة وإخلاص محققين في أعمالهم توجبه رسولهم ( إن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه ) .

فأين للتصايحون . . . من هؤلاء ١١٩ .

« ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقع في القلب وصدقه العمل ، وإن قوما خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأخلصوا العمل » هكذا رسم لنا الرسول الصورة الكاملة للإيمان وللمؤمنين ، ولقد حكى لنا القرآن قصة جماعة قوالين ، أرادوا أن يصفوا أنفسهم أوصافا لم تهبها أعمالهم ، فلم يرتض الله منهم موقفهم ، وأرشدهم إلى الطريقة التي يستحقون بها ما يطمحون إليه فقال ( قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لايكنم ( لا يتقصم ) من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم ، إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ) . وقد رد الله عليهم هذا الرد لأن مرتبة الإيمان تقتضي الإخلاص وتعرض على صاحبها حسن العمل ولما يصلوا إلى ذلك بعد .

وليس للمسلمون اليوم بأفضل حالة ، ولا أحسن عملاً من هؤلاء الأعراب ، فهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم يدعون الإيمان وليسوا أكفاء لهذا الادعاء ، ويلقبون أنفسهم ألقاباً ضخمة من العارف بالله ، وللمؤمن ، والحق ... الخ ، دون أن يدفخوا ثمن هذا من جهودهم وإخلاصهم فكيف ينتظرون إذن أن يحصلوا على المجد دون ثمن ، ويصلوا إلى العزة ، دون أن يدفخوا مهرها ؟ ١١١

هل يجد المسلمون فيما بينهم الآن روح التناصر والتناصح ؟ وهل يحرسون على العدل في أعمالهم وأحكامهم وهل يتواصون بالحق والصبر .. وهل .. وهل .

إن الله قد وضع للمجد أسساً ، وضحا القرآن ، وطبقها الرسول ، وصحابته المخلصون ، فوصلوا إلى القمة ، وعمال أن تتغير سنة الله ، فمن لم يعتمد على هذه الأسس ضل وزل ، ولم يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ولا تنفعه الأسماء ولا يجديه الادعاء ١١١ .

وما لي أحب نفسي في الرد على هؤلاء المتصايحين المعترضين ؟ وقد رد الله في القرآن على أمثالهم من المسلمين ، الذين أصابتهم فترة من الضعف النفسي غفلوا أمر الرسول وتركوا إرشاداته في غزوة أحد فزلت بهم المريعة ، وتقلب عليهم المشركون ، فرفع بعضهم صوتهم متصايحين ، أين النصر الذي وعد الله رسوله والمؤمنين ؟ كيف تقلب وفيما رسول الله ؟ وكيف ينتصر علينا عباد الأوثان ؟ فكفى الله ذلك في القرآن ورد عليه ، ليسوق العبرة إلى كل مسلم ويوضح الطريق لكل ضال ، ويحدد للعالم لكل حائر ، ولا يجعل لأحد حجة ولا ميلاً .

قال تعالى في سورة آل عمران ( أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير ) نعم فهزيمة المسلمين يوم أحد في الليدان كانت بعد أن حالفوا ما أمرهم به الرسول من « البقاء بأماكنهم لا يرحبونها على أية حال » ، وتلاحقوا يجرؤون سراعا إلى حيث يجمعون أصلاب الكفار للتهزمين ، فانقلب نصرهم هزيمة ، وقوتهم ضعفا ، وتبدل أمنهم خوفاً ، ولما رد الله عليهم حين تساءلوا — غافلين — كيف ينهزمون ، ومن أين تأتيهم المصيبة وقال لهم إنها جاءتكم من أنفسكم ، وبسبب خروجكم عن

الخطئة التي وضعها الرسول لكم ، فلم يخلف الله وعده ، ولكنكم أنتم الذين خالفتم سنته ، وخرجتم على أوامر رسوله خفت عليكم الهزيمة ( وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويفوعن كثير ) ( وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ) وقد قال رجل لإبراهيم بن آدم ، يقول الله عز وجل ( ادعوني استجب لكم ) فما لنا ندعوه فلا يستجاب لنا ؟ قال إبراهيم من أجل خمسة أشياء قال وما هي ؟ « قال : عرقم الله فلم تؤدوا حقه ، وقرأتم القرآن فلم تعملوا بما فيه وقتلتم نحب الرسول ، وتركتم سنته ، وقتلتم نلعن إبليس وأطعتموه ، والخامسة تركتم عيوبكم ونظرتهم في عيوب الناس » وهذه كلمات رجل حكيم ، وتصوير مؤمن خبير ، نستطيع على ضوء حكمته أن نعرف كذلك لماذا لم يتحقق للمسلمين وعد الله في نصرهم وتوفير السيادة لهم .

فهل عرف طلاب العزة وهم قاعدون . أنهم داء الحياة ، وأنهم للمتدنون الجنة ، حين ضيعوها وأصبحوا حجة على الإسلام الأبي العزيز ؟ هل عرفوا أن وعد الله حق وقوله صدق ؟ ( وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) .

# ١٦- وكفى بالله شهيدا

قال تعالى :  
«وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ،  
وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» .  
سورة النساء »



يسمع الإنسان أحيانا بعض آيات من الذكر الحكيم فتَهْتَزُّ لها نفسه اهتزازاً قويا وتقع منها موقعا عميقا ، ويحس لها حلاوة وتأثيراً ، كأنه لم يسمعها ولم يقرأها من قبل وقد تكون لهذه الحالة دوافع خاصة في النفوس أحيانا ، تبطلها — حين تسمع القرآن — أكثر فهما وإدراكا له وإحساسا به منها في أي وقت آخر . . . ألمس هذه الحالة في نفسي كثيرا ، وكنت أنهم حسي بالبلادة ، وعدم الرقة ، وأخشى أن يكون ذلك فيها نوعا من عدم التوفيق ، حتى وجدت كثيرا من إخواني يحدثونني عن أنفسهم ، بما ألمت به في نفسي من قبل ، ويخشون ما أخشاه وسرى بنا الحديث إلى موقف لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يشبه هذا الموقف من بعض الوجوه ، وهو من نعرف فهما وإيمانا وعمقا وإدراكا لسكل ما نزل من القرآن تذكرونا موقف عمر حين توفي الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذهل وخرج يضرب كل من قال : إن محمداً قد مات ، كأنه استعظم على حبيبه ورسوله وصفي ربه أن يلحقه الموت كما يلحق الناس جميعا ، وكأنه لم يسمع ولم يقرأ من قبل قوله تعالى ( وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ) .

فقلل يزجر في الناس وينهرهم عن هذا القول ، حتى خرج له أبو بكر ، وأسمعه هذه الآية التي سمعها وقرأها مراراً من قبل فأفاق من ذهوله ، وشعر كأنه سمع آية لم يسمعها ولم يحفظها من قبل ، ووقعت الآية على نفس عمر الهائجة الثائرة الفائرة ، كما يقع الماء على النار للتأججة ، فهذا وعادت إليه نفسه الواعية الدائرة وهو يقول : كأنني لم أسمع هذه الآية قبل الآن . .

ولئن كان لعمر رضى الله عنه في هول المفاجأة بعض اللبررات في ذهوله عن الآية لم هو على كل حال عمر ، ونحن نحن . . فإن مرت علينا آيات لم تصل إلى أعماق نفوسنا أحيانا ، ثم إذا بها فجأة ولظروف محيطة بالإنسان ، تصل إلى قاع النفس وتعلأ جوانبها فتحن الدين شغلنا الدنيا حتى هجمت علينا ونحن واقفون بين يدي الله فجعلتنا نهم في كل مكان أو تنكسر في كل شيء . بينا الجسم يتحرك تحركات المسلمين ومع ذلك فإن الله يتجلى أحيانا على الإنسان ، فبهبه جرعة من الذكر والفكر فيه ، وفي آياته فتضمه سعادة يحس من أجلها كأنه أسعد وأوفر حظا من الملوك وأصحاب الملايين وبهم حقيقة ما قاله بعض النساك حين شعر بهذه اللذة : نحن في حالة من السعادة لو شعر بها أصحاب السلطان لقاتلونا عليها ١ .

دفعني - أخى - إلى هذه الحواطر حالة مرت بي ، وأنا أصلى في الروضة الشريفة خلف إمام المسجد النبوي ، وهو رجل قد وهبه الله فيما وهب حسن تلاوة القرآن في الصلاة استمعت إليه وهو يقرأ قوله تعالى : ( يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ) (١) . . استمعت إلى هذه الآيات ، كأنني أستمع إليها لأول مرة في حياتي ، فاهتزت نفسي اهتزازاً قويا أقول الله يصف رسوله عبداً بهذه الأوصاف ( شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ) وأشهد أنه كان لوقوفي بجانب قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وبمكان سعد بالرسول ومحابته من قبل ، أشهد أنه كان لهذا الجو الروحاني القدي يحيط بي ، فضل كبير في التأثير النفساني ، القدي استولى على ، وجعلني أحس هذه الآيات إحساساً جديداً كأنني لم أسمعها



من قبل ، وأنا الذى أحفظ القرآن منذ صغرى ، وأكرره كثيرا ، بل كنت فسرت هذه الآيات لطلابي منذ شهر في معهد المدينة للنورة .

جلست بعد الصلاة ، مأخوذا بهذه الحالة مسرورا بها في نفسى ، بل مسرورا بنفسى من أجلها ، فالوصول بالنفس إلى هذه الحالة شيء يسر ، وأخذت أتأمل في ثناء الله على رسوله ، وقد أسعدنى الله ، فجعلنى أعيش شهورا بجواره ، أسلى بمسجده ، وأسلم وأسلى عليه كل يوم مرات ، وأقوم بتفسير القرآن في أرض القرآن . . جلست أفكر متأثرا بهذه العوامل هذا هو محمد بن عبد الله الذى يثنى عليه الله . يثنى عليه الحق القوى الأعلى ، ما أعظم محمدا ١١١ .

إن الإنسان ليتفخ ويخيل له وهمه أنه قد ملأ الدنيا إذا مسمع كلمة ثناء ومدح ، ولو من منافق كذاب ، ومخاتل جهول ، وإن أحب شيء إلى الناس أن يثنى عليه الناس ولو بالتافه من الصفات .

ولكن هذا محمد يثنى عليه ربه ... فهل تستطيع اللمة بثروتها أن تقدر هذا للوقف الخالد ، وأن تمارن بين عبد من عباد الله يمدحه الله ، ويثنى عليه في كتابه الخالد ، وبين عباد آخرين همهم في الحياة أن يمدحهم إنسان بكلمة تمر على شفاههم أو تأخذ طريقها إلى صحيفة تدثر بعد حين ١١

استغفر الله أن مجرد اللقارنة اعتداء على هذا اللقار الأسمى ، لكننا كلنا مضطرون إليها ، حسب أفهامنا وعقولنا حتى ندرك الفرق الشاسع بين اللقارين .

وإنما كانت اللمة عاجزة تماما عن تصور هذا الموقف لأنه موقف روحانى ، يخص الروح ، هى التى تشعر به ، وتعبّر عنه بأساليبها الروحية ، وكلاصفت وممت كلما كانت أكثر إدراكا لهذه اللقارنة ، وهذا التصور ، وكانت تبعاً لذلك أكثر تأثراً وتضديراً لهذا التقدير الربانى لعبد الله ورسوله حتى انتهت كل روح من الأعمق ، وهى سيدة بهذا المتألف . . ما أعظم محمدا ١١١ ؟

إننى أتأمل طويلا في وصف الله لرسوله « وسراجاً منيراً » رجل من البشر يصفه الله بأنه سراج منير ، ما أبدع هذا الوصف ! وما أجمله حين يصفه الله العالم بقيم خلقه على عبده ومصطفاه ! وما أعظم هذا العبد الذى حاز هذا المعطف وهذا

التقدير . نعم ما أعظمه لا تؤاخذنى يا أخى ترانى ألف وأدور حول هذا العير  
الطيب الذى تنلحه هذه الآيات دون أن أغير كثيراً فى الألفاظ . . ألم أقل إن  
القة عاجزة ؟ !



سارت بنى تأملانى إلى آيات أخرى تشبه تلك الآيات وتلوت قول الله عن  
عبد ورسوله : ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص  
عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ) وإلى قوله تعالى : ( قل إن كنتم تحبون الله  
فاتبعون محمداً ) وقوله : ( من يطع الرسول فقد أطاع الله ) ثم فز ذهنى  
إلى آية تجمع كل ثناء ، وهى شهادة من العلى الأعلى لرسوله : ( وإنك لعلى خلق  
عظيم ) إذ ليس بعد هذه الشهادة شهادة ، ولا بعد هذا الثناء ثناء !!

ولوتجمعت الدنيا كلها بما فيها من الإنس والجان ، ونطقت بكلمة حق وثناء  
ما وزنت كلماتها كلمات الله : ( وإنك لعلى خلق عظيم ) .

هكذا يثنى الله على رسوله وهو خالق الخلق ، وباعث الرسل ، العالم بقيم  
خلقه ومزلتهم ، يثنى ، وثناؤه حق وتشریف وتعظيم — ويجعل طاعته فى طاعة  
الرسول — وفوق ذلك كله يتولى حراسته وصيافته ، ويعلمه بذلك ليطمئن  
ويعضى فى أداء رسالته غير هباب ، مرتكناً على وعد ربه ، حتى يصل إلى غايته  
( والله يصمك من الناس ) ولم يتركه يدافع عن نفسه ويرد مختلف الاتهامات  
التي وجهها إليه أعداؤه ، بل تولى الدفاع عنه ، ورد السهام الموجهة إليه ، وسجل  
ذلك فى كتابه الخالد ، فحينما ينهم الكفار رسوله بأنه صار أبتراً لاولده لا يترك الله  
رسوله ، رد عليهم بنفسه ، بل يتجلى عليه بسطفه ، ويحامي عنه بكلام ينزله عليه  
ليتلو هو وكل من يأتى من بعده ، ويعرفوا غيرة الله على رسوله ودفاعه عنه :  
( إن أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شئت لك هو الأبتري ) هل ترى  
لحمد كلة فى هذا الرد القوى ؟ كلا إنه كلام ربه الذى يعده الكوثر ، برغم أنوف  
الشائتين ، ثم يدمعهم بما أرادوا أن يصفوا به الرسول ويرد عليهم سبهم له . .  
نعم رد عليهم سبهم .

من الذى يرد ؟ محمد .. أولاده أزواجه أصحابه .. كما اعتاد الناس فى دنيائهم ؟  
لا . لا يا أخى إنه ربه القوى القادر ، الخالق ، مالك للكل ، ومالك يوم الدين .  
أى شرف وأية منزلة وكرامة لهذا العبد الذى اصطفاه الله وحماه ، وأثنى عليه ،  
ودافع عنه ؟ ( وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شييدا ) .

ما أعظم محمدا ۱۱۱

وما أسعد أمته به لو أطاعته ۱ وسارت على مناهجه ۱۱۰ . وما أسعدها به  
فى الدنيا هاديا ، وفى الآخرة شفيها ۱۱  
رب : اهدنا مهديه فى الدنيا ... واجعله شفيهاً لنا يوم ترجى شفاعته . آمين .



# الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	افتتاح . . . . .
٥	مقدمة . . . . .
٩	١ - الدين والدنيا . . . . .
١٤	٢ - المترفون ودعوات الرسل والمصلحين . . . . .
٤٣	٣ - الاسلام وزينة الحياة الدنيا . . . . .
٦٣	٤ - علاقة المسلمين بغيرهم . . . . .
٧٧	٥ - رمضان ونزول القرآن . . . . .
٨٣	٦ - الصيام . . . . .
٨٩	٧ - ذكرى بدر . . . . .
٩٧	٨ - أعيادنا . . . . .
١٠٣	٩ - الحج . . . . .
١٣٦	١٠ - الهجرة أو الصراع بين العقيدة والعاطفة . . . . .
١٥٥	١١ - بين الأمس واليوم . . . . .
١٦١	١٢ - كيف نفهم الاسلام . . . . .
١٦٧	١٣ - سنة الله في رقي الأمم . . . . .
١٧٦	١٤ - الدعوة إلى الله بالحسنى . . . . .
١٨٤	١٥ - الوعد الحق . . . . .
١٨٩	١٦ - وكفى بالله شهيدا . . . . .

الدلالة القويّة للمطابقة والنسبة





#### نبذة عن المؤلف :

الاستاذ عبد المتعم النمر حائز  
لشهادة العالمية مع التخصص وهو  
عضو المكتب الفنى بالأزهر ، وله  
عدة مؤلفات متداولة منها :  
الاسلام والمبادئ المستوردة -  
المساواة فى الاسلام والمدنيّة  
الفريّة - الاسلام والشيوعية -  
تاريخ الاسلام فى الهند ، فضلا  
عن المقالات والأبحاث فى الصحف  
والمحاضرات فى الإذاعة والتلفزيون  
والاندية الثقافية والدنيّة .

#### هذا الكتاب :

الكتاب دراسات تحليلية تهدف الى بيان مناج الاسلام فى علاجه  
لشاكل الحياة ، والى تقسيم المبادئ والتعاليم الاسلاميّة  
صافيّة ، والى تصحيح افكار بعض الناس مما علق بها من تناقض بين  
الدين والحياة ، والى أن الاسلام يعمل على ايجاد الامّة القويّة  
المزينة فى كل جانب من جوانب الحياة المادية والروحية .

الدار القومية للطباعة والنشر

Bibliotheca Alexandrina



0210349